بسم الله الرحمن الرحيم

تفسير سورة طه

قال ابن الجوزي : سورة (طه) وهي مكية كلُّها بإجماعهم.

وقال أبو حيان : هذه السورة مكية بلا خلاف .

اسمها :

سميت طه لافتتاح السورة بها .

وتسمى أيضاً الكليم كما ذكر ذلك السخاوي والآلوسي في تفسيره ولم يرد عن رسول الله ﷺ ما يثبت تسميتها بذلك .

وسميت بذلك لأنها وردت فيها قصة موسى وهو الكليم وسمي الكليم لأن الله جل وعلا كلّمه .

أغراضها :

تيسير الأمر على رسول الله ﷺ .

وبيان فضل الله الواسع على رسله وأصفيائه .

وبيان وظيفة الرسول وحصرها في الدعوة والتذكير والتبشير والإنذار .

وقد بسطت السورة نشأة موسى وتأييد الله إياه ونصره على فرعون بالحجة والمعجزات .

(طه (١) مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى (٢) إِلاَّ تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَى (٣) تَنزِيلاً مِّمَّنْ خَلَقَ الأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى (٤) الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى (٥) لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى (٦)) .

[طه : ١-٦] .

==========

(**طه**) من الحروف المقطعة التي افتتحت بها بعض سور القرآن الكريم ، إشارةً إلى إعجاز القرآن الكريم ، وأنه من نفس الحروف التي يتكلم بها العرب ، ومع هذا فقد عجزوا عن الإتيان بمثله ، مما يدل على أنه منزل من عند الله تعالى.

قال الشنقيطي : أظهر الأقوال فيه عندي أنه من الحروف المقطعة في أوائل السور ، ويدل لذلك أن "الطاء" و "الهاء" المذكورتين في فاتحة هذه السورة ، جاءتا في مواضع أخر لا نزاع فيها في أنهما من الحروف المقطعة ، أما "الطاء" ففي فاتحة "الشعراء" "طسم" وفاتحة "النمل" طس " . وفاتحة "القصص" وأما "الهاء" ففي فاتحة "مريم" في قوله تعالى : "كهيعص" .

وقال ابن عاشور : وكذلك لا التفات إلى قول من زعموا أنه من أسماء النبي ﷺ .

وقال السعدي : طه : من جملة الحروف المقطعة ، المفتتح بها كثير من السور ، وليست اسماً للنبي ﷺ . "انتهى"

وقال الشيخ ابن باز : وليس طه وياسين من أسماء النبي ﷺ في أصح قولي العلماء، بل هما من الحروف المقطعة في أوائل السور مثل: (ص) و (ق) و (ن) ونحوها .

واختار بعضهم : أن معناها يا رجل .

واختاره ابن جرير ، والواحدي .

قال ابن جرير : والذي هو أولى بالصواب عندي من الأقوال فيه قول من قال: معناه: يا رجل، لأنها كلمة معروفة في عكَّ فيما بلغني، وأن معناها فيهم: يا رجل ... فإذا كان ذلك معروفاً فيهم على ما ذكرنا، فالواجب أن يوجه تأويله إلى المعروف فيهم من معناه، ولا سيما إذا وافق ذلك تأويل أهل العلم من الصحابة والتابعين.

ونسب الواحديُّ إلى أكثر المفسِّرينَ أنَّ معنى: طه أي: يا رجُلُ، يريدُ النبيَّ ﷺ .

(**مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى**) أصل الشقاء في اللغة العناء والتعب ، أي ما أنزلنا عليك القرآن لتتعب.

أي : ما أنزلنا عليك القرآن- أيها الرسول الكريم- لكي تتعب وتجهد نفسك هما وغما بسبب إعراض المشركين عن دعوتك، كما قال تعالى: فَلَعَلَّكَ باخِعٌ نَفْسَكَ عَلى آثارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهذَا الْحَدِيثِ أَسَفاً.

وإنما أنزلناه إليك لتسعد بنزوله، ولتبلغ آياته، ثم بعد ذلك من شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر، فأنت عليك البلاغ ونحن علينا الحساب .

كما قال تَعَالَى (فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ) .

وَقَال تَعَالَى (فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا) .

وَقَال تعالى (لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ) .

قال الشوكاني : وَجُمْلَةُ (مَا أَنْزَلْنا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقى) مُسْتَأْنَفَةٌ مَسُوقَةٌ لِتَسْلِيَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَمَّا كَانَ يَعْتَرِيهِ مِنْ جِهَةِ الْمُشْرِكِينَ مِنَ التَّعَبِ

قال الآلوسي : أي ما أنزلناه عليك لتتعب بالمبالغة في مكابدة الشدائد في مقاولة العتاة ومحاورة الطغاة وفرط التأسف على كفرهم به والتحسر على أن يؤمنوا به كقوله تعالى شأنه (فَلَعَلَّكَ باخع نَّفْسَكَ على ءاثارهم) الآية بل لتبلغ وتذكر وقد فعلت فلا عليك إن لم يؤمنوا بعد ذلك أو لصرفه عليه السلام عما كان عليه من المبالغة في المجاهدة في العبادة .

وقيل : المقصود بالآية ، أنَّ النبيَّ ﷺ قام في الصلاةِ حتى تورَّمت قدماه، فنزلت الآيةُ تخفيفًا عنه، فالشَّقاءُ على هذا إفراطُ التَّعَب في العبادة .

قال القاسمي : وفي ذلك كله من تكريم الرسول صلوات الله عليه ، وحسن العناية به والرأفة ، ما لا يخفى .

قال الشنقيطي : ويفهم من قوله : (لتشقى) أنه أُنزل عليه ليسعد.

كما يدل له الحديث الصحيح (من يُرد الله به خيراً يفقهه في الدين) .

وقد روى الطبراني عن ثعلبة بن الحك رضي الله عنه عن النبي ﷺ : أن الله يقول للعلماء يوم القيامة (إني لم أجعل علمي وحكمتي فيكم إلا وأنا أريد أن أغفر لكم على ما كان منكم ولا أبالي) قال ابن كثير : إن إسناده جيد .

قال السعدي : (مَا أَنزلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى) أي: ليس المقصود بالوحي، وإنزال القرآن عليك، وشرع الشريعة، لتشقى بذلك، ويكون في الشريعة تكليف يشق على المكلفين، وتعجز عنه قوى العاملين. وإنما الوحي والقرآن والشرع، شرعه الرحيم الرحمن، وجعله موصلا للسعادة والفلاح والفوز، وسهله غاية التسهيل، ويسر كل طرقه وأبوابه، وجعله غذاء للقلوب والأرواح، وراحة للأبدان، فتلقته الفطر السليمة والعقول المستقيمة بالقبول والإذعان، لعلمها بما احتوى عليه من الخير في الدنيا والآخرة .

(**إِلاَّ تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَى**) أي : ما أنزلناه إلا عظة وتذكيراً لمن يخشى الله ويخاف عقابه .

والتذكرة : الموعظة التي تلين لها القُلوب. فتمتثل أمر الله وتجتنب نهيه.

وخص بالتذكرة من يخشى دون غيرهم لأنهم هم المنتفعون بها .

كقوله تعالى (فَذَكِّرْ بالقرآن مَن يَخَافُ وَعِيدِ) .

وقوله (إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتبع الذكر وَخشِيَ الرحمن بالغيب) .

وقوله (إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَاهَا) .

فالتخصيص المذكور في الآيات بـ (من) تنفع فيهم الذكرى لأنهم هم المنتفعون بها دون غيرهم.

قال ابن القيم : آياتُ اللهِ الإيمانيةُ القرآنيةُ إنما يَنتَفِعُ بها أهلُ التَّقوى والخشيةِ والإنابةِ ومَن كان قَصدُه اتِّبَاعَ رضوانِه؛ وأنها يَتذَكَّرُ بها مَن يخشاه سُبحانَه، قال تعالى (طه مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى * إِلَّا تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشَى) .

قال السعدي : وخص بالتذكرة (مَن يَخْشَى) لأن غيره لا ينتفع به، وكيف ينتفع به من لم يؤمن بجنة ولا نار، ولا في قلبه من خشية الله مثقال ذرة؟ هذا ما لا يكون .

وما ذكره هنا من أنه ما أنزل القرآن إلا للتذكرة – بينه في غير هذا الموضع :

كقوله تعالى (إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ) .

وقوله تعالى (قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِنْ هُوَ إِلاَّ ذكرى لِلْعَالَمِينَ) إلى غير ذلك من الآيات.

ومن أسماء القرآن الذكر ، كما قال تعالى (وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم) وقال تعالى (إنا نحن نزلنا الذكر).

قال ابن جرير في وجه تسميته بالذكر: إنه محتمل معنيين:

أحدهما: أنه ذكر من الله جل ذكره ، ذكّر به عباده ، فعرفهم فيه حدوده وفرائضه ، وسائر ما أودعه من حكمه.

والآخر: أنه ذكر وشرف وفخر لمن آمن به وصدق بما فيه ، كما قال جل ثناؤه (وإنه لذكر لك ولقومك) يعني أنه شرف به شرف له ولقومه.

وقال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله: وسمي القرآن ذكراً :

أولاً: لما فيه من التذكير والموعظة.

ثانياً: لما فيه من الأخبار الماضية، وقصص الأنبياء الغابرة المفيدة للقلب، كما قال تعالى (لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي الأَلْبَابِ).

ثالثاً: لما فيه من ذكر أحوال الناس في الجزاء يوم القيامة ، وأنهم ينقسمون إلى: فريق في الجنة، وفريق في السعير.

رابعاً: لما فيه من ذكر العرب ورفع شأنهم ، كما قال تعالى (وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ).

خامساً: ذكر شريعة الله وأحكامه من الأوامر والنواهي.

(**تَنزِيلاً**) أي: نزل هذا القرآنُ تنزيلًا مِنَ الله .

(**مِّمَّنْ خَلَقَ الأَرْضَ**) الذي خلق الأرض التي تعيشون عليها .

(**وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى**) أي : وممن خلق السماوات العالية المرتفعة .

وصف السموات بالعلى ، دليل على عظمة قدرة من اخترعها ، اذ لا يمكن وجود مثلها في علوها من غيره تعالى .

أي فليس بشعر ولا كهانة ولا سحر ولا أساطير الأولين :

كما دل لهذا المعنى قوله تعالى (وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً مَّا تُؤْمِنُونَ وَلاَ بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ العالمين) .

والآيات المصرحة بأن القرآن منزل من رب العالمين كثيرة جداً معروفة :

كقوله (وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ العالمين) وقوله (تَنزِيلُ الكتاب مِنَ الله العزيز الحكيم) وقوله (تَنزِيلٌ مِّنَ الرحمن الرحيم) .

قال الشوكاني : وتخصيص خلق الأرض والسموات لِكَوْنِهِمَا أَعْظَمَ مَا يُشَاهِدُهُ الْعِبَادُ مِنْ مَخْلُوقَاتِهِ عزّ وجلّ، والعلا: جَمْعُ الْعُلْيَا، أَيِ: الْمُرْتَفِعَةُ، كَجَمْعِ كُبْرَى وَصُغْرَى عَلَى كُبَرٍ وَصُغَرٍ. وَمَعْنَى الْآيَةِ إِخْبَارُ الْعِبَادِ عَنْ كَمَالِ عَظَمَتِهِ سُبْحَانَهُ وَعَظِيمِ جَلَالِهِ .

(**الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى**) سبق شرحها في سورة الأعراف .

(**لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ**) أي: لله وَحْدَه مُلكُ جَميعِ ما في السَّمواتِ، وجميعِ ما في الأرضِ ، من كائنات وموجودات ملكاً وتصرفاً وإحياء وإماتة .

(**وَمَا بَيْنَهُمَا**) من مخلوقات لا يعلمها إلا هو ، من ملك وإنسي وجني وحيوان وجماد ونبات

(**وما تحتَ الثُّرابِ**) أي : وله سبحانه أيضاً ممَّا في باطِنِ الأرضِ مِن المخلوقاتِ .

فالجميع ملك لله تعالى عبيد مدبرون مسخرون تحت قضائه وتدبيره ليس لهم من الملك شيء ولا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً ولا موتاً ولا حياةً ولا نشوراً .

خص سبحانه ما تحت الثرى بالذكر، مع أنه داخل في قوله: وَما فِي الْأَرْضِ لزيادة التقرير، ولتأكيد شمول ملكيته سبحانه لكل شيء.

قال ابن الجوزي : فأما "الثرى" فهو التراب الندىّ ، والمفسرون يقولون : أراد الثرى الذي تحت الأرض السابعة .

قال القاسمي : بيان لشمول قهره وملكته للكل ، أي : كلها تحت ملكته وقهره وسلطنته وتأثيره ، لا توجد ولا تتحرك ولا تسكن ولا تتغير ولا تثبت إلا بأمره.

الفوائد :

١. إعجاز القرآن، فإنه مكوّن من جنس الحروف التي يتألف منها سائر الكلام، وقد عجزت العرب أن يأتوا بسورة مثله.

٢. إثبات علو الله تعالى .

٣. أن القرآن منزل غير مخلوق .

٤. أن القرآن منزل على محمد ﷺ .

٥. تسلية للنبي ﷺ .

٦. دفاع الله عن نبيه ﷺ .

٧. أن الحكمة من إنزال القرآن هداية البشرية للتوحيد الذي فيه سعادتهم .

٨. فضل خشية الله ، وأنها من أسباب الانتفاع بالقرآن .

٩. أن على الرسول البيان والدعوة ولم يكلف بهداية البشرية .

١٠. إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء .

١١. من تمسك بالقرآن وعمل به لا يشقى بل يسعد .

١٢. أن أعظم مخلوقات الله السماوات والأرض .

١٣. إثبات العرش .

١٤. إثبات استواء الله على عرشه استواء يليق بجلاله .

١٥. أن كل شيء ملك لله وتحت قهره .

١٦. لا أحد يستطيع أن يخرج عن ملك الله وقهره .

(**وَإِن تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى** (٧)) .

[طه : ٧] .

==========

(**وَإِن تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ**) أي : وإنْ تجهَرْ بقولِك –يا مُحمَّدُ -أو تُسِرَّه، فكُلٌّ سَواءٌ في عِلمِ الله .

(**فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى**) أَخْفَى صِيغَةُ تَفْضِيلٍ ، والمعنى : وَيَعْلَمُ مَا هُوَ أَخْفَى مِنَ السِّرِّ .

اختلف في معناها :

قيل : يَعْلَمُ السِّرَّ : أَيْ مَا قَالَهُ الْعَبْدُ سِرًّا وَأَخْفَى أَيْ وَيَعْلَمُ مَا هُوَ أَخْفَى مِنَ السِّرِّ ، وَهُوَ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ .

كَمَا قَالَ تَعَالَى (وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ) .

وقيل : فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ : أَيْ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ ، وَأَخْفَى مِنْ ذَلِكَ ، وَهُوَ مَا عَلِمَ اللَّهُ أَنَّ الْإِنْسَانَ سَيَفْعَلُهُ قَبْلَ أَنْ يَعْلَمَ الْإِنْسَانُ أَنَّهُ فَاعِلُهُ .

كَمَا قَالَ تَعَالَى (وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِنْ دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ) .

وَكَمَا قَالَ تَعَالَى (هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى).

فَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّهُ الْإِنْسَانُ الْيَوْمَ . وَمَا سَيُسِرُّهُ غَدًا . وَالْعَبْدُ لَا يَعْلَمُ مَا فِي غَدٍ .

فائدة :

عموم علم الله تعالى بكل شيء .

أولاً: الله تعالى يعلم كل شيء ، يشمل الجزئيات والكليات.

قال تعالى (وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً).

وقال تعالى (عَالِمِ الْغَيْبِ لا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلا فِي الْأَرْضِ وَلا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ).

ثانياً: يعلم سبحانه الماضي والمستقبل.

قال تعالى (يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ).

(ما بين أيديهم) الحاضر والمستقبل (وما خلفهم) الماضي.

ثالثاً: الله يعلم الخفايا وما في الصدور:

كما قال تعالى (إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ).

وقال تعالى (إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ).

وقال تعالى (وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ). وقال تعالى (قُلْ إِنْ تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ).

رابعاً: وليس شيء يصل إلى الأرض أو يصعد من الأرض إلى السماء إلا قد أحاط الله به علماً.

قال تعالى (يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ).

خامساً: ويعلم الأمور التي لن تكون كيف تكون لو كانت.

كما قال تعالى عن الكفار حين يكونون في النار (وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ).

وقال تعالى (لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ).

والمتخلفون عن غزوة تبوك لا يحضرونها أبداً، لأن الله هو الذي ثبطهم عنها بحكمته بقوله (وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ) وهذا الخروج الذي لا يكون قد علم جل وعلا أن لو كان كيف يكون، كما صرح به في قوله (لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالاً وَلَأَوْضَعُوا خِلالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ).

سادساً: ويستوي في علم الله السر والعلانية ، والصغير والكبير والغيب والشهادة.

قال تعالى (وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ وَلا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ).

وقال تعالى (وَإِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى).

وقال تعالى (قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً).

اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ. عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ. سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ).

سابعاً: وعلم الله لم يسبقه جهل ولا يلحقه نسيان.

قال تعالى (... قَالَ عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لا يَضِلُّ رَبِّي وَلا يَنْسَى).

وقال تعالى (... وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيّاً) .

أما علم ابن آدم فمسبوق بجهل ويلحقه نسيان، كما قال تعالى (وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئاً).

ثامناً: علمنا قليل بالنسبة لعلم الله.

قال تعالى (وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً).

فائدة : ٢

الخوف من الله وخشيته ، ومراقبته في السر والعلن ، لأن العبد إذا أيقن أن الله تعالى عالم بحاله مطلع على باطنه وظاهره ، فإن ذلك يدفعه إلى الاستقامة على أمر الله ظاهراً وباطناً.

فائدة : ٣

اليقين بشمول علم الله تعالى لكل شيء في السماوات والأرض ، وللبواطن والظواهر ، يثمر في قلب العبد تعظيم الله تعالى وإجلاله والحياء منه ، كما يعين على التخلص من الآفات القلبية التي تخفى على الناس ولكنها لا تخفى على الله كآفة الرياء والحسد والغل والعجب والكبر.

قال ابن القيم: فإن قلت: فما السبيل إلى حفظ الخواطر ، قلت: أسباب عدة ، أحدها: العلم الجازم باطلاع الرب سبحانه ونظره إلى قلبك ، وعلمه بتفصيل خواطرك ، والثاني: حياؤك منه ، والثالث: إجلالك له أن يرى مثل تلك الخواطر في بيته الذي خلق لمعرفته ومحبته.

فائدة : ٤

إن يقين العبد بعلم الله تعالى الشامل لكل شيء ، ومن ذلك علمه سبحانه بحال عبده المصاب وما يقاسيه من الآلام ، إن ذلك يثمر في القلب الرجاء والأنس بالله ويدفع اليأس والقنوط من القلب.

فائدة : ٥

نستفيد من معرفتنا أن الله عليم بكل شيء: وجوب مراقبة الله، لأن العاقل إذا علم أن الله سبحانه وتعالى يعلم كل شيء، فسوف يراقب ربه، بلسانه وجنانه وأركانه، فبلسانه: لا ينطق بما حرم الله، وبجنانه: لا يعتقد بقلبه خلاف الحق، وبجوارحه: لا يستعملها في

المحرمات، فيستعمل العين في النظر إلى الحرام، ويستعمل اليد في البطش الحرام، ويستعمل الآذان في السماع الحرام.
وأيضاً نستفيد من معرفتنا أن الله عليم بكل شيء: الرغبة والنشاط والرجاء، لأن الإنسان يعلم أن الله يعلم بكل أعماله الصالحة، وأنه لن يضيع منها شيء.
(اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ لَهُ الأَسْمَاء الْحُسْنَى (٨)) .
[طه : ٨] .
==========
(اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ) لا إله بحق إلا الله.
فهو الإله الحق الذي تتعين أن تكون جميع أنواع العبادة والطاعة والتأله له تعالى، لكماله وكمال صفاته وعظيم نعمه، ولكون العبد مستحقا أن يكون عبداً لربه، ممتثلا أوامره مجتنباً نواهيه، وكل ما سوى الله تعالى باطل، فعبادة ما سواه باطلة، لكون ما سوى الله مخلوقاً ناقصاً مدبراً فقيراً من جميع الوجوه، فلم يستحق شيئاً من أنواع العبادة.
ففي هذه الآية يخبر الله بأنه منفرد بالألوهية، وذلك من قوله (لا إله إلا هو) هذه جملة تفيد الحصر وطريقة النفي والإثبات هذه من أقوى صيغ الحصر.
ففيها نفي استحقاق غير الله العبادة، وإثبات استحقاق الألوهية والعبودية لله تعالى.
قال ابن كثير: إخبار بأنه المنفرد بالإلهية لجميع الخلائق.
وقال السعدي: فأخبر أنه الله، الذي له جميع معاني الألوهية، وأنه لا يستحق الألوهية والعبودية إلا هو، وعبودية غيره باطلة.
وقال ابن رجب: قَوْل: لَا إِلَهَ إِلَّا اَللَّهُ، تَقْتَضِي أَلَّا يُحِبَّ سِوَاهُ، فَإِنَّ اَلْإِلَهَ هُوَ اَلَّذِي يُطَاعُ، مَحَبَّةً وَخَوْفًا وَرَجَاءً. وَمِنْ تَمَامِ مَحَبَّتِهِ مَحَبَّةُ مَا يُحِبُّهُ، وَكَرَاهَةُ مَا يَكْرَهُهُ، فَمَنْ أَحَبَّ شَيْئًا مِمَّا يَكْرَهُ اَللَّهُ، أَوْ كَرِهَ شَيْئًا مِمَّا يُحِبُّهُ اَللَّهُ لَمْ يَكْمُلْ تَوْحِيدُهُ وَلَا صِدْقُهُ فِي قَوْلِهِ: لَا إِلَهَ إِلَّا اَللَّهُ، وَكَانَ فِيهِ مِنْ اَلشِّرْكِ اَلْخَفِيِّ بِحَسْبِ مَا كَرِهَهُ مِمَّا يُحِبُّهُ اَللَّهُ، وَمَا أَحَبَّهُ مِمَّا يَكْرَهُهُ. قَالَ تَعَالى (ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ).
– فضائل كلمة التوحيد:
أولاً: هِيَ كَلِمَةُ اَلْإِخْلَاصِ، وَشَهَادَةُ اَلْحَقِّ وَدَعْوَةُ اَلْحَقِّ، وَبَرَاءَةٌ مِنْ اَلشِّرْكِ، وَلِأَجْلِهَا خُلِقَ اَلْخَلْقُ.
كَمَا قَالَ تَعَالَى (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُون).
ثانياً: وَلِأَجْلِهَا أُرْسِلَتْ اَلرُّسُلُ وَأُنْزِلَتْ اَلْكُتُبُ
قَالَ تَعَالَى (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُون).
وقال تعالى (يُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ).
ثالثاً: هي ثَمَنُ اَلْجَنَّةِ.
قال ﷺ (مَنْ كَانَتْ آخِرَ كَلَامِهِ دَخَلَ اَلْجَنَّة) رواه أبو داود.
رابعاً: وهي نَجَاةٌ مِنْ اَلنَّارِ.
وَسَمِعَ اَلنَّبِيَّ ﷺ مُؤَذِّنًا يَقُولُ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اَللَّهُ، فَقَالَ خَرَجَ مِنْ اَلنَّارِ. خَرَّجَهُ مُسْلِمٌ
خامساً: وهي أَحْسَنُ اَلْحَسَنَاتِ:

قَالَ أَبُو ذَرٍّ: (قُلْتُ: يَا رَسُولَ اَللَّهِ! عَلِّمْنِي عَمَلاً يُقَرِّبُنِي مِنَ اَلْجَنَّةِ، وَيُبَاعِدُنِي مِنْ اَلنَّارِ، قَالَ: إِذَا عَمِلْتَ سَيِّئَةً فَاعْمَلْ حَسَنَةً، فَإِنَّهَا عَشْرُ أَمْثَالِهَا قُلْتُ: يَا رَسُولَ اَللَّهِ، لَا إِلَهَ إِلَّا اَللَّهُ مِنَ اَلْحَسَنَاتِ؟ قَالَ هِيَ أَحْسَنُ اَلْحَسَنَات).

سادساً: وَهِيَ: تُجَدِّدُ مَا دُرِسَ مِنَ اَلْإِيمَانِ فِي اَلْقَلْبِ.

كما فِي اَلْمُسْنَدِ أَنَّ اَلنَّبِيَّ ﷺ قَالَ لِأَصْحَابِهِ (جَدِّدُوا إِيمَانَكُمْ قَالُوا كَيْفَ نُجَدِّدُ إِيمَانَنَا؟ قَالَ: قُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اَللَّه).

سابعاً: وَهِيَ اَلَّتِي لَا يَعْدِلُهَا شَيْءٌ فِي اَلْوَزْنِ، فَلَوْ وُزِنَتْ اَلسَّمَاءِ وَالْأَرْضِ رَجَحَتْ بِهِنَّ.

كَمَا فِي اَلْمُسْنَدِ عَنْ عَبْدِ اَللَّهِ بْنِ عَمْرٍو عَنْ اَلنَّبِي ﷺ (أَنَّ نُوحًا قَالَ لِابْنِهِ عِنْدَ مَوْتِهِ: آمُرُكَ بِلَا إِلَهِ إِلَّا اَللَّهُ، فَإِنَّ اَلسَّمَاوَاتِ اَلسَّبْعَ وَالْأَرَضِينَ اَلسَّبْعَ كُنَّ فِي حَلْقَةٍ مُبْهَمَةٍ قَصَمَتْهُنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اَللَّه).

وَفِيهِ أَيْضًا عَنْ عَبْدِ اَللَّهِ بْنِ عَمْرٍو. عَنْ اَلنَّبِي ﷺ (أَنَّ مُوسَى عليه السلام قَالَ: يَا رَبُّ عَلِّمْنِي شَيْئًا أَذْكُرُكَ بِهِ وَأَدْعُوكَ بِهِ، قَالَ: يَا مُوسَى! قُلْ لَا إِلَهَ إِلَّا اَللَّهُ، قَالَ: يَا رَبِّ! كُلُّ عِبَادِكَ يَقُولُونَ هَذَا. قَالَ: قُلْ لَا إِلَهَ إِلَّا اَللَّهُ. فَقَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، إِنَّمَا أُرِيدُ شَيْئًا تَخُصُّنِي بِهِ. قَالَ: يَا مُوسَى! لَوْ أَنَّ اَلسَّمَاوَاتِ اَلسَّبْعَ وَعَامِرَهُنَّ غَيْرِي وَالْأَرَضِينَ اَلسَّبْعَ فِي كِفَّةٍ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اَللَّهُ فِي كِفَّةٍ، مَالَتْ بِهِنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اَللَّه).

ثامناً: وَهِيَ أَفْضَلُ اَلذِّكْرِ.

كَمَا فِي حَدِيثِ جَابِرٍ اَلْمَرْفُوع (أَفْضَلُ اَلذِّكْرِ لَا إِلَهَ إِلَّا اَللَّه) رواه الترمذي.

تاسعاً: ومن أعظم فضائلها:

ما جاء فِي اَلصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عَنْ اَلنَّبِي ﷺ مَنْ قَالَ (لَا إِلَهَ إِلَّا اَللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ اَلْمُلْكُ وَلَهُ اَلْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، مِائَةَ مَرَّةٍ كَانَتْ لَهُ عَدْلُ عَشْرِ رِقَابٍ، وَكُتِبَ لَهُ مِائَةُ حَسَنَةٍ، وَمُحِيَ عَنْهُ مِائَةُ سَيِّئَةٍ، وَكَانَتْ لَهُ حِرْزًا مِنْ اَلشَّيْطَانِ يَوْمَهُ ذَلِكَ حَتَّى يُمْسِيَ، وَلَمْ يَأْتِ بِأَفْضَلَ مِمَّا جَاءَ بِهِ، إِلَّا أَحَدٌ عَمِلَ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِك).

وَفِيهِمَا أَيْضًا عَنْ أَبِي أَيُّوبَ، عَنْ اَلنَّبِي ﷺ قال (مَنْ قَالَهَا عَشْرَ مَرَّاتٍ كَانَ كَمَنْ أَعْتَقَ أَرْبَعَةَ أَنْفُسٍ مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيل).

عاشراً: وَمِنْ فَضَائِلِهَا أَنَّهَا تَفْتَحُ لِقَائِلِهَا أَبْوَابَ اَلْجَنَّةِ اَلثَّمَانِيَةِ. يَدْخُلُ مِنْ أَيِّهَا شَاءَ.

كَمَا فِي حَدِيثِ عُمَر. قَالَ رَسُولُ اَللَّهِ ﷺ (مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ يَتَوَضَّأُ، فَيُسْبِغُ اَلْوُضُوءَ، ثُمَّ يَقُولُ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اَللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، إِلَّا فُتِحَتْ لَهُ أَبْوَابُ اَلْجَنَّةِ") أَخْرَجَهُ مُسْلِم .

وَفِي اَلصَّحِيحَيْنِ عَنْ عُبَادَةَ عَنْ اَلنَّبِيِّ ﷺ قَال (مَنْ قَالَ أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اَللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَأَنَّ عِيسَى عَبْدُ اَللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ، وَأَنَّ اَلْجَنَّةَ حَقٌّ وَأَنَّ اَلنَّارَ حَقٌّ وَأَنَّ اَللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي اَلْقُبُورِ فُتِحَتْ لَهُ ثَمَانِيَةَ أَبْوَابٍ مِنَ اَلْجَنَّةِ يَدْخُلُ مِنْ أَيِّهَا.

(له الأَسْمَاء الْحُسْنَى) له وحده الأسماء الكاملة في الحسن.

والحسنى تأنيث الأحسن، والمعنى: لله الأسماء التي هي أحسن الأسماء وأجلها، لإنبائها عن أحسن المعاني وأشرفها.

فأسماء الله كلها حسنى بالغة الحسن غايته، فليس فيها نقص بوجه من الوجوه ولا بحال من الأحوال.

وقد ذكر سبحانه أن له الأسماء الحسنى في أربعة مواضع من القرآن الكريم:

قال تعالى: (وَلِلَّهِ الأَسْمَاء الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ).

وقال تعالى: (قُلِ ادْعُوا اللّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيّاً مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الأَسْمَاء الْحُسْنَى).

وقال تعالى: (اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاء الْحُسْنَى).

وقال تعالى: (هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاء الْحُسْنَى).

مثال: (الحي) من أسماء الله متضمن للحياة الكاملة التي لم تسبق بعدم ولا يلحقها زوال.

مثال: (العليم) اسم من أسماء الله تعالى متضمن للعلم الكامل الذي لم يسبق بجهل ولا يلحقه نسيان.

والحسن في أسماء الله تعالى، يكون باعتبار كل اسم على انفراده، ويكون باعتبار جمعه إلى غيره فيحصل بجمع الاسم إلى الآخر كمال فوق كمال.

مثال ذلك (العزيز الحكيم) فإن الله تعالى يجمع بينهما في القرآن كثيراً، فيكون كل منهما دالاً على الكمال الخاص الذي يقتضيه، وهو العزة في العزيز، والحكم والحكمة في الحكيم، والجمع بينهما دال على كمال آخر وهو أن عزته تعالى مقرونة بالحكمة، فعزته لا تقتضي ظلماً وجوراً وسوء فعل، كما قد يكون من أعزاء المخلوقين، فإن العزيز منهم قد تأخذه العزة بالإثم، فيظلم ويجور ويسيء التصرف. وكذلك حكمه تعالى وحكمته مقرونان بالعز الكامل بخلاف حكم المخلوق وحكمته فإنهما يعتريهما الذل.

– هل أسماء الله محصورة؟

لا، غير محصورة.

عن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ (ما قال عبد قط إذا أصابه هَمٌّ وحَزَنٌ: اللهمِ إني عبدُك وابنُ عبدك وابنُ أَمَتك، ناصيتي بيدكِ، ماضٍ فيَّ حُكْمُك، عدْلٌ في قضاؤك، أسألك بكل اسم هو لك سمَّيْتِ به نفسَك أو أنزلتَه فِي كتابك، أو عَلّمته أحداً من خَلْقك، أو استأثرت به في علم الغيبِ عندك، أن تجعل القرآنَ ربيع قلبي، ونور صدري، وجلاءَ حزني، وذَهَاب هَمّي، إلاَّ أذهب الله عز وجل هَمَّه، وأبدله مكان حُزْنه فَرَحاً"، قالوا: يا رسول الله، ينبغي لنا أن نتعلم هؤلاء الكلمات؟، قال: "أجَلْ، ينبغي لمن سمعهنَّ أن يتعلمهنّ) رواه أحمد.

وما استأثر الله تعالى به في علم الغيب لا يمكن لأحد حصره ولا الإحاطة به.

فقوله ﷺ (أَوْ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ) دليل على أن من أسماء الله تعالى الحسنى ما استأثر به في علم الغيب عنده، فلم يطلع عليه أحداً من خلقه، وهذا يدل على أنها أكثر من تسعة وتسعين.

قال شيخ الإسلام عن هذا الحديث: فَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ لِلَّهِ أَسْمَاءً فَوْقَ تِسْعَةٍ وَتِسْعِينَ.

وقال أيضاً: قَالَ الخطابي وَغَيْرُهُ: فَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ لَهُ أَسْمَاءً اسْتَأْثَرَ بِهَا وَذَلِكَ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ قَوْلَهُ: (إنَّ لِلَّهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ) أَنَّ فِي أَسْمَائِهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ، كَمَا يَقُولُ الْقَائِلُ: إنَّ لِي أَلْفَ دِرْهَمٍ أَعْدَدْتهَا لِلصَّدَقَةِ وَإِنْ كَانَ مَالُهُ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ. وَاَللَّهُ فِي الْقُرْآنِ قَالَ: (وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا) فَأَمَرَ أَنْ يُدْعَى بِأَسْمَائِهِ الْحُسْنَى مُطْلَقًا، وَلَمْ يَقُلْ: لَيْسَتْ أَسْمَاؤُهُ الْحُسْنَى إلا تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا.

وقال الشيخ ابن عثيمين: أسماء الله ليست محصورة بعدد معين، والدليل على ذلك قوله ﷺ في الحديث الصحيح (اللهم إني عبدك وابن عبدك وابن أمتك... إلى أن قال: أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علمته أحداً من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك).

وما استأثر الله به في علم الغيب لا يمكن أن يُعلم به، وما ليس معلوماً ليس محصوراً.

– **فإن قيل:** ما الجواب عن حديث الباب إن لله تسعة وتسعين اسماً ...) ؟

قال العلماء: هذا لا يدل على الحصر بهذا العدد، ولو كان المراد الحصر لكانت العبارة: إن أسماء الله تسعة وتسعين اسماً من أحصاها دخل الجنة.

قال النووي: وَاتَّفَقَ الْعُلَمَاء عَلَى أَنَّ هَذَا الْحَدِيث لَيْسَ فِيهِ حَصْر لِأَسْمَائِهِ سُبْحَانه وَتَعَالَى، فَلَيْسَ مَعْنَاهُ: أَنَّهُ لَيْسَ لَهُ أَسْمَاء غَيْر هَذِهِ التِّسْعَة وَالتِّسْعِينَ، وَإِنَّمَا مَقْصُود الْحَدِيث أَنَّ هَذِهِ التِّسْعَة وَالتِّسْعِينَ مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّة، فَالْمُرَاد الْإِخْبَار عَنْ دُخُول الْجَنَّة بِإِحْصَائِهَا لَا الْإِخْبَار بِحَصْرِ الْأَسْمَاء، وَلِهَذَا جَاءَ فِي الْحَدِيث الْآخَر: " أَسْأَلك بِكُلِّ اِسْم سَمَّيْت بِهِ نَفْسك أَوْ اِسْتَأْثَرْت بِهِ فِي عِلْم الْغَيْب عِنْدك " .

وقال الشيخ ابن عثيمين: وأما قوله ﷺ (إِنَّ لِلَّهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا مِائَةً إِلا وَاحِدًا مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّة)

فليس معناه أنه ليس له إلا هذه الأسماء، لكن معناه أن من أحصى من أسمائه هذه التسعة والتسعين فإنه يدخل الجنة، فقوله (مَنْ أَحْصَاهَا) تكميل للجملة الأولى وليست استئنافية منفصلة، ونظير هذا قول العرب: عندي مائة فرس أعددتها للجهاد في سبيل الله. فليس معناه أنه ليس عنده إلا هذه المائة؛ بل هذه المائة معدة لهذا الشيء" اهـ.

-ما معنى الإحصاء في قوله (مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّة)؟

اخْتَلَفُ العلماء فِي الْمُرَاد بِإِحْصَائِهَا على أقوال:

القول الأول: معناه حفظها.

قال النووي: فَقَالَ الْبُخَارِيّ وَغَيْره مِنْ الْمُحَقِّقِينَ: مَعْنَاهُ: حَفِظَهَا، وَهَذَا هُوَ الْأَظْهَر؛ لِأَنَّهُ جَاءَ مُفَسَّرًا فِي الرِّوَايَة الْأُخْرَى (مَنْ حَفِظَهَا). (شرح مسلم)

وقال في (الأذكار) وهو قول الأكثرين.

القول الثاني: أي: أَطَاقَهَا أَيْ: أَحْسَن الْمُرَاعَاة لَهَا، وَالْمُحَافَظَة عَلَى مَا تَقْتَضِيه، وَصَدَّقَ بِمَعَانِيهَا.

وَقِيلَ: مَعْنَاهُ: الْعَمَل بِهَا وَالطَّاعَة بِكُلِّ اِسْمهَا، وَالْإِيمَان بِهَا لَا يَقْتَضِي عَمَلًا.

قال الشيخ ابن عثيمين: معنى إحصاء هذه التسعة والتسعين الذي يترتب عليه دخول الجنة، ليس معنى ذلك أن تكتب في رقاع ثم تكرر حتى تحفظ فقط، ولكن معنى ذلك:

أولاً: الإحاطة بها لفظا.

ثانياً: فهمها معنى.

ثالثاً: التعبد لله بمقتضاها، ولذلك وجهان:

الوجه الأول: أن تدعو الله بها؛ لقوله تعالى (وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا) بأن تجعلها وسيلة إلى مطلوبك، فتختار الاسم المناسب لمطلوبك، فعند سؤال المغفرة تقول: يا غفور، وليس من المناسب أن تقول: يا شديد العقاب اغفر لي، بل هذا يشبه الاستهزاء، بل تقول: أجرني من عقابك.

الوجه الثاني: أن تتعرض في عبادتك لما تقتضيه هذه الأسماء؛ فمقتضى الرحيم الرحمة، فاعمل العمل الصالح الذي يكون جالبا لرحمة الله، ومقتضى الغفور المغفرة، إذا افعل ما يكون سببا في مغفرة ذنوبك، هذا هو معنى إحصائها.

- أسماء الله توقيفية، لا يجوز أن نسمي الله إلا بما سمى به نفسه أو سمى به رسوله ﷺ .

لقوله تعالى: (وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ) وإثبات اسم لله لم يسم به نفسه هذا من القول عليه بلا علم.

ولقوله ﷺ (وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ) وإثبات اسم لله لم يسم به نفسه من قفو ما ليس لنا به علم.

ولقوله ﷺ (وَلِلَّهِ الأَسْمَاء الْحُسْنَى) والحسنى البالغة في الحسن كماله، وأنت إذا سميت الله باسم، فليس عندك أنه بلغ كمال الحسن، بل قد تسميه باسم تظن أنه حسن، وهو سيء ليس بحسن.

– أسماء الله مشتقة، أي أن كل اسم يتضمن الصفة التي اشتق منها، ولولا ذلك لم تكن حسنى.

الخلاق: يضمن صفة الخلق.

العليم: يتضمن صفة العلم.

السميع: يتضمن صفة السمع.

(وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى (٩) إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى (١٠) فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى (١١) إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى (١٢) وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى (١٣) إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي (١٤) إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى (١٥) فَلا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَنْ لا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى (١٦)) .

[طه : ٩ -١٦] .

==========

(وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى) من ها هنا شرع- تبارك وتعالى- في ذكر قصة موسى، وكيف كان ابتداء الوحى إليه وتكليمه إياه، وذلك بعد ما قضى موسى الأجل الذي كان بينه وبين صهره في رعاية الغنم وسار بأهله، قيل: قاصداً بلاد مصر بعد ما طالت الغيبة عنها أكثر من عشر سنين، ومعه زوجته فأضل الطريق، وكانت ليلة شاتية، ونزل منزلاً بين شعاب وجبال، في برد وشتاء، وسحاب وظلال وضباب، وجعل يقدح بزند معه ليوري ناراً، كما جرت العادة به، فجعل لا يقدح شيئاً، ولا يخرج منه شرر ولا شيء، فبينما هو كذلك، إذ آنس من جانب الطور ناراً . (ابن كثير) .

قال البقاعي : (وهل أتاك) أي يا أشرف الخلق! (حديث موسى) نادباً إلى التأسي بموسى عليه السلام في تحمل أعباء النبوة وتكليف الرسالة والصبر على مقامات الشدائد ، وشارحاً بذكر ما في هذه السورة من سياق قصة ما أجمل منها في سورة مريم .

(إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا) أي : حين رأى ناراً فقال لامرأته : أقيمي مكانك فإني أبصرت ناراً .

قال ابن عباس : هذا حين قضى الأجل، وسار بأهله من مدين يريد مصر، وكان قد أخطأ الطريق، وكانت ليلة مظلمة شاتية، فجعل يقدح بالزناد قلا يخرج منها شرر، فبينما هو كذلك إذ بصر بنار من بعيد على يسار الطريق، فلما رآها ظنها ناراً وكانت من نور الله .

قال الماوردي : (فَقَالَ لأَهْلِهِ امْكُثُواْ) أي أقيموا. والفرق بين المكث والإقامة أن الإقامة تدوم والمكث لا يدوم.

قال ابن عاشور: والأهلُ: الزوجُ والأولادُ، وكانوا معه بقرينةِ الجمعِ في قولِه: امْكُثُوا .

(لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ) القبس : شعلة من نار .

كما قال تعالى (فلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُون) .

(أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى) أي : من يهديني الطريق ، وهذا دليل على أنه قد تاه عن الطريق .

قال ابن جرير : دلالةٌ تدلُّ على الطريقِ الذي أضلَلْناه؛ إمَّا مِن خبرِ هاد يهدينا إليه، وإمَّا مِن بيانٍ وعلمٍ نتبيَّنُه به ونَعرِفُه .

(فَلَمَّا أَتَاهَا) أي : فلما أتى موسى عليه السلام إلى النار، واقترب منها.

قال السعدي: فَلَمَّا أَتَاهَا أي: النَّارَ التي آنسَها من بعيدٍ، وكانت -في الحقيقة- نورًا، وهي نارٌ تَحرِق وتُشرِق، ويدلُّ على ذلك قولُه ﷺ: «حِجابُه النورُ أو النَّارُ، لو كَشَفَه لأحرَقَت سُبُحاتُ وَجهِه ما انتهى إليه بصُرُه .

وفي سورة النمل (إِنِّي آنَسْتُ نَاراً سَآتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ) أي : لأجل أن تصطلوا بها ، أي تستدفئون ، ويستفاد أن الليلة كانت باردة .

(**نُودِيَ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا رَبُّكَ**) أي : الذي يكلمك ويخاطبك ، الذي خلقك فسواك فعدلك .

وفي سورة النمل (فَلَمَّا جَاءهَا نُودِيَ أَن بُورِكَ مَن فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) .

(فَلَمَّا جَاءهَا) أي لما وصل إلى مكان النار رأى منظراً هائلاً عظيماً . (نُودِيَ أَن بُورِكَ مَن فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا) أي نودي من جانب الطور الأيمن بأن بوركت يا موسى، وبورك من حولك وهم الملائكة .

قال الماوردي : وفي النار وجهان :

أحدهما : أنها نار فيها نور.

الثاني : أنها نور ليس فيها نار ، وهو قول الجمهور.

قال الشوكاني : ومذهب المفسرين أن المراد بالنار – هنا — النور .

قال الشنقيطي : وَأَقْرَبُ الْأَقْوَالِ فِي مَعْنَى الْآيَةِ إِلَى ظَاهِرِ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ قَوْلُ مَنْ قَالَ : إِنَّ فِي النَّارِ الَّتِي هِيَ نُورٌ مَلَائِكَةً وَحَوْلَهَا مَلَائِكَةٌ وَمُوسَى ، وَأَنَّ مَعْنَى : أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ ، أَيْ : الْمَلَائِكَةُ الَّذِينَ هُمْ فِي ذَلِكَ النُّورِ ، وَمَنْ حَوْلَهَا ، أَيْ : وَبُورِكَ الْمَلَائِكَةُ الَّذِينَ هُمْ حَوْلَهَا ، وَبُورِكَ مُوسَى لِأَنَّهُ حَوْلَهَا مَعَهُمْ ، وَمِمَّنْ يُرْوَى عَنْهُ هَذَا : السُّدِّيُّ .

وَقَالَ الزَّمَخْشَرِيُّ فِي الْكَشَّافِ : وَمَعْنَى أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا ، بُورِكَ مَنْ فِي مَكَانِ النَّارِ وَمَنْ حَوْلَ مَكَانِهَا ، وَمَكَانُهَا الْبُقْعَةُ الَّتِي حَصَلَتْ فِيهَا ، وَهِيَ الْبُقْعَةُ الْمُبَارَكَةُ الْمَذْكُورَةُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى (نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِي الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ) وَتَدُلُّ عَلَيْهِ قِرَاءَةُ أُبَيٍّ " أَنْ تَبَارَكَتِ النَّارُ وَمَنْ حَوْلَهَا " ، وَعَنْهُ " بُورِكَتِ النَّارُ " .

(**فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ**) أمره بخلع نعليه :

فقيل : كانتا من جلد حمار ميت فلذلك أمر بخلعهما صيانة للوادي المقدس ولذلك قال عقيبه: {إِنَّكَ بالوادي المقدس طوى}.

وقيل : إنما أمر بخلعهما ليطأ الأرض بقدميه لينال بركة الوادي المقدس .

واختاره الطبري .

وقيل : أمر بخلعهما ليتأدب ، ويعظم البقعة المباركة ، ويتواضع في مقام مناجاة الله .

وذهب إليه ابن عطية ، ورجحه ابن جزي .

قال الثعالبي : وتحتمل الآيةُ مَعْنًى آخَرَ ، هو الأَليقُ بها عِنْدِي؛ وهو : أَن الله تعالى أمرِه أنْ يتأدَّبَ ، ويتَوَاضَعَ؛ لعظم الحَالِ الَّتِي حَصَلَ فيها ، والعُرْف عِنْد المُلُوكِ : أَنْ تُخلَعَ النَّعْلاَنِ ، ويبلغُ الإنْسان إلَى غاية تَوَاضُعِهِ ، فكأَنَّ موسى عليه السلام أُمِر بذلك عَلَى هذا الوجه ، وَلاَ نُبَالِي كيفَ كَانَتْ نَعْلاَهُ من ميتة أوْ غيرها .

وقال ابن عاشور : وإنما أمره الله بخلع نعليه تعظيماً منه لذلك المكان الذي سيسمع فيه الكلام الإلهي.

وقال الشنقيطي : وَأَظْهَرُهَا عِنْدِي وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ : أَنَّ اللَّهَ أَمَرَهُ بِخَلْعِ نَعْلَيْهِ – أَيْ نَزْعِهِمَا مِنْ قَدَمَيْهِ – لِيُعَلِّمَهُ التَّوَاضُعَ لِرَبِّهِ حِينَ نَادَاهُ ، فَإِنَّ نِدَاءَ اللَّهِ لِعَبْدِهِ أَمْرٌ عَظِيمٌ ، يَسْتَوْجِبُ مِنَ الْعَبْدِ كَمَالَ التَّوَاضُعِ وَالْخُضُوعِ ، وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ .

تنبيه : ذكر الأقوال الثلاثة من غير ترجيح : الرازي ، والقرطبي ، وابن كثير ، والآلوسي .

(**إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى**) اسم للوادي .

(**وَأَنَا اخْتَرْتُكَ**) أي : اصطفيتك من بين أفراد قومك لحمل رسالتي، وتبليغ دعوتي .

كقوله تعالى (قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالاَتِي وَبِكَلاَمِي) .

(**فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى**) أي : استمع الآن ما أقول لك وأوحيه إليك .

(**إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا**) هذا أول واجب على المكلفين ، أن يعلموا أنه لا إله إلا الله وحده لا شريك له .

لا إله معبود بحق إلا الله ، فالذي يستحق العبادة والطاعة والخضوع هو الله .

(اللهُ) اسم من أسماء الله، متضمن للألوهية لله تعالى.

ومعناه: المألوه المعبود الذي تعبده الخلائق، وتتأله له محبة وتعظيماً وخضوعاً له، وفزعاً إليه في الحوائج والنوائب، لما له من صفات الألوهية، وهي صفات الكمال.

ولا يعرف أحد تسمى به لا في الجاهلية ولا في الإسلام، وهو مختص بالله لفظاً ومعنى.

لفظاً: أي أن هذا اللفظ لا يصح أن يسمى به أحد.

ومعنى: أي أن الصفة التي تضمنها هذا الاسم وهي الإلهية لا يصلح شيء منها للمخلوق.

وجميع الأسماء ترجع إليه لفظاً ومعنى: أي أن أسماء الله تأتي بعده ولا يأتي بعد شيء منها.

ومعنى ترجع إليه معنى: أي أن هذا الاسم يتضمن صفة الإلهية وهي أوسع الصفات، وهذه الصفة ترجع إليها جميع الصفات.

(**فَاعْبُدْنِي**) عبادة خالصة لوجهي .

أمر بالعبادة ، وهي : امتثال خطاب الشرع المقترن بالحب والخضوع.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: لكن العبادة المأمور بها تتضمن معنى الذل ومعنى الحب، فهي تتضمن غاية الذل لله تعالى بغاية المحبة له، ومن خضع لإنسان مع بغضه له لا يكون عابداً له، ولو أحب شيئاً ولم يخضع له لم يكن عابداً له، ولهذا لا يكفي أحدهما في عبادة الله تعالى، بل يجب أن يكون الله أحب إلى العبد من كل شيء، وأن يكون الله أعظم عنده من كل شيء، بل لا يستحق المحبة والخضوع التام إلا الله تعالى.

وفي هذه الآية وجوب عبادة الله عز وجل، وقد جاءت النصوص الآمرة بذلك:

قال تعالى (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُون) .

قال تعالى (وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً).

وقال تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ).

وقال تعالى (فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا).

وقال تعالى (وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً).

وقال تعالى (بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ).

وقال تعالى (فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ).

وقال تعالى (وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ).

وأمر تعالى بعبادته حتى الموت: فقال تعالى (وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ).

قال ابن عاشور : ثمّ فرع على ذلك الأمر بعبادته ، والعبادة تجمع معنى العمل الدالّ على التعظيم من قول وفعل وإخلاصٍ بالقلب.

ووجه التفريع أن انفراده تعالى بالإلهية يقتضي استحقاقه أن يُعبد.

وخصّ من العبادات بالذكر إقامة الصلاة لأنّ الصلاة تجمع أحوال العبادة.

وإقامة الصلاة : إدامتها ، أي عدم الغفلة عنها.

(**وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي**) فيه قولان.

أحدهما : أقم الصلاة متى ذكرتَ أن عليكَ صلاةً ، سواء كنتَ في وقتها أو لم تكن ، هذا قول الأكثرين.

وروى أنس عن النبي ﷺ أنه قال (من نسي صلاة فليصلها إذا ذكرها ، لا كفارة لها غير ذلك) وقرأ :(أَقِمِ الصَّلاة لِذِكْرِي) .

والثاني : أقم الصلاة لتَذْكُرَني فيها ، قاله مجاهد. (زاد المسير)

ورجح الثاني ابن جرير ، فاللام للتعليل ، أي : لأجل أن تذكرني فيها .

وقيل : اللام للتعليل أيضاً ، والمعنى لأذكرك بها .

قال الشوكاني : خصّ الصلاة بالذكر مع كونها داخلة تحت الأمر بالعبادة ، لكونها أشرف طاعة وأفضل عبادة .

قال أبو حيان : ولما ذكر تعالى الأمر بالعبادة وإقامة الصلاة ذكر الحامل على ذلك وهو البعث والمعاد للجزاء فقال (إن الساعة آتية) وهي التي يظهر عندها ما عمله الإنسان وجزاء ذلك إما ثواباً وإما عقاباً.

(**إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ**) أي : كائنة لا بد منها ، ولاريب في إتيانها ، فهي أعظم باعث على الطاعة.

قال ابن عطية : و(الساعة) في هذه الآية القيامة بلا خلاف .

(**أَكَادُ أُخْفِيهَا**) هذه الآية الكريمة يتوهم منها أنه جل وعلا لم يخفها بالفعل ولكنه قارب أن يخفيها ؛ لأن (كاد) فعل مقاربة.

وقد جاء في آيات أخر التصريح بأنه أخفاها كقوله تعالى (وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ) وقد ثبت عنه ﷺ أن المراد بمفاتح الخمس المذكورة في قوله تعالى (إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ) الآية.

وكقوله (قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي) وقوله (فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا) إلى غير ذلك من الآيات.

فاختلف العلماء في معناها :

فقيل : أن معنى الآية أكاد أخفيها من نفسي أي لو كان ذلك يمكن وهذا على عادة العرب ؛ لأن القرآن نزل بلغتهم والواحد منهم إذا أراد المبالغة في كتمان أمر قال كتمته من نفسي أي لا أبوح به لأحد .

ونظير هذا من المبالغة قوله ﷺ في حديث السبعة الذين يظلهم الله (ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه).

وهذا القول مروي عن أكثر المفسرين،

قال الواحدي : قال أكثر المفسرين : أخفيها من نفسي ، وهو قول سعيد بن جبير ومجاهد وقتادة.

قيل : أي لا أظهر عليها أحداً ، قاله الحسن ، ويكون أكاد بمعنى أريد.

قال ابن الجوزي : فإن قيل : فما فائدة هذا الإخفاء الشديد؟

فالجواب : أنه للتحذير والتخويف ، ومن لم يعلم متى يهجم عليه عدوُّه كان أشد حذراً.

مباحث الساعة:

أولاً: سميت القيامة بالساعة لوقوعها بغتة، أو لأن حساب الخلق يقضي فيها في ساعة واحدة فسمي بالساعة لهذا السبب أو لأنها على طولها كساعة واحدة عند الخلق.

ثانياً: والساعة تطلق على ثلاثة معان:

الساعة الصغرى: وهي موت الإنسان ، فمن مات فقد قامت قيامته ، لدخوله في عالم الآخرة.

والساعة الوسطى: وهي موت أهل القرن الواحد ، ويؤيد ذلك ما روته عائشة قالت (كان الأعراب إذا قدموا على رسول الله ﷺ سألوه عن الساعة: متى الساعة؟ فنظر إلى أحدث إنسان منهم ، فقال: إن يعش هذا لم يدركه الهرم ، قامت عليكم ساعتكم) رواه مسلم. أي: موتهم ، والمراد ساعة المخاطبين.

والساعة الكبرى: وهي بعث الناس من قبورهم للحساب والجزاء.

ثالثاً: وإذا أطلقت الساعة في القرآن ، فالمراد بها القيامة الكبرى كقوله تعالى (يَسْأَلونَكَ عَنِ السَّاعَةِ) وكقوله تعالى (يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ) وكقوله تعالى (اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ).

رابعاً: لا يعلم متى قيام الساعة إلا الله.

قال تعالى (قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي) أي لا يعلم الوقت الذي فيه يحصل قيام القيامة إلا الله سبحانه.

وقال تعال (إِنَّ الله عِندَهُ عِلْمُ الساعة).

وقال تعالى (إِنَّ الساعة ءاتِيَةٌ لاَ رَيْبَ فِيهَا).

وقال تعالى (إِنَّ الساعة ءاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا).

ولما سأل جبريل رسول الله ﷺ وقال: متى الساعة فقال عليه السلام: " ليس المسؤول عنها بأعلم من السائل.

خامساً: لكن هي قريبة:

قال تعالى (اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ).

وقال تعالى (اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ).

سادساً: السبب في إخفائها:

قال المحققون: والسبب في إخفاء الساعة عن العباد؟ أنهم إذا لم يعلموا متى تكون، كانوا على حذر منها، فيكون ذلك أدعى إلى الطاعة، وأزجر عن المعصية.

سابعاً: أن للساعة علامات تدل على قربها.

وعلامات الساعة تنقسم إلى قسمين:

أشراط صغرى.

وهي التي تتقدم الساعة بأزمان متطاولة، وتكون من نوع المعتاد، كقبض العلم، وظهور الجهل، وشرب الخمر، والتطاول في البنيان.

أشراط كبرى.

وهي الأمور العظام التي تظهر قرب قيام الساعة، وتكون غير معتادة الوقوع، كظهور الدجال، ونزول عيسى، وخروج يأجوج ومأجوج، وطلوع الشمس من مغربها

(**لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى**) أي : أقيمها لا محالة لأجزي كل عامل بعمله .

قال الرازي : أنه تعالى لما حكم بمجيء يوم القيامة ذكر الدليل عليه وهو أنه لولا القيامة لما تميز المطيع عن العاصي والمحسن عن المسيء وذلك غير جائز وهو الذي عناه الله تعالى بقوله (أَمْ نَجْعَلُ الذين ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات كالمفسدين فِي الأرض أَمْ نَجْعَلُ المتقين كالفجار) .

(**فَلا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا**) أي : عن الإيمان بها والاستعداد لها .

وهذا قول عامة المفسرين .

وقيل : الضمير يعود إلى الصلاة ، **قال ابن جزي** : وهو بعيد .

وقد اختلف من المخاطب بذلك :

فقيل : موسى عليه السلام .

ورجحه : الطبري ، والرازي ، وابن جزي .

واستدل له : بأن الكلام أجمع خطاب لموسى عليه السلام .

وقيل : الخطاب للنبي ﷺ .

واختاره ابن الجوزي .

واستبعده ابن جزي فقال : وهو بعيد .

وجعل ابن كثير الخطاب عاماً فقال : المراد بهذا الخطاب آحاد المكلفين ، أي : لا تتبعوا سبيل من كذب بالساعة وأقبل على ملاذ في دنياه ، وعصى مولاه واتبع هواه ، فمن وافقهم على ذلك فقد خسر وخاب .

(**مَنْ لا يُؤْمِنُ بِهَا**) أي : من لا يوقن بها ولا يصدقها .

(**وَاتَّبَعَ هَوَاهُ**) أي : مع الهوى وأقبل على اللذائذ والشهوات ولم يحسب حساباً لآخرته .

(**فَتَرْدَى**) فتهلك .

اتباع الهوى ضلال وسبب للهلاك .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: واتباه الهوى في الديانات أعظم من اتباع الهوى في الشهوات، فإن الأول حال الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين.

كما قال تعالى (فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدىً مِنَ اللَّهِ).

وقال تعالى (بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ).

وقال تعالى (وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيراً لَيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ).

وقال تعالى (وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ).

فاتباع الهوى ضلال وهلاك.

كما قال تعالى (يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ).

وقال ﷺ (ثلاث مهلكات: شح مطاع، وهوى متبع، وإعجاب المرء بنفسه).

ونفس الهوى – هو الحب والبغض الذي في النفس – لا يلام عليه، فإن ذلك قد لا يملك، وإنما يلام على اتباعه، كما قال تعالى (يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ).

ويقال سمي الهوى هوى لأنه يهوي بصاحبه، وأكثر ما يستعمل في الحب المذموم كما قال تعالى (أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً) وقال تعالى (وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى).

الفوائد :

١. حسن خلق موسى مع أهله .

٢. أن الزوجة من الأهل ، وعلى هذا فآل النبي ﷺ يدخل فيهم أزواجه .

٣. أن الأحوال البشرية تقع حتى على الأنبياء ، فإن موسى في تلك الليلة قد ضل الطريق .

٤. أن الإنسان لا يلام على أخذه وقاية تدفع عنه البرد .

٥. إثبات الكلام لله لقوله (نودي ...) وأنه بصوت لقوله (نودي ..) والنداء لا يكون إلا بصوت .

٦. ينبغي في الإنسان المستوحش أن تفعل معه ما يطمئنه .

٧. وجوب تنزيه الله عما لا يليق به .

٨. عموم ربوبية الله تعالى .

٩. أن جميع الخلق مربوبون لله تعالى ، يتصرف فيهم بمقتضى ربوبيته .

(وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى (١٧) قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى (١٨) قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَى (١٩) فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى (٢٠) قَالَ خُذْهَا وَلا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الأُولَى (٢١) وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاء مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَى (٢٢) لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى (٢٣)) .

[طه : ١٧-٢٣] .

==========

(وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى) أي: قال الله: وما تلك التي تمسِكُها بيَدِك اليُمنى يا موسى .

والاستفهام في قوله تعالى (وَما تِلْكَ بِيَمِينِكَ يا مُوسى) للتقرير، والحكمة فيه تنبيهه وتوقيفه على أنها عصًا عادية، حتى إذا قلبها الله تعالى حية تسعى، علم أنها معجزة عظيمة أعدها الله لموسى، فازداد يقينًا وطمأنينة وثباتًا وأنسًا.

قال ابن عطية : تقرير مضمنه التنبيه وجمع النفس لتلقي ما يورد عليها وإلا فقد علم ما هي في الأزل .

قال الماوردي : ليس هذا سؤال استفهام ، وإنما هو سؤال تقرير لئلاّ يدخل عليه ارتياب بعد انقلابها حيةٌ تسعى.

قال ابن جزي : إنما سأله ليريه عظيم ما يفعله في العصا من قلبها حية ، فمعنى السؤال تقرير أنها عصا؛ فيتبين له الفرق بين حالها قبل أن يقلبها ، وبعد أن قلبها ، وقيل : إنما سأله ليؤنسه ويبسطه بالكلام .

قال الرازي : قوله (وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ ياموسى) سؤال ، والسؤال إنما يكون لطلب العلم وهو على الله تعالى محال فما الفائدة فيه.

والجواب : فيه فوائد :

إحداها : أن من أراد أن يظهر من الشيء الحقير شيئاً شريفاً فإنه يأخذه ويعرضه على الحاضرين ويقول لهم : هذا ما هو ؟ فيقولون هذا هو الشيء الفلاني ثم إنه بعد إظهار صفته الفائقة فيه يقول لهم خذا منه كذا وكذا.

فالله تعالى لما أراد أن يظهر من العصا تلك الآيات الشريفة كانقلابها حية ، وكضربه البحر حتى انفلق ، وفي الحجر حتى انفجر منه الماء ، عرضه أولاً على موسى فكأنه قال له : يا موسى هل تعرف حقيقة هذا الذي بيدك وأنه خشبة لا تضر ولا تنفع ، ثم إنه قلبه ثعباناً عظيماً ، فيكون بهذا الطريق قد نبه العقول على كمال قدرته ونهاية عظمته من حيث إنه أظهر هذه الآيات العظيمة من أهون الأشياء عنده فهذا هو الفائدة من قوله : (وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يا موسى).

(**قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا**) التوكُّؤُ : التحامل على الشيء ، أي : قال موسى: هي عصايَ، أعتَمِدُ عليها في حالِ قيامي، وحينَ أمشي .

(**وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي**) أي : أخبط بها فأضرب أغصان الشجر ليسقط ورقها على غنمي فتأكله.

قال ابن عاشور : والهَشّ : الخَبْط ، وهو ضرب الشجرة بعصاً ليتساقط ورقها .

(**وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى**) أي: ولي في عَصاي هذه حوائِجُ أخرى، فأنتَفِعُ بها أيضًا في غيرِ الاتِّكاءِ عليها، والهشِّ بها .

قال ابن كثير: وقد تكلف بعضهم ليذكر شيئًا من تلك المآرب التي أَبهمت، فقيل: كانت تضيءُ له بالليل وتحرس له الغنم إذا نام، ويغرسها فتصير شجرة تظله، وغير ذلك من الأُمور الخارقة للعادة، والظاهر أَنها لم تكن كذلك، ولو كانت كذلك لما استنكر موسى عليه السلام صيرورتها ثعبانًا، فما كان يفر منها، ولكن كل ذلك من الأَخبار الإسرائيلية، وكذا قول بعضهم: إنها كانت لآدم عليه السلام، وقول الآخر: إنها هي الدابة التي تخرج قبل يوم القيامة!!

(**قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَى**) أمره أن يلقي عصاه من يده .

أ-ليظهر له دليلاً واضحاً على أنه الفاعل المختار القادر على كل شيء، فلما ألقى موسى تلك العصا من يده، انقلبت في الحال حية عظيمة هائلة، في غاية الكبر وسرعة الحركة مع ذلك .

ب-وليكون إلقاؤها قبل لقاء السحرة تمهيدًا لما يظهره الله تعالى على يد موسى وأَخيه من المعجزات، مع الطمأنينة ورباطة الجأش.

(**فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى**) أي : تنتقل وتمشي وتلتقم الحجارة ، فلما رآها موسى رأى عبرة فولى مدبراً ولم يعقب .

قال السعدي: وفي وصفها بأنها تسعى، إزالة لوهم يمكن وجوده، وهو أن يظن أنها تخييل لا حقيقة، فكونها تسعى يزيل هذا الوهم.

قال ابن الجوزي : وفي وجه الفائدة في إظهار هذه الآية ليلة المخطابة قولان.

أحدهما : لئلا يخاف منها إذا ألقاها بين يدي فرعون.

والثاني : ليريَه أن الذي أبعثك إليه دون ما أريتك ، فكما ذلَّلْتُ لك الأعظم وهو الحية ، أُذلّلُ لكَ الأدنى.

جاء في آية (فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ) الآية ، هذه الآية تدل على شبه العصا بالثعبان وهو لا يطلق إلا على الكبير من الحيات وقد جاءت آية أخرى تدل على خلاف ذلك وهي قوله تعالى: (فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ) الآية ، لأن الجان هو الحية الصغيرة، والجواب عن هذا أنه شبهها بالثعبان في عظم خلقتها وبالجان في اهتزازها وخفتها وسرعة حركتها فهي جامعة بين العظم وخفة الحركة على خلاف العادة.

(**قَالَ خُذْهَا وَلا تَخَفْ**) أي: قال الله لموسى: خُذِ الحيَّةَ، ولا تَخَفْ منها؛ فلن تَضُرَّك .

كما قال تعالى (فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ) .

وفي سورة النمل (وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِراً وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ).

(**سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الأُولَى**) أي: سنردُّ الحيَّةَ إلى هيئتِها وطبيعتِها الأُولَى، فتعودُ عصًا كما كانت .

(**وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ**) بعد أَن ذكر الله العصا آية موسى الأولى وبرهانه على نبوته، قفَّى عليها بذكر الآية الثانية وهى خروج يده بيضاء من غير سوءٍ من تحت إبطه.

أي: وأدخِلْ يَدَك في جَيبِك -وهو فَتحةُ القَميصِ التي يَبرُزُ منها العُنُقُ- وألصِقْها بجَنبِك تحتَ عضُدِك .

كما قال تعالى (وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ) .

وقال سُبحانَه (اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ) .

قال ابن عاشور : هذه معجزة أخرى عَلمه الله إياها حتى إذا تحدّى فرعون وقومه عمل مثل ذلك أمام السحرة.

فهذا تمرين على معجزة ثانية مُتّحِد الغرض مع إلقاء العصا.

والجناح : العضد وما تحته إلى الإبط.

أطلق عليه ذلك تشبيهاً بجناح الطائر.

(**تَخْرُجْ بَيْضَاء مِنْ غَيْرِ سُوءٍ**) أي : تخرج نيرة مضيئة كضوء الشمس والقمر ، من غير عيب ولا برص ، وكان اذا ادخل يده في جيبه ثم اخرجها ، تعرج تتلألأ كأنها فلقة قمر ، من غير برص ولا أذى .

وفي قوله (تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ) احتراسٌ؛ لأنَّه لو اقتصَرَ على قولِه :بَيْضَاءَ، لَأوهَمَ أنَّ ذلك من برَصٍ أو بَهَقٍ؛ فقولُه :مِنْ غَيْرِ سُوءٍ كِنايةٌ عن البرص .

وفي سورة النمل (وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاء مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ).

قال ابن عطية : و"الجيب" الفتح في الثوب لرأس الإنسان .

قال الآلوسي : قوله تعالى (وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ) أي : جيب قميصك وهو مدخل الرأس منه المفتوح إلى الصدر لا ما يوضع فيه الدراهم ونحوها كما هو معروف الآن .

قال ابن عاشور : والمقصود من ذلك أن يعجل له ما تطمئن له نفسه من تأييد الله تعالى إياه عند لقاء فرعون .

قال بعض العلماء : وَأَرَاهُ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ مُعْجِزَةَ الْعَصَا وَالْيَدِ لِيَسْتَأْنِسَ بِذَلِكَ قَبْلَ حُضُورِهِ عِنْدَ فِرْعَوْنَ : لِأَنَّهُ لَمَّا رَأَى الْعَصَا فِي الْمَرَّةِ الْأُولَى صَارَتْ ثُعْبَانًا وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ، فَلَوْ فَعَلَ ذَلِكَ عِنْدَمَا انْقَلَبَتْ ثُعْبَانًا لَمَّا طَالَبَهُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ بِآيَةٍ ، لَكَانَ ذَلِكَ غَيْرَ لَائِقٍ ، وَلِأَجْلِ هَذَا مُرِّنَ عَلَيْهَا فِي أَوَّلِ مَرَّةٍ لِيَكُونَ مُسْتَأْنِسًا غَيْرَ خَائِفٍ مِنْهَا حِينَ تَصِيرُ ثُعْبَانًا مُبِينًا .

(**آيَةً أُخْرَى**) أي : معجزة ثانية غير العصا .

(**لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى**) أي : افعل ما أَمرناك به من إلقاء العصا، وضم اليد إلى الجناح، لنجعلك مبصراً بعض آياتنا العظمى التي لا عهد لك ولا لغيرك بمثلها، والتي هي شاهدة على عظيم سُلْطَانِنَا، وكامل قدرتنا، وأنك مرسل منا.

أراه الله معجزتين (العصا، واليد) وهي بعض ما أيده الله به من المعجزات الباهرة، ثم أمره ان يتوجه الى فرعون رأس الكفر والطغيان.

وفي سورة النمل (**فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ**) أي: هاتان ثنتان من تسع آيات، أؤيدك بهن، وأجعلهن برهاناً لك إلى فرعون وقومه .

قال النحاس : أحسن ما قيل فيه أن المعنى : هذه الآية داخلة في تسع آيات.

كما قال تعالى (ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات) وقال تعالى (فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْماً مُجْرِمِينَ) وقال تعالى (وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنْ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ).

الطوفان : الماء الكثير الذي أغرق أشجارهم وزروعهم وأضرهم ضرراً كبيراً .

والجراد : فأكل ثمارهم وزروعهم ونباتهم .

والقمل : قيل : هو القمل المعروف ، وقيل : الدودة التي تكون في الحبوب .

والضفادع : فملأت أوعيتهم وأقلقتهم ، وآذتهم أذية شديدة .

والدم : إما أن يكون الرعاف ، أو كما قال كثير من المفسرين : أن ماءهم الذي يشربون انقلب دماً .

بالسنين : القحط والجدب .

ونقص من الثمرات : نقص من ثمارهم وغلاتهم .

وتحديد الآيات بالتسع ، لا ينفى أن هناك معجزات أخرى ، أعطاها الله تعالى لموسى عليه السلام إذ من المعروف عند علماء الأصول أن تحديد العدد بالذكر ، لا يدل على نفى الزائد عنه.

قال ابن كثير : ولقد أوتى موسى عليه السلام آيات أخرى كثيرة، منها ضربه الحجر بالعصا، وخروج الماء منه .. وغير ذلك. مما أوتوه بنو إسرائيل بعد خروجهم من مصر. ولكن ذكر هنا هذه الآيات التسع التي شاهدها فرعون وقومه، وكانت حجة عليهم فخالفوها وعاندوها كفراً وجحوداً .

الفوائد :

١. أن للعصا في حياتنا اليومية فوائد كثيرة .

٢. أن رعي الغنم كان من أعمال الأنبياء حتى نبينا ﷺ رعاها .

٣. هذه الآية العظيمة وهي : العصا صارت حية تسعى .

٤. دليل على كمال قدرة الله ، وأنه إذا أراد لشيء أن يقول له كن فيكون .

٥. حكمة الله في آيات الرسل ، وأنها تناسب العصر .

٦. جواز أن يصاب الأنبياء بالخوف لأنه من مقتضى الطبيعية البشرية .

٧. رحمة الله بنبيه موسى ، لقوله (ولا تخف) .

٨. من كان مع الله ، فإنه لا ينبغي أن يخاف ، ولذلك كلما ذكر الإنسان ربه زال عنه الخوف .

٩. الآية الأخرى العظيمة : إدخال اليد في الجيب تخرج بيضاء من غير برص .

١٠. أن موسى أعطاه الله تسع آيات ، آيتان سابقتان ، والبقية تبع .

١١. أن الله لم يرسل نبياً إلا بآية .

١٢. رحمة الله بخلقه حيث يرسل بالآيات لكي يعرفوا صدقهم .

١٣. أن الله لا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة بإرسال الرسل مع الآيات .

(اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى (٢٤) قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي (٢٥) وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي (٢٦) وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي (٢٧) يَفْقَهُوا قَوْلِي (٢٨) وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي (٢٩) هَارُونَ أَخِي (٣٠) اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي (٣١) وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي (٣٢) كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا (٣٣) وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا (٣٤) إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا (٣٥)) .

[طه : ٢٤-٣٥] .

==========

(اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى) أَيِ : اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ مَلِكِ مِصْرَ الَّذِي خَرَجْتَ فَارًّا مِنْهُ وَهَارِبًا فَادْعُهُ إِلَى عِبَادَةِ اللَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَمُرْهُ فَلْيُحْسِنْ إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا يُعَذِّبْهُمْ، فَإِنَّهُ قَدْ طَغَى وَبَغَى وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَنَسِيَ الرَّبَّ الْأَعْلَى.

كما تعالى (اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى * فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى * وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى).

وقال تعالى (اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى . فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى) .

قال الآلوسي : (إنه طغى) أي : جاوز الحد في التكبر والعتو والتجبر حتى تجاسر على العظيمة التي هي دعوى الربوبية .
وأصل الطغيان مجاوزة الحد، ومنه قوله تعالى (إنا لما طغى الماء) أي ارتفع وعلا، وقوله في فرعون (إنه طغى) أي أسرف في الدعوى.
(**قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي**) هَذَا سُؤَالٌ مِنْ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ لِرَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يَشْرَحَ لَهُ صَدْرَهُ فِيمَا بَعَثَهُ بِهِ، فَإِنَّهُ قَدْ أَمَرَهُ بِأَمْرٍ عَظِيمٍ وَخَطْبٍ جَسِيمٍ، بَعَثَهُ إِلَى أَعْظَمِ مَلِكٍ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ إِذْ ذَاكَ وَأَجْبَرِهِمْ وَأَشَدِّهِمْ كُفْرًا، وَأَكْثَرِهِمْ جُنُودًا، وَأَعْمَرِهِمْ مُلْكًا، وَأَطْغَاهُمْ وَأَبْلَغِهِمْ تَمَرُّدًا، بَلَغَ مِنْ أَمْرِهِ أَنِ ادَّعَى أَنَّهُ لَا يَعْرِفُ اللَّهَ، وَلَا يَعْلَمُ لِرَعَايَاهُ إِلَهًا غَيْرَهُ .
قال السعدي : أي: وسعه وأفسحه، لأتحمل الأذى القولي والفعلي، ولا يتكدر قلبي بذلك، ولا يضيق صدري، فإن الصدر إذا ضاق، لم يصلح صاحبه لهداية الخلق ودعوتهم.
قال الله لنبيه محمد ﷺ (فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ) وعسى الخلق يقبلون الحق مع اللين وسعة الصدر وانشراحه عليهم.
قال الرازي : أنه لما لم يصر منشرح الصدر بعد هذه الأشياء لم يجز من الله تعالى تفويض النبوة إليه فإن من كان ضيق القلب مشوش الخاطر لا يصلح للقضاء على ما قال عليه السلام : " لا يقضي القاضي وهو غضبان " فكيف يصلح للنبوة التي أقل مراتبها القضاء ؟ فهذا مجموع الأمور التي لا بد من البحث عنها في هذه الآية.
وقال أبو حيان : أمره تعالى بالذهاب إلى فرعون عرف أنه كلف أمراً عظيماً يحتاج معه إلى احتمال ما لا يحتمله إلاّ ذو جأش رابط وصدر فسيح، فسأل ربه ورغب في أن يشرح صدره ليحتمل ما يرد عليه من الشدائد التي يضيق لها الصدر، وأن يسهل عليه أمره للذي هو خلافة الله في أرضه وما يصحبها من مزاولة جلائل الخطوب، وقد علم ما عليه فرعون من الجبروت والتمرد والتسلط.
فمن أعظم النعم شرح الصدر .
قال تعالى (فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ) .
وقال تعالى (أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ).
وقال هنا (قال رب اشرح لي صدري) .
وقال تعالى (ألم نشرح لك صدرك) .
قال ابن القيم: أعظم أسباب شرح الصدر: التوحيدُ وعلى حسب كماله ، وقوته ، وزيادته يكونُ انشراحُ صدر صاحبه.
قال الله تعالى (أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّنْ رَبِّه).
وقال تعالى (فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ ، وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجاً كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ)
فالهُدى والتوحيدُ مِن أعظم أسبابِ شرح الصدر ، والشِّركُ والضَّلال مِن أعظم أسبابِ ضيقِ الصَّدرِ وانحراجِه.
ومنها: النورُ الذى يقذِفُه اللَّه في قلب العبد ، وهو نورُ الإيمان ، فإنه يشرَحُ الصدر ويُوسِّعه ، ويُفْرِحُ القلبَ. فإذا فُقِدَ هذا النور من قلب العبد ، ضاقَ وحَرِجَ ، وصار في أضيق سجنٍ وأصعبه.
ومنها: الإنابة إلى اللَّه سبحانه وتعالى ، ومحبتُه بكلِّ القلب ، والإقبالُ عليه ، والتنعُّم بعبادته ، فلا شيء أشرحُ لصدر العبد من ذلك. حتى إنه ليقولُ أحياناً: إن كنتُ في الجنة في مثل هذه الحالة ، فإني إذاً في عيش طيب.
ومِنْ أعظم أَسباب ضيق الصدر: الإعراضُ عن اللَّه تعالى ، وتعلُّقُ القلب بغيره ، والغفلةُ عن ذِكره ، ومحبةُ سواه ، فإن مَن أحبَّ شيئاً غيرَ اللَّه عُذِّبَ به ، وسُجِنَ قلبُه في محبة ذلك الغير ، فما في الأرض أشقى منه ، ولا أكسف بالاً ، ولا أنكد عيشاً.

ومن أسباب شرح الصدر: دوامُ ذِكره على كُلِّ حال، وفى كُلِّ موطن، فللذِكْر تأثير عجيب في انشراح الصدر، ونعيم القلب، وللغفلة تأثيرٌ عجيب في ضِيقه وحبسه وعذابه.

ومنها: الإحسانُ إلى الخَلْق ونفعُهم بما يمكنه من المال ، والجاهِ ، والنفع بالبدن ، وأنواع الإحسان ، فإن الكريم المحسنَ أشرحُ الناس صدراً ، وأطيبُهم نفساً ، وأنعمُهم قلباً ، والبخيلُ الذى ليس فيه إحسان أضيقُ الناسِ.

ومنها: الشجاعة ، فإن الشجاع منشرح الصدر ، واسع البطان ، متَّسِعُ القلب ، والجبانُ: أضيق الناس صدراً ، وأحصرُهم قلباً ، لا فرحة له ولا سرور ، ولا لذَّة له ، ولا نعيم إلا منْ جنس ما للحيوان البهيمي.

ومنها: تركُ فضولِ النظر ، والكلام ، والاستماع ، والمخالطةِ ، والأكل ، والنوم ، فإن هذه الفضولَ تستحيلُ آلاماً وغموماً ، وهموماً في القلب ، تحصُرُه ، وتحبِسه ، وتضيِّقهُ ، ويتعذَّبُ بها ، بل غالِبُ عذابِ الدنيا والآخرة منها ، فلا إله إلا اللَّهُ ما أضيقُ صدَر مَن ضرب في كل آفةٍ من هذه الآفات بسهم ، وما أنكَدَ عيشَه ، وما أسوأ حاله ، وما أشدَّ حصرَ قلبه. (زاد المعاد).

(**وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي**) أي: سهل علي كل أمر أسلكه وكل طريق أقصده في سبيلك، وهون علي ما أمامي من الشدائد، ومن تيسير الأمر أن ييسر للداعي أن يأتي جميع الأمور من أبوابها، ويخاطب كل أحد بما يناسب له، ويدعوه بأقرب الطرق الموصلة إلى قبول قوله.

(**وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي . يَفْقَهُوا قَوْلِي**) وكان في لسانه ثقل لا يكاد يفهم عنه الكلام كما قال المفسرون كما قال الله عنه أنه قال (وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا) فسأل الله أن يحل منه عقدة يفقهوا ما يقول فيحصل المقصود التام من المخاطبة والمراجعة والبيان عن المعاني .

قال ابن كثير : وَمَا سَأَلَ أَنْ يَزُولَ ذَلِكَ بِالْكُلِّيَّةِ، بَلْ بِحَيْثُ يَزُولُ الْعَيُّ، وَيَحْصُلُ لَهُمْ فَهْمُ مَا يُرِيدُ مِنْهُ وَهُوَ قَدْرُ الْحَاجَةِ، وَلَوْ سَأَلَ الْجَمِيعَ لَزَالَ، وَلَكِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَا يَسْأَلُونَ إِلَّا بِحَسْبِ الْحَاجَةِ، وَلِهَذَا بَقِيَتْ بَقِيَّةٌ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى إِخْبَارًا عَنْ فِرْعَوْنَ أَنَّهُ قَالَ (أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلا يَكادُ يُبِينُ) أَيْ يُفْصِحُ بِالْكَلَامِ.

وَقَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسانِي قَالَ: حُلَّ عُقْدَةً وَاحِدَةً. وَلَوْ سَأَلَ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ أُعْطِيَ . (ابن كثير)

واختلفوا في تلك العقدة التي كانت في لسان موسى عليه السلام على قولين :

الأول : كان ذلك التعقد خِلقة الله تعالى فسأل الله تعالى إزالته.

الثاني : السبب فيه أنه عليه السلام حال صباه أخذ لحية فرعون ونتفها فهم فرعون بقتله وقال هذا هو الذي يزول ملكي على يده فقالت آسية : إنه صبي لا يعقل وعلامته أن تقرب منه التمرة والجمرة فقربا إليه فأخذ الجمرة فجعلها في فيه .

قال الرازي : قال الحسن رحمه الله : إن تلك العقدة زالت بالكلية بدليل قوله تعالى (قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يا موسى) وهو ضعيف لأنه عليه السلام لم يقل واحلل العقدة من لساني بل قال : (واحلل عُقْدَةً مّن لِّسَانِي) فإذا حل عقدة واحدة فقد آتاه الله سؤله ، والحق أنه انحل أكثر العقد وبقي منها شيء قليل لقوله : حكاية عن فرعون (أَمْ أَنَا خَيْرٌ مّنْ هذا الذي هُوَ مَهِينٌ وَلاَ يَكَادُ يُبِينُ) أي يقارب أن لا يبين وفي ذلك دلالة على أنه كان يبين مع بقاء قدر من الانعقاد في لسانه .

وقال القرطبي : ثم اختلف هل زالت تلك الرتّة :

فقيل : زالت بدليل قوله (قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يا موسى) .

وقيل : لم تزل كلها ؛ بدليل قوله حكاية عن فرعون (وَلاَ يَكَادُ يُبِينُ) .

ولأنه لم يقل احلل كل لساني ، فدل على أنه بقي في لسانه شيء من الاستمساك.

وقيل : زالت بالكلية بدليل قوله : "أُوتِيتَ سُؤْلَكَ" وإنما قال فرعون (وَلاَ يَكَادُ يُبِينُ) لأنه عرف منه تلك العقدة في التربية، وما ثبت عنده أن الآفة زالت.

قلت : وهذا فيه نظر ؛ لأنه لو كان ذلك لما قال فرعون : (وَلاَ يَكَادُ يُبِينُ) حين كلمه موسى بلسان ذَلِق فصيح.

(**وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي هَارُونَ أَخِي اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي**) أي : واجعل لي موازرًا ومعينًا من أهلي أقرب الناس إليّ، وهو هارون آخي ، ليحمل معي أعباءَ الرسالة .

قال الرازي : قوله (واجعل لّي وَزِيراً مّنْ أَهْلِي) واعلم أن طلب الوزير إما أن يكون لأنه خاف من نفسه العجز عن القيام بذلك الأمر فطلب المعين أو لأنه رأى أن للتعاون على الدين والتظاهر عليه مع مخالصة الود وزوال التهمة مزية عظيمة في أمر الدعاء إلى الله .

ولذلك قال عيسى ابن مريم (مَنْ أَنصَارِي إِلَى الله قَالَ الحواريون نَحْنُ أَنْصَارُ الله) .

وقال لمحمد ﷺ (حَسْبُكَ الله وَمَنِ اتبعك مِنَ المؤمنين) .

قال ابن عاشور : وخصّ هارون لفرط ثقته به ولأنه كان فصيح اللسان مقوالاً ، فكونه من أهله مظنة النصح له ، وكونه أخاه أقوى في المناصحة ، وكونه الأخ الخاصّ لأنه معلوم عنده بأصالة الرأي.

(**كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا**) أَي: اجعل هارون أَخي وزيراً لي، ونبيا ورسولا معي، لكي ننزهك كثيرا يا رب عما لا يليق بك من الصفات، كالشريك والنَّظير، والوالد والولد، ونرد ما يزعمه فرعون من أُلوهيته، وغير ذلك مما تتنزَّه عنه ساحة أُلوهيَّتك، يا إله العالمين.

وفي هذا فضل التسبيح :

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ (كَلِمَتَانِ خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ ثَقِيلَتَانِ فِي الْمِيزَانِ حَبِيبَتَانِ إِلَى الرَّحْمَنِ سُبْحَانَ اللَّهِ الْعَظِيمِ سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ) متفق عليه.

وعَنْ جُوَيْرِيَةَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ خَرَجَ مِنْ عِنْدِهَا بُكْرَةً حِينَ صَلَّى الصُّبْحَ وَهِيَ فِي مَسْجِدِهَا ثُمَّ رَجَعَ بَعْدَ أَنْ أَضْحَى وَهِيَ جَالِسَةٌ فَقَالَ مَا زِلْتِ عَلَى الْحَالِ الَّتِي فَارَقْتُكِ عَلَيْهَا قَالَتْ نَعَمْ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ (لَقَدْ قُلْتُ بَعْدَكِ أَرْبَعَ كَلِمَاتٍ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ لَوْ وُزِنَتْ بِمَا قُلْتِ مُنْذُ الْيَوْمِ لَوَزَنَتْهُنَّ سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ عَدَدَ خَلْقِهِ وَرِضَا نَفْسِهِ وَزِنَةَ عَرْشِهِ وَمِدَادَ كَلِمَاتِهِ) رواه مسلم.

وعَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها قَالَتْ (مَا صَلَّى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَعْدَ أَنْ نَزَلَتْ عَلَيْهِ (إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ) إِلاَّ يَقُولُ فِيهَا: سُبْحَانَكَ رَبَّنَا وَبِحَمْدِكَ ، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي). متفق عليه .

وَفِي لَفْظٍ (كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُكْثِرُ أَنْ يَقُولَ فِي رُكُوعِهِ وَسُجُودِهِ: سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا وَبِحَمْدِكَ ، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي) .

وعَنْ أَبِي ذَرٍّ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ سُئِلَ أَيُّ الْكَلاَمِ أَفْضَلُ قَالَ (مَا اصْطَفَى اللَّهُ لِمَلاَئِكَتِهِ أَوْ لِعِبَادِهِ سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ) رواه مسلم

وعنه . قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (أَلاَ أُخْبِرُكَ بِأَحَبِّ الْكَلاَمِ إِلَى اللَّهِ ». قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَخْبِرْنِي بِأَحَبِّ الْكَلاَمِ إِلَى اللَّهِ. فَقَالَ : إِنَّ أَحَبَّ الْكَلاَمِ إِلَى اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ) رواه مسلم .

وقال ﷺ (من قال سبحان الله العظيم وبحمده غرست له نخلة في الجنة) رواه الترمذي.

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (مَنْ قَالَ حِينَ يُصْبِحُ وَحِينَ يُمْسِى سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ مِائَةَ مَرَّةٍ. لَمْ يَأْتِ أَحَدٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِأَفْضَلَ مِمَّا جَاءَ بِهِ إِلاَّ أَحَدٌ قَالَ مِثْلَ مَا قَالَ أَوْ زَادَ عَلَيْهِ) رواه مسلم .

والتسبيح من الأسباب العظيمة من النجاة من المرهوب، وحصول المرغوب، فكانت الأنبياء تلجأ إلى الله في شدائدهم .

كما في دعوة يونس عليه السلام (لا إله إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ) .

وكذلك في قوله تعالى (فلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِين).

وأنه تعالى قال لنبيّه (وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِين) .

وتسبيح الله يكون عن أمور ثلاثة:

عن صفة العيب، وعن نقص في كمال، وعن مماثلة المخلوقين.

فالنقص كقوله تعالى (وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ).

وعن نقص في كمال مثل قوله تعالى (لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ لَهُ مَا).

ومماثلة المخلوقين مثل قوله تعالى (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ).

قال ابن تيمية : التسبيح مقرون بالتحميد ، لأنه يجمع النفي والإثبات ، نفي المعايب وإثبات المحامد ، وذلك يتضمن التعظيم .

(**وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا**) بألسنتنا وقلوبنا وجوارحنا ، فإن من ذكر الله ذكره الله ونصره وأعزه .

قال السعدي : علم عليه الصلاة والسلام أن مدار العبادات كلها والدين على ذكر الله فسأل الله أن يجعل أخاه معه يتساعدان ويتعاونان على البر والتقوى فيكثر منهما ذكر الله من التسبيح والتهليل وغيره من أنواع العبادات .

وفي هذا فضل الاكثار من ذكر الله :

لأنه سبب لطمأنينة القلب ، وراحة البال ، وطيب النفس ، ودفع الآفات ، وكشف الكربات .

وتهون المصيبات لم يوجد عمل أشرح للصدر وأعظم للأجر كالذكر هو إنقاذ للنفس من أتعابها واضطرابها وهمومها وغمومها بل هو طريق مختصر لكل فوز وفلاح .

ولذلك أمرنا الله بالإكثار من ذكره في آيات كثيرة :

قال تعالى (وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ).

وقال تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْراً كَثِيراً).

وقال تعالى (وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيراً وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً).

وقال تعالى (إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيراً وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا).

وقال تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ).

لأن بالذكر تطمئن القلوب، وترتاح النفوس، ويستنير القلب، وشكراً لله تعالى.

(**إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا**) تعلم حالنا وضعفنا وعجزنا وافتقارنا إليك في كل الأمور وأنت أبصر بنا من أنفسنا وأرحم فمن علينا بما سألناك وأجب لنا فيما دعوناك .

الفوائد :

١. إثبات رسالة موسى .

٢. أن الله يبعث لكل أمة رسولاً .

٣. طغيان فرعون وجبروته .

٤. فضل الدعاء .

٥. أن الأنبياء محتاجون لإعانة الله وتثبيته .

٦. فضل شرح الصدر .

٧. أن من شرح الله صدره فقد وفقه الله وأعانه .

٨. من أسباب ضيق الصدر قلة الذكر والطاعة .

٩. فضل ذكر الله ، فإن مدار العبادات كلها والدين على ذكر الله " .

١٠. إن الذكر يعين العبد على القيام بالطاعات وإن شقّت، ويهوّن عليه الوقوف بين يدي الجبابرة .

١١. فيه فضيلة التسبيح؛ لأنه عطف الذكر على التسبيح، وهو داخل به من عطف العام على الخاص لعظمة شأنه .

١٢. إن التعبّد بأسماء اللَّه تعالى وصفاته له أثر عظيم في عبودية العبد لرب العالمين؛ لقوله: (إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا) فإن لكل اسم وصفة عبودية خاصة وثمرة.

١٣. أهمية البسط في الدعاء وأنه مطلوب (فكلّما كثّره العبد وطوّله وأعاده ونوّع جمله، كان ذلك أبلغ في العبودية من التذلل، وأقرب له من ربه، وأعظم لثوابه .

١٤. ينبغي للداعي أن يجمع مع دعائه لوازمه ومتمماته لكي يبذل الأسباب، والجد بها في نيل مطلوبه؛ فإنه سأل ربه أن يعينه، ثم ذهب إلى دعوته، فجمع بين الدعاء، وأسباب حصول مقصوده.

(قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى (٣٦) وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى (٣٧) إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ مَا يُوحَى (٣٨) أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي (٣٩)).

[طه : ٣٦-٣٩] .

==========

(**قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى**) أي : قال الله لموسى بعد أن دعاه، قد حققنا لك ما سألت، وأجبناك لما التمست، فسنشرح لك صدرك، ونيسّر لك أمرك، ونطلق لك لسانك، فلا تتهيب المواقف فيحتبس عن قول الحق، وسنؤزرك بنبوة أخيك هارون ورسالته، فأقبل على ما كلفناك به في حفظنا ورعايتنا وكفالَتنا .

(**وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى**) أي : ولقد أحسنَّا إليك -يا موسى- وأنْعَمْنا عليك قبلَ هذه المرَّة -أي: قبلَ نِعمةِ الوحيِ والرِّسالةِ وإجابةِ الدُّعاءِ- مرَّةً أخرى، وأنت طفلٌ صغيرٌ .

قال القرطبي : قوله تعالى (وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أخرى) أي قبل هذه، وهي حفظه سبحانه له من شر الأعداء في الابتداء؛ وذلك حين الذبح ... والمنّ الإحسان والإفضال.

قال أبو حيان : والمعنى أني قد حفظتك وأنت طفل رضيع فكيف لا أحفظك وقد أهَّلتك للرسالة.

قال الرازي : قوله تعالى (وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أخرى) فنبه بذلك على أمور :

أحدها : كأنه تعالى قال : إني راعيت مصلحتك قبل سؤالك فكيف لا أعطيك مرادك بعد السؤال.

وثانيها : إنا لما أعطيناك في الأزمنة السالفة كل ما احتجت إليه ورقيناك من حالة نازلة إلى درجة عالية دل هذا على أنا نصبناك لمنصب عال ومهم عظيم فكيف يليق بمثل هذه الرتبة المنع من المطلوب .

قال أبو السعود : قوله تعالى (وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ) كلامٌ مستأنَفٌ مَسوق لتقرير ما قبله وزيادةِ توطينِ نفس موسى عليه السلام بالقبولِ ببيان أنه تعالى حيث أنعم عليه بتلك النعمِ التامة من غير سابقةِ دعاءٍ منه وطلبٍ فلأَن يُنعِم عليه بمثلها وهو طالبٌ له وداعٍ أَوْلى وأحرى .

قال ابن عاشور : ... فعطف عليها تذكير بمنّة عليه أخرى في وقت ازدياده ليعلم أنّه لما كان بمحل العناية من ربّه من أوّل أوقات وجوده فابتدأه بعنايته قبل سؤاله فعنايته به بعدَ سؤاله أحْرى، ولأن تلك العناية الأولى تمهيد لما أراد الله به من الاصطفاء والرسالة، فالكرم يقتضي أن الابتداء بالإحسان يستدعي الاستمرار عليه ... فهذا طمأنة لفؤاده وشرح لصدره ليعلم أنه سيكون مؤيّداً في سائر أحواله المستقبلة، كقوله تعالى لمحمد (ولسوف يعطيك ربك فترضى ألم يجدك يتيماً فآوى ووجدك ضالاً فهدى ووجدك عائلاً فأغنى) .

قال ابن الجوزي : قله تعالى (ولقد مَنَنّا عليكَ) أي : أنعمنا عليكَ (مَرَّة أخرى) قبل هذه المرَّة ، ثم بيَّن متى كانت بقوله : (**إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ مَا يُوحَى**) أي : ألهمناها ما يلهم مما كان سببا في نجاتك .

فالإيحاءُ هنا ... بمعنى الإلهام. كما في قوله تعالى (وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ) أي ألهمها .

قال الواحدي : (إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ) قال المفسرونَ: وَحْي إلهامٍ .

قال أبو حيان : قال الجمهور : هي وحي إلهام كقوله (وأوحى ربك إلى النحل) .

وقال ابن عاشور : الوحيُ هنا: وحيُ الإلهامِ الصادقِ. وهو إيقاعُ معنًى في النفسِ ينشَلِجُ له نفسُ الملقَى إليه، بحيثُ يجزمُ بنجاحِه فيه، وذلك مِن توفيقِ الله تعالى. وقد يكونُ بطريقِ الرُّؤيا الصالحةِ التي يُقذَفُ في نفسِ الرَّائي أنها صِدقٌ .

قال الرازي : قوله تعالى (إِذْ أَوْحَيْنَا) فقد اتفق الأكثرون على أن أم موسى عليها السلام ما كانت من الأنبياء والرسل فلا يجوز أن يكون المراد من هذا الوحي هو الوحي الواصل إلى الأنبياء وكيف لا نقول ذلك والمرأة لا تصلح للقضاء والإمامة بل عند الشافعي رحمه الله لا تمكن من تزويجها نفسها فكيف تصلح للنبوة ويدل عليه قوله تعالى (وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِمْ) وهذا صريح في الباب ، وأيضاً فالوحي قد جاء في القرآن لا بمعنى النبوة قال تعالى (وأوحى رَبُّكَ إلى النحل) .

(**أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ**) هذه الآية مفسّرة لما أَوحاه الله إلى أمّ موسى .

وكان قد ولد في السنة التي كان فرعون يقتل فيها مواليد بني إسرائيل من الذكور، وفي ذلك يقول الله تعالى في سورة البقرة مخاطبا بني إسرائيل (يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ) .

وقيل في سبب ذلك: إن فرعون خاف أَن يذهب ملكه على يد مولود من بني إسرائيل، يولد في هذا العام كما رآه في منامه، فأمر بقتل كل ذكر يولد منهم فيه – (وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا) ولهذا لم يُقْدِر فرعونَ تدبيرُه في دفع ما قدره الله عليه، إذ لا يُغنى حَذرٌ مِنْ قَدرٍ.

والمعنى: إذ أَوحينا إلى أُمك يا موسى أَن ضعيه في صندوق محكم الصنع بحيث لا يدخله ماءٌ، فاطرحيه في البحر – وهو النِّيل – يلقيه البحر بساحل فرعون.

قال الرازي : اليم هو البحر والمراد به ههنا نيل مصر في قول الجميع واليم اسم يقع على البحر وعلى النهر العظيم.

(**يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ**) وهو فرعون .

كما قال تعالى (فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا) .

قال الرازي : قوله تعالى (يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ) فيه إشكال وهو أن موسى عليه السلام لم يكن ذلك الوقت بحيث يعادى.

وجوابه : أما كونه عدواً لله من جهة كفره وعتوه فظاهر وأما كونه عدواً لموسى عليه السلام فيحتمل من حيث إنه لو ظهر له حالة لقتله ويحتمل أنه من حيث يؤول أمره إلى ما آل إليه من العداوة.

قال ابن عاشور : العدوّ : فرعون ، فهو عدوّ الله لأنه انتحل لنفسه الإلهية ، وعدوّ موسى تقديراً في المستقبل .

(**وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي**) يَعْنِي أَنِّي جَعَلْتُ مَنْ رَآك أَحَبَّكَ حَتَّى أَحَبَّكَ فِرْعَوْنُ فَسَلِمْت مِنْ شَرِّهِ وَأَحَبَّتْكَ امْرَأَتُهُ آسِيَةُ بِنْتُ مُزَاحِمٍ فَتَبَنَّتْكَ.

قال الشنقيطي : من آثار هذه المحبة التي ألقاها الله على عبده ونبيه موسى وعليه وعلى نبينا الصلاة والسلام ما ذكره جل وعلا في « القصص » في قوله (وَقَالَتِ امرأة فِرْعَوْنَ قُرَّةُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لاَ تَقْتُلُوهُ)الآية ، قال ابن عباس (وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي) أي أحبه الله وحببه إلى خلقه. وقال ابن عطية : جعل عليه مسحة من جمال. لا يكاد يصبر عنه من رآه. وقال قتادة : كانت في عيني موسى ملاحة ، ما رآه أحد إلا أحبه وعشقه. قاله القرطبي.

وجاء في (التفسير الوسيط) أي: وألقيت عليك محبة عظيمة كائنة منى-لا من غيرى- قد زرعتها في القلوب، فكل من رآك أحبك.

ولقد كان من آثار هذه المحبة: عطف امرأة فرعون عليه، وطلبها منه عدم قتله، وطلبها منه كذلك أن يتخذه ولدا.

وكان من آثار هذه المحبة أن يعيش موسى في صغره معززاً مكرماً في بيت فرعون مع أنه في المستقبل سيكون عدواً له.

وهكذا رعاية الله تعالى ومحبته لموسى جعلته يعيش بين قوى الشر والطغيان آمناً مطمئناً.

قال ابن عباس: أحب الله تعالى موسى، وحببه إلى خلقه.

قال ابنُ عثيمين: (فقَولُه: وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي: اختلفَ المفَسِّرونَ في معناها؛ فمِنهم من قال: وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي، يعني: أنِّي أحبَبْتُك. ومنهم مَن قال: ألقيتُ عليك محبَّةً مِنَ النَّاسِ، والإلقاءُ مِنَ اللهِ، أي: أنَّ من رآك أحبَّك .

وشاهِدُ هذا أنَّ امرأةَ فِرعَونَ لَمَّا رأتْه أحبَّتْه وقالت (لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا) .

ولو قال قائلٌ: أيمكِنُكم أن تَحمِلوا الآيةَ على المعنَيَينِ؟ لقُلْنا: نعمْ، بناءً على القاعدةِ، وهي: أنَّ الآيةَ إذا كانت تَحمِلُ مَعنيَينِ لا مُنافاةَ بينهما، فإنَّها تُحمَلُ عليهما جميعًا؛ فموسى عليه السلام محبوبٌ مِن اللهِ عزَّ وجلَّ، ومحبوبٌ مِن النَّاسِ، إذا رآه الناسُ أحبُّوه، والواقِعُ أنَّ المعنَيَينِ متلازمانِ؛ لأنَّ اللهَ تعالى إذا أحبَّ عبدًا ألقى في قُلوبِ العبادِ محبَّتَه، ويُروى عن ابنِ عبَّاسٍ رضي الله عنهما أنَّه قال: أحَبَّه اللهُ، وحَبَّبه إلى خَلقِه .

(**وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي**) أي : ولتربى وأنت محاط بالحنو والشفقة تحت رعايتي وعنايتي وعيني، كما يراعى الإنسان بعينه من يحبه ويهتم بأمره.

وهذا ما حدث لموسى فعلا، فقد عاش في طفولته تحت عين فرعون، وهو عدو لله تعالى ومع ذلك لم تستطع عين فرعون أن تمتد بسوء إلى موسى، لأن عين الله تعالى كانت ترعاه وتحميه من بطش فرعون وشيعته.

فالجملة الكريمة فيها من الرفق بموسى عليه السلام ومن الرعاية له، ما يعجز القلم عن وصفه.

وكيف يستطيع القلم وصف حال إنسان قال الله في شأنه: وَلِتُصْنَعَ عَلى عَيْنِي.

الفوائد :

١. علو منزلة موسى عند ربه .

٢. استجابة الله لدعاء موسى .

٣. فضل الدعاء .

٤. تذكير بموسى بنعمة الله عليه وهو صغير ليزداد طمأنينة وسكينة .

٥. من أنواع الوحي الإلهام .

٦. حكمة الله العظيمة أن يتربى موسى في بيت أعدى الأعداء .

٧. الثناء على موسى بإلقاء المحبة عليه .

٨. من نعم الله على العبد أن يجعل له لسان صدق .

٩. رعاية الله لموسى وتربيته .

(إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَن يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلا تَحْزَنَ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى (٤٠) وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي (٤١)) .

[طه : ٤٠-٤١] .

==========

(إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَن يَكْفُلُهُ ...) وَذَلِكَ أَنَّهُ لَمَّا اسْتَقَرَّ عِنْدَ آلِ فِرْعَوْنَ عرضوا عليه المراضع فأباها، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى (وَحَرَّمْنا عَلَيْهِ الْمَراضِعَ مِنْ قَبْلُ) فَجَاءَتْ أُخْتُهُ (فقَالَتْ: هَلْ أَدُلُّكُمْ على أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ ناصِحُونَ) تعني هل أدلكم على من يرضعه لَكُمْ بِالْأُجْرَةِ، فَذَهَبَتْ بِهِ وَهُمْ مَعَهَا إِلَى أُمِّهِ فَعَرَضَتْ عَلَيْهِ ثَدْيَهَا، فَقَبِلَهُ فَفَرِحُوا بِذَلِكَ فَرَحًا شَدِيدًا، وَاسْتَأْجَرُوهَا عَلَى إِرْضَاعِهِ فَنَالَهَا بِسَبَبِهِ سَعَادَةٌ وَرِفْعَةٌ وَرَاحَةٌ فِي الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ أغنى وَأَجْزَلُ .

وَلِهَذَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ «مَثَلُ الصَّانِعِ الَّذِي يَحْتَسِبُ فِي صَنْعَتِهِ الْخَيْرَ كَمَثَلِ أَمِّ مُوسَى تُرْضِعُ وَلَدَهَا وَتَأْخُذُ أَجْرَهَا»

وَقَالَ تَعَالَى هَاهُنَا: فَرَجَعْناكَ إِلى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُها وَلا تَحْزَنَ أَيْ عَلَيْكَ .

(وَقَتَلْتَ نَفْسًا) أي: وقتلتَ الرجُلَ القبطيَّ من آلِ فِرعَونَ حينَ استغاثَك الإسرائيليُّ عليه، وكانَ قتلُه له خطأً .

كما قال تعالى (وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْه) .

وأشار تعالى إلى القتيل المذكور في قوله (قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْساً فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ) وهو المراد بالذنب في قوله تعالى عن موسى (فَأَرْسِلْ إِلى هَارُونَ وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ) .

وهو مراد فرعون بقوله لموسى فيما ذكره الله عنه (وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ التي فَعَلْتَ) .

(فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ) وَهُوَ مَا حَصَلَ لَهُ بِسَبَبِ عَزْمِ آلِ فِرْعَوْنَ عَلَى قَتْلِهِ، فَفَرَّ مِنْهُمْ هَارِبًا حَتَّى وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ، وَقَالَ لَهُ ذَلِكَ الرَّجُلُ الصَّالِحُ (لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ) .

وقال تعالى (وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ * فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ) .

قال الآلوسي : (فنجيناك مِنَ الغم) وهو الغم الناشئ من القتل وقد حصل له من وجهين خوف عقاب الله تعالى حيث لم يقع القتل بأمره سبحانه وخوف اقتصاص فرعون وقد نجاه الله تعالى من ذلك بالمغفرة حين قال (رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فاغفر لِي) وبالمهاجرة إلى مدين ، وقيل : هو غم التابوت ، وقيل : غم البحر وكلا القولين ليس بشيء .

(وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا) أي : ابتليناك ابتلاء عظيماً بأنواع من المحن .

قال السعدي : (وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا) أي: اختبرناك، وبلوناك، فوجدناك مستقيماً في أحوالك أو نقلناك في أحوالك، وأطوارك، حتى وصلت إلى ما وصلت إليه .

(**فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ**) أي: فلمَّا خرجتَ من مصرَ خائفًا إلى مَدْينَ أقمتَ سنينَ كثيرةً عندَ أهلِها .

كما قال تعالى (فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ * وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ) .

وقال سُبحانَه (قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ * قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ * فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا) .

(**ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى**) أي : جئت على القدر الذي قدرته وسبق في علمي أنك تجيء فيه فلم تتأخر عنه ولم تتقدم .

قال الخازن : أي جئت على القدر الذي قدرت أن تجيء فيه. قيل على رأس أربعين سنة وهو القدر الذي يوحى إلى الأنبياء فيه.

وقال القاسمي : (ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى) أي: بعد أن قضيت الأجل المضروب بينك وبين شعيب من الإجارة، جئت بأهلك على وفق ما سبق في قضائي وقدري؛ أن أكلمك وأستنبئك في وقت يعينه قد وقَّته لذلك . فما جئت إلا على ذلك القدر، غير مستقدم ولا مستأخر . فالأمر له تعالى . وهو المسيّر عباده وخلقه فيما يشاء .

وقال السعدي : (ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى) أي: جئت مجيئا قد مضى به القدر، وعلمه الله وأراده في هذا الوقت وهذا الزمان وهذا المكان، ليس مجيئك اتفاقا من غير قصد ولا تدبير منا، وهذا يدل على كمال اعتناء الله بكليمه موسى عليه السلام .

وقال (وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ) .

وقال (وَكَانَ أَمْرُ الله قَدَراً مَّقْدُوراً) .

(**وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي**) أي : اخترتك لتكون رسولًا عنّي تبلّغ الناس ما أوحيت به إليك.

قال ابن عباس : أي اصطفيتك لوحيي ورسالتي .

قال الخازن : اخترتك واصطفيتك لوحيي ورسالتي لتتصرف على إرادتي ومحبتي. وذلك أن قيامه بأداء الرسالة تصرف على إرادة الله ومحبته.

جاء في (**التفسير الوسيط**) ي : وجعلتك محل صنيعتي وإحساني، حيث اخترتك واصطفيتك لحمل رسالتي وتبليغها إلى فرعون وقومه، وإلى قومك بنى إسرائيل.

فالآية الكريمة تكريم عظيم لموسى عليه السلام اختاره الله تعالى واجتباه من بين خلقه لحمل رسالته إلى فرعون وبنى إسرائيل.

الفوائد :

١. أن وعد حق لا يتخلف .
٢. رجوع موسى لأمه آية من آيات الله .
٣. أن الله أنقذ موسى في صغره .
٤. حفظ الله لموسى .
٥. منن الله تعالى الكثيرة على موسى .

٦. إنَّ الله عندما ابتلى موسى بالعديد من الابتلاءات وخصَّة بالكثير من الفتن والاختبارات والامتحانات، لم يكن ذلك إلّا من أجل صقله وتمكينه من تحمّل عبء الرّسالة وتبليغها، ودعوته لفرعون وبني إسرائيل إلى عبادة الله الواحد الأحد، فإنَّ الرّسالة الرَّبانيَّة حملها ثقيل تحتاج إلى ظهرٍ قوي، ولن يشتد عود المرء إلّا من خلال المصاعب التي تعترضه في حياته.

٧. مجيء موسى لكلام الله مكتوب مقدر .

٨. كل شيء بقدر الله تعالى لا يتأخر ولا يتقدم .

(اذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلا تَنِيَا فِي ذِكْرِي (٤٢) اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى (٤٣) فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى (٤٤) قَالا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَى (٤٥) قَالَ لا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى (٤٦) فَأْتِيَاهُ فَقُولا إِنَّا رَسُولا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَالسَّلامُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى (٤٧) إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّى (٤٨)) .

[طه : ٤٢-٤٨] .

==========

(**اذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي**) أي: اذهَبْ أنت وأخوك هارونُ إلى فِرعَونَ بأدلَّتي وحُجَجي ومُعجِزاتي الدالَّةِ على صِدقِكما .

كما قال تعالى (وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا * فَقُلْنَا اذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا) .

قال البقاعي : (بِآيَاتِي) التي أريتك وغيرها مما أظهره على يديك .

قال ابن الجوزي : (اذهب أنت وأخوك بآياتي) فيها ثلاثة أقوال.

أحدها : أنها العصا واليد.

وقد يُذْكَر الاثنان بلفظ الجمع.

والثاني : العصا واليد وحَلُّ العُقدة التي ما زال فرعون وقومه يعرفونها ، ذكرهما ابن الأنباري.

والثالث : الآيات التسع ، **والأول أصح**.

وقال الآلوسي : والآيات المعجزات .

والمراد بها في قول اليد والعصا وحل العقدة .

وعن ابن عباس الآيات التسع .

وقيل : الأولان فقط .

وإطلاق الجمع على الاثنين شائع ؛ ويؤيد ذلك أن فرعون لما قال له عليه السلام : فأت بآية ألقى العصا ونزع اليد ، وقال (فَذَانِكَ برهانان) .

وقال بعضهم : إنهما وإن كانتا اثنتين لكن في كل منهما آيات شتى ، فإن انقلاب العصا حيواناً آية ، وكونها ثعباناً عظيماً لا يقادر قدره آية أخرى ، وسرعة حركته مع عظم جرمه آية أخرى ، وكونه مع ذلك مسخراً له عليه السلام بحيث يده في فمه فلا يضره آية أخرى ثم انقلابها عصا كما كانت آية أخرى ، وكذلك اليد البيضاء فإن بياضها في نفسه آية وشعاعها آية ثم رجوعها إلى حالتها الأولى آية أخرى.

وقيل : المراد بها ما أعطى عليه السلام من معجزة ووحي ، والذي يميل إليه القلب أنها العصا واليد .

(**وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي**) أي: ولا تَضعُفا، ولا تَفتُرا عن ذِكري، بل لازِماه واستَمِرَّا عليه .

قال ابنُ كثير : والمرادُ أنهما لا يفتُرانِ في ذكرِ الله، بلْ يذكرانِ الله في حالِ مواجهةِ فِرعَونَ، ليكونَ ذكرُ الله عونًا لهما عليه، وقوةً لهما، وسلطانًا كاسرًا له .

وقد أثنى الله على من يذكره في جميع حالاته في قوله (الذين يَذْكُرُونَ الله قِيَاماً وَقُعُوداً وعلى جُنُوبِهِمْ) .

وأمر بذكر الله عند لقاء العدو في قوله (إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فاثبتوا واذكروا الله كَثِيراً) .

قال الرازي : والحكمة فيه أن من ذكر جلال الله استحقر غيره فلا يخاف أحداً ولأن من ذكر جلال الله تقوى روحه بذلك الذكر فلا يضعف في المقصود ، ولأن ذاكر الله تعالى لا بد وأن يكون ذاكراً لإحسانه وذاكر إحسانه لا يفتر في أداء أوامره.

قال بعض العلماء : المراد بالذكر تبليغ الرسالة فإن الذكر يقع على كل العبادات وتبليغ الرسالة من أعظمها فكان جديراً بأن يطلق عليه اسم الذكر.

(**اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى**) أصل الطغيان : مجاوزة الحد ، ومنه (إِنَّا لَمَّا طَغَا المآء حَمَلْنَاكُمْ فِي الجارية) .

وقد بين الله تعالى شدة طغيان فرعون ومجاوزته الحد في قوله عند (فَقَالَ أَنَاْ رَبُّكُمُ الأعلى) وقوله عنه (مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِّنْ إله غَيْرِي) وقوله عنه أيضاً (لَئِنِ اتخذت إلها غَيْرِي لأَجْعَلَنَّكَ مِنَ المسجونين) .

قال أبو حيان : (اذهبا ...) أي بالرسالة وأبعد من ذهب إلى أنهما أمراً بالذهاب أولاً إلى الناس وثانياً إلى فرعون ، فكرر الأمر بالذهاب لاختلاف المتعلق .

(**فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَّيِّنًا**) أي : كلاماً لطيفاً سهلاً رقيقاً، ليس فيه ما يغضب وينفر. وقد بين جل وعلا المراد بالقول اللين في هذه الآية بقوله (اذهب إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طغى فَقُلْ هَل لَّكَ إلى أَن تزكى وَأَهْدِيَكَ إلى رَبِّكَ فتخشى) وهذا والله غاية لين الكلام ولطافته ورقته كما ترى.

وما أمر به موسى وهارون في هذه الآية الكريمة أشار له تعالى في غير هذا الموضع ، كقوله (ادع إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بالحكمة والموعظة الحسنة وَجَادِلْهُم بالتي هِيَ أَحْسَنُ) .

وقال السعدي: وقد فُسِّر القولُ اللينُ في قولِه (فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى * وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى) فإنَّ في هذا الكلامِ مِن لطفِ القول، وسهولتِه، وعدمِ بشاعته ما لا يخفَى على المتأمِّلِ .

لم أمر الله تعالى موسى عليه السلام باللين مع الكافر الجاحد ؟

أن من عادة الجبابرة إذا غلظ لهم في الوعظ أن يزدادوا عتواً وتكبراً ، والمقصود من البعثة حصول النفع لا حصول زيادة الضرر فلهذا أمر الله تعالى بالرفق. (الرازي) .

وذلك أجلب للمراد . (ابن عطية) .

قال القرطبي : القول اللَّين هو القول الذي لا خشونة فيه ، فإذا كان موسى أمر بأن يقول لفرعون قولاً ليناً ، فمن دونه أحرى بأن يقتدي بذلك في خطابه ، وأمره بالمعروف في كلامه ، وقد قال الله تعالى (وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْناً) .

(**لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى**) أي : لعله يتذكر عظمة الله أو يخاف عقابه فيرتدع عن طغيانه .

قال ابنُ كثير: التَّذكُّرُ: الرُّجوعُ عن المحذورِ، والخشيةُ: تحصيلُ الطَّاعةِ .

وقال الشوكاني: والتذكيرُ: النَّظَرُ فيما بَلَّغاهُ مِن الذكرِ، وإمعانُ الفكرِ فيه حتَّى يكونَ ذلك سببًا في الإجابةِ، والخشيةُ هي خشيةُ عقابِ اللَّهِ الموعودِ به على لسانِهما.

وقال ابنُ عاشور: أي: لعلَّه ينظرُ نظرَ المتبصرِ فيعرف الحقَّ، أو يخشَى حلولَ العقابِ به فيطيعُ عن خشيةٍ لا عن تبصُّرٍ...، فالتذكُّر: أن يعرفَ أنه على الباطلِ، والخشية: أن يترددَ في ذلك فيخشى أن يكونَ على الباطلِ، فيحتاطُ لنفسِه بالأخذِ بما دعاه إليه موسَى .

ولفظ: (لَعَلَّ) يستعمل للرجاء وللتعليل، فإن أُريد منها الرجاءُ هنا، فالرجاءُ يكون من موسى وهارون.

والمعنى على هذا: فقولا لفرعون قولًا ليِّنًا ترجوان بهذا اللين أَن يتعظ أو يخاف سوءَ المصير فيؤْمن، ولا يصح أَن يكون الرجاءُ من الله، لأنه تعالى يعلم قديمًا من غرور فرعون إصراره على الكفر والطغيان، وأنه بعيد عن التذكرة والخشية، ولكنه أرسلهما إليه ليقيما الحجة عليه، وإن أُريد من لعل التعليل. فالمعنى: لكي يتعظ أَو يخاف.

قال الشنقيطي : (لعلَّ) في القرآنِ بمعنى التعليلِ، إلا التي في سورةِ «الشعراء» (وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ) فهي بمعنى كأنَّكم ... وقال بعضُ أهلِ العلمِ: لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى معناه على رجائِكما وطمعِكما، فالترجِّي، والتوقعُ المدلولُ عليه بـ «لعلَّ» راجعٌ إلى جهةِ البشرِ. وعزا القرطبيُّ هذا القولَ لكبراءِ النحويينَ، كسيبويه، وغيرِه .

(**قَالا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَى**) أي: قال موسى وهارونُ: ربَّنا إنَّنا نخافُ مِن فِرعونَ (أن يفرط علينا) أي: أن يعجِّلَ بعُقوبتِنا قبلَ أن نَدعُوَه إلى ما أمَرْتَنا به (أو أن يطغى) أي: يتجاوز الحد في الإساءة إلينا ويتكبَّرَ ويتمرَّدَ على طاعتِك.

يقال: فرط فلان على فلان يفرط إذا عاجله بالعقوبة وأذاه بدون تمهل، ومنه قولهم ، فرس فارط، أي سابق لغيره من الخيل.

(**قَالَ لا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى**) أي: إنَّني معكما بالنَّصرِ والإعانةِ والحِفظِ والتَّأييد .

والسميع: اسم من أسماء الله تعالى ، متضمن لصفة السمع لله تعالى ، فهو سبحانه يسمع جميع الأقوال والأصوات ، السر والجهر عنده سواء.

كما قال تعالى (سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ).

وقال تعالى (وَإِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى).

وقال تعالى (وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ).

وقال تعالى (إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ).

وسمع الله ينقسم إلى قسمين:

أولاً: سمع إدراك: أي أن الله يسمع كل صوت خفي أو ظاهر.

قال تعالى: (قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي ...) .

هذا السمع قد يراد به الإحاطة ، كالآية السابقة.

وقد يراد به التهديد ، كقوله تعالى: (قَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاء).

وقد يراد به التأييد ، ومنه قوله تعالى لموسى: (قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى) أي أسمعك وأؤيدك.

ثانياً: سمع إجابة: أي أن الله يستجيب لمن دعاه.

ومنه قول إبراهيم (إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاء) أي مجيب الدعاء.

ومنه قول المصلي (سمع الله لمن حمده) يعني استجاب لمن حمده.

ومنه كقوله ﷺ (اللهم إني أعوذ بك من قول لا يسمع) أي: من دعاء لا يستجاب.

(**فَأْتِيَاهُ فَقُولا إِنَّا رَسُولا رَبِّكَ**) أي: فاذهَبا إلى فِرعَونَ فقولا له: إنَّا رَسولانِ إليك مِن رَبِّك الذي خلَقَك وربَّاك .

كما قال تعالى (فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ) .

(**فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ**) أي : فأطلق سراح بنى إسرائيل، ودعهم يعيشون أحرارا في دولتك ولا تعذبهم باستعبادهم وقهرهم، وقتل أبنائهم، واستحياء نسائهم.

في هذا أن الله تعالى كلف موسى وهارون أن يطلبا من فرعون في أول لقاء بينهما أن يرسل بنى إسرائيل معهما، ولم يكلفهما بمطالبته بالإيمان بربه سبحانه، في حين أن سورة النازعات تدل على أنهما كلفا بأن يهدياه أولًا إلى معرفة ربه، فقد جاءَ فيها قوله تعال (اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى . فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى . وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى) وجمعًا بين النصين نقول: إن الله كلفهما بالأمرين جميعًا، وإنهما تدرجا معه، فطلبا منه إرسال بنى إسرائيل وإطلاقهم من الأسر، ورفع التعذيب والقتل عنهم، قبل أن يطلبا منه تبديل اعتقاده، فإن الأول أسهل عليه من الثاني.

(**وَلا تُعَذِّبْهُمْ**) أي بالسّخرة والتعب في العمل ، وكان بنو إسرائيل عند فرعون في عذاب شديد ؛ يذبّح أبناءهم ، ويستحيي نساءهم ، ويكلّفهم من العمل في الطّين واللّبِن وبناء المدائن ما لا يطيقونه.

والعذاب الذي نهى الله فرعون أن يفعله ببني إسرائيل : هو المذكور في سورة « البقرة » في قوله (وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سواء العذاب يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بلاء مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ) .

وفي سورة « إبراهيم » في قوله تعالى (وَإِذْ قَالَ موسى لِقَوْمِهِ اذكروا نِعْمَةَ الله عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَاكُمْ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سواء العذاب وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ) .

وفي سورة الأعراف» في قوله تعالى (وَإِذ أَنْجَيْنَاكُمْ مِّنْ آلِ فِرْعَونَ يَسُومُونَكُمْ سواء العذاب يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ).

وفي سورة «الدخان» في قوله (وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بني إِسْرَائِيلَ مِنَ العذاب المهين مِن فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَالِياً مِّنَ المسرفين).

(**قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ**) أي : قد جئناك بمعجزة من ربك تثبت صدقنا، وتؤيد مدعانا، وتشهد بأنا قد أرسلنا الله تعالى إليك لهدايتك ودعوتك أنت وقومك إلى الدخول في الدين الحق.

المراد بالآية هنا: جنسها، فتشمل العصا واليد وغيرهما من المعجزات التي أعطاها الله تعالى لنبيه موسى عليه السلام .

قال الشنقيطي : يرادُ به جنسُ الآيةِ الصَّادِقُ بالعصا واليد وغيرِهما؛ لدَلالةِ آياتٍ أُخَرَ على ذلك .

(**وَالسَّلامُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى**) أي : والسلامة من عذاب الله لمن اهتدى وآمن به .

فليس السلام هنا بمعنى التحية، لأنه ليس في ابتداء كلامهم كما هي العادة في التحية، بل هو بمعنى الأمان لترغيبه في حسن العاقبة.

قال الخازن : ليس المراد منه سلام التحية بل إنما معناه سلم من العذاب من أسلم .

(**إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ**) يعني الهلاك والدَّمار في الدنيا والخلود في جهنم في الآخرة .

(**عَلَى مَن كَذَّبَ**) بالله وبأنبيائه .

(**وَتَوَلَّى**) وأعرض عن الإيمان .

قال ابن عباس : هذه أَرجى آية للموحِّدين لأنهم لم يكذِّبوا ولم يتولّوا.

الفوائد :

١. أن كل نبي أعطي من الآيات ما يدل على صدقه .

٢. كثرة الآيات التي أعطيها موسى .

٣. رحمة الله بالخلق ، حيث يرسل مع الرسل الآيات العظيمة التي تدل على صدقهم فيؤمنوا .

٤. فضل ذكر الله .

٥. فضل ذكر الله على كل الأحوال .

٦. أهمية العبادة والذكر للداعية إلى الله .

٧. ذكر الله سبب للتثبيت والمعونة . (فئة فاثبتوا واذكروا الله

٨. من أساليب الدعوة اللين والرفق .

٩. التحذير من الشدة والغلظة في الدعوة .

١٠. من وظيفة الرسل إقامة الحجة على المكذبين .

١١. أن الخوف الطبيعي يقع من كل أحد حتى الرسل .

١٢. إثبات المعية الخاصة لله ، التي مقتضاها النصر والتأييد والمعونة .

١٣. أن من آمن واتبع الرسل فقد سلم من العذاب الدنيوي والأخروي .

١٤. أن من لم يؤمن بالله ولم يتبع الرسل فقد استحق العذاب الدنيوي والأخروي .

(قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَى (٤٩) قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى (٥٠) قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الأُولَى (٥١) قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لاَّ يَضِلُّ رَبِّي وَلا يَنسَى (٥٢) الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّى (٥٣) كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّأُوْلِي النُّهَى (٥٤)) .

[طه : ٤٩-٥٤] .

==========

(قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَى) أي: قال فرعون: ومن هذا الرب الذي تدعوني اليه يا موسى؟ فإني لا اعرفه؟ ولم يقل: من ربي؟ لغاية عتوه ونهاية طغيانه، بل أضافه الى موسى وهارون [من ربكما] .

جاء في (**التفسير الوسيط**) وكأنه- لطغيانه وفجوره- لا يريد أن يعترف بأن رب موسى وهارون هو ربه وخالقه.

كما قالا له قبل ذلك إِنَّا رَسُولا رَبِّكَ.

وخص موسى بالنداء مع أنه وجه الخطاب إليهما لظنه أن موسىعليه السلام هو الأصل في حمل رسالة الحق إليه، وأن هارون هو وزيره ومعاونه أو أنه لخبثه ومكره، تجنب مخاطبة هارون لعلمه أنه أفصح لسانا من موسى- عليهما السلام-.

(قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى) فيه أقوال :

قيل : أعطى كل شيء زوجه من جنسه ، ثم هداه لنكاحه ، قاله ابن عباس والسدي.

وقيل : أعطى كل شيء صورته ، ثم هداه إلى معيشته ومطعمه ومشربه .

وقيل : أعطى كلاً ما يصلحه ، ثم هداه له .

وقيل : أعطى كل شيءٍ ما ألهمه من علم أو صناعة وهداه إلى معرفته.

قال ابن عطية : وقالت فرقة بل المعنى أعطى كل موجود من مخلوقاته خلقته وصورته، أي أكمل ذلك له وأتقنه (ثم هدى) أي يسر شيء لمنافعه ومرافقه ، وهذا القول أشرف معنى وأعم في الموجودات .

(**قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الأُولَى**) أي: قال فِرعَونُ: فما شأنُ القُرونِ الماضيةِ مِن قَبلِنا، الذين لم يؤمِنْ أهلُها باللهِ، وعَبَدوا غَيرَه؟ فلو كان ما تقولُه حَقًّا، لم يَخْفَ على القُرونِ الأُولى ولم يُهمِلوه .

قال القرطبي : أي ما حالها وما شأنها ، فأعلمه أن علمها عند الله تعالى ، أي إن هذا من علم الغيب الذي سألت عنه ، وهو مما استأثر الله تعالى به لا يعلمه إلا هو ، وما أنا إلا عبد مثلك ؛ لا أعلم منه إلا ما أخبرني به علام الغيوب ، وعلم أحوال القرون مكتوبة عند الله في اللوح المحفوظ.

وقيل : المعنى فما بال القرون الأولى لم يقروا بذلك ، أي فما بالهم ذهبوا وقد عبدوا غير ربك.

وقيل : إنما سأله عن أعمال القرون الأولى ، فأعلمه أنها محصاة عند الله تعالى ، ومحفوظة عنده في كتاب أي هي مكتوبة فسيجازيهم غداً بها وعليها ، وعنى بالكتاب اللوح المحفوظ.

وقال السعدي : أي: ما شأنُهم، وما خبَرُهم؟! وكيف وصلَت بهم الحالُ وقد سبقونا إلى الإنكارِ والكُفرِ والظُّلمِ والعِناد؟ ولنا فيهم أُسوةٌ .

(**قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ**) أي: قال له موسى: عِلمُ القُرونِ الماضيةِ وأعمالُ أهلِها كُلُّها مكتوبةٌ عندَ رَبِّي في اللَّوحِ المحفوظِ.

وقال ابنُ عطية: وقوله (فِي كِتَابٍ) يريدُ في اللوحِ المحفوظِ، أو فيما كتَبه الملائكةُ مِن أحوالِ البشرِ .

وقال ابنُ كثيرٍ: وهو اللَّوحُ المحفوظُ وكِتابُ الأعمالِ .

وقال ابن القيم: عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي أي: أعمالُ تلك القُرونِ وكُفرُهم وشِركُهم معلومٌ لرَبِّي، قد أحصاه وحَفِظَه وأودَعَه في كتابٍ، فيُجازيهم عليه يومَ القيامةِ، ولم يُودِعْه في كتابٍ خَشيةَ النِّسيانِ والضَّلالِ؛ فإنَّه سُبحانَه لا يَضِلُّ ولا ينسى، وعلى هذا فالكِتابُ هاهنا كتابُ الأعمالِ، وقال الكلبي: «يعني به اللَّوحَ المحفوظَ»، وعلى هذا فهو كتابُ القَدَرِ السَّابق، والمعنى على هذا أنَّه سبحانَه قد عَلِمَ أعمالَهم وكَتَبَها عنده قبل أن يَعمَلوها، فيكونُ هذا من تمامِ قَولِه: الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى فتَأمَّلْه .

وقال السعدي : قوله تعالى (في كتاب) أي: قد أحصى أعمالهم من خير وشر، وكتبه في كتاب، وهو اللوح المحفوظ، وأحاط به علما وخبراً .

(**لاَّ يَضِلُّ رَبِّي وَلا يَنسَى**) أي: لا يَشِذُّ عن عِلمِ رَبِّي شَيءٌ، ولا يفوتُه صَغيرٌ ولا كبيرٌ، ولا ينسَى شيئًا، فلا يُخطئُ في أفعالِه وتدبيرِ خَلقِه ، ولا ينسى شيئًا مِن أعمالِ عبادِه وأحوالِهم وأخبارِهم، ولا يَترُكُ فِعلَ ما هو حِكمةٌ وصَوابٌ

قال ابن عاشور : الضلال : الخطأ في العلم ، شبّه بخطأ الطريق ، والنسيان : عدم تذكر الأمر المعلوم في ذهن العالم.

قال ابن جرير: فإن كان عَذَّب تلك القرونَ في عاجلٍ، وعَجَّل هلاكَها؛ فالصَّوابُ ما فعَلَ، وإن كان أخَّرَ عِقابَها إلى القيامةِ، فالحَقُّ ما فَعَل؛ هو أعلَمُ بما يَفعَلُ، لا يُخطِئُ رَبِّي .

وقال السعدي : فلا يضل عن شيء منها، ولا ينسى ما علمه منها ... ومضمون ذلك، أنهم قدموا إلى ما قدموا، ولاقوا أعمالهم، وسيجازون عليها، فلا معنى لسؤالك واستفهامك يا فرعون عنهم، فتلك أمة قد خلت، لها ما كسبت، ولكم ما كسبتم، فإن كان الدليل الذي أوردناه عليك، والآيات التي أريناكها، قد تحققت صدقها ويقينها، وهو الواقع، فانقد إلى الحق، ودع عنك الكفر والظلم، وكثرة الجدال بالباطل، وإن كنت قد شككت فيها أو رأيتها غير مستقيمة، فالطريق مفتوح وباب البحث غير مغلق، فرد الدليل بالدليل، والبرهان بالبرهان، ولن تجد لذلك سبيلا ما دام الملوان.

كيف وقد أخبر الله عنه، أنه جحدها مع استيقانها، كما قال تعالى (وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا) وقال موسى (لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزلَ هَؤُلاءِ إِلا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ بَصَائِرَ) فعلم أنه ظالم في جداله، قصده العلو في الأرض. (السعدي)

-ثم بَيَّنَ جَلَّ وَعَلَا أَرْبَعَ آيَاتٍ مِنْ آيَاتِهِ الْكُبْرَى الدَّالَّةِ عَلَى أَنَّهُ الْمَعْبُودُ وَحْدَهُ . وَمَعَ كَوْنِهَا مِنْ آيَاتٍ عَلَى كَمَالِ قُدْرَتِهِ وَاسْتِحْقَاقِهِ الْعِبَادَةَ وَحْدَهُ دُونَ غَيْرِهِ فَهِيَ مِنَ النِّعَمِ الْعُظْمَى عَلَى بَنِي آدَمَ .

(**الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ مَهْدًا**) أي : جعل الارض كالمهد اي كالبساط والفراش ، تمتهدونها وتستقرون عليها رحمة بكم

كما قال تعالى (وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ (٩) الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ) .

وقال تعالى (أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ مِهَادًا (٦) وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا) .

قال تعالى (الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشاً) .

وقال تعالى (وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وجعل فيها رواسي وأنهاراً).

وقال تعالى (وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا) .

وقال تعالى (وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ) .

وقال تعالى (اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَاراً) والمراد بالقرار: أنها لا تميد بساكنيها، أي لا تضطرب كما قال تعالى (وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَاراً وَسُبُلاً)

(قراراً) مستقراً بالدحو والتسوية. (مددناها) بسطناها ووسعناها (مهداً) كالفراش الذي يُوطّأُ للصبي.

وهذه من أعظم النعم أن جعل سبحانه الأرض فراشاً ومهاداً.

قال الرازي : المراد من كون الأرض مهداً أنه تعالى جعلها بحيث يتصرف العباد وغيرهم عليها بالقعود والقيام والنوم والزراعة وجميع وجوه المنافع .

(**وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً**) أي : جعل لكم طرقا تسلكونها فيها ، لقضاء مصالحكم .

كما قال تعالى (وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ (٩) الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ) .

وقال تعالى (وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ) .

وَقَال تعالى (وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا) .

وقال تعالى (وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ) .

وقال تعالى (هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا) .

(**وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء**) المراد ب(السماء) العلو، لأن المطر ينزل من السحاب.

(**فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّى**) أي : فأخرَجْنا بسَبَبِ المطَرِ أصنافًا من النَّباتاتِ المختلفةِ الألوانِ، والأشكالِ، والرَّوائِحِ، والطُّعومِ، والمنافِعِ .

كما قال تعالى (أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَكُمْ) أي: أنزل من السماء مطراً عذباً فراتاً أنزله سبحانه بقدرته، فأخرج بذلك المطر أنواع الثمر والفواكه والخضار.

وقال تعالى (وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ) .

وقال تعالى (وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا).

وقال تعالى (وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ).

(**كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ**) أي: كلُوا -أيُّها النَّاسُ- مِن طَيِّبِ ما أنبَتْنا لكم من الأرضِ مِن الحُبوبِ والثِّمارِ، وارعَوا فيها إبِلَكم وبَقَرَكم وغنَمَكم .

كما قال تعالى (هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ) .

وقال سُبحانَه (أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ) .

وقال عزَّ وجلَّ (فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ * أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا * ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا * فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا * وَعِنَبًا وَقَضْبًا * وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا * وَحَدَائِقَ غُلْبًا * وَفَاكِهَةً وَأَبًّا * مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ) .

(**إِنَّ فِي ذَلِكَ**) قال أبو حيان: (وأشار بقولِه (إِنَّ فِي ذَلِكَ) للآياتِ السَّابقةِ مِن جَعلِ الأرضِ مَهدًا، وسَلْكِ سُبُلِها، وإنزالِ الماءِ، وإخراجِ النباتِ .

(**لَآيَاتٍ لِّأُوْلِي النُّهَى**) لعَلاماتٍ لأُولي العُقولِ تدُلُّهم على وحدانيَّةِ اللهِ، وقُدرتِه، ورَحمتِه، وأنَّه المستَحِقُّ للعبادةِ وَحدَه لا شريكَ له

قال البقاعي : العقول التي من شأنها أن تنهى صاحبها عن الغيّ ، ومن عمي عن ذلك فلا عقل له أصلاً لأن عقله لم ينفعه ، وما لا ينفع في حكم العدم .

وقال ابن عطية : و(النهى) جمع نهية والنهية العقل الناهي عن القبائح .

الفوائد :

١. انكار فرعون للرب تعالى .

٢. من أعظم الآيات الدالة على ربنا تعالى أنه خلق كل شيء وهداه لما يصلحه .

٣. محاولة فرعون الهرب من كلام موسى .

٤. أن القرون كلها عند الله محصاة معلومة .

٥. عموم علم الله تعالى لكل شيء .

٦. أن الله تعالى لا يغيب عنه شيء لكمال علمه .

٧. أن الله تعالى لا ينسى لكمال علمه .

٨. وجوب تنزيه الله عن كل نقص كالنسيان والسهو .

٩. ذكر بعض الآيات الدالة على استحقاق الله للعبودية وتمام سلطانه .

١٠. من نعم الله جعل الأرض فراشاً ممهدة للسير والذهاب والإياب .

١١. من نعم الله إنزال المطر وإخراج النباتات والزروع المختلفة الألوان والأشكال .

١٢. ليس كل أحد يتعظ ويتفكر في آيات الله .

١٣. أصحاب العقول النيرة هم الذين يتفكرون في المخلوقات العظيمة فيعظمون الله ويخضعون له .

(**مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى (٥٥)**) .

[طه : ٥٥] .

==========

(**مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى**) ذُكِرَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ ثَلَاثُ مَسَائِلَ :

الْأُولَى : أَنَّهُ خَلَقَ بَنِي آدَمَ مِنَ الْأَرْضِ .

الثَّانِيَةُ : أَنَّهُ يُعِيدُهُمْ فِيهَا .

الثَّالِثَةُ : أَنَّهُ يُخْرِجُهُمْ مِنْهَا مَرَّةً أُخْرَى . وَهَذِهِ الْمَسَائِلُ الثَّلَاثُ الْمَذْكُورَةُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ جَاءَتْ مُوَضَّحَةً فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ .

أَمَّا خَلْقُهُ إِيَّاهُمْ مِنَ الْأَرْضِ فَقَدْ ذَكَرَهُ فِي مَوَاضِعَ مِنْ كِتَابِهِ :

كَقَوْلِهِ (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ) .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى (وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ) .

وَقَوْلُهُ تعالى (هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَاب) .

وَالتَّحْقِيقُ أَنَّ مَعْنَى خَلْقِهِ النَّاسَ مِنْ تُرَابٍ أَنَّهُ خَلَقَ أَبَاهُمْ آدَمَ مِنْهَا . كَمَا قَالَ تَعَالَى (إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ) وَلَمَّا خَلَقَ أَبَاهُمْ مِنْ تُرَابٍ وَكَانُوا تَبَعًا لَهُ فِي الْخَلْقِ صَدَقَ عَلَيْهِمْ أَنَّهُمْ خُلِقُوا مِنْ تُرَابٍ .

وأما أعادتنا إلى الأرض ، فقد ذكره الله تعالى في قوله تعالى (أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا) .

فَقَوْلُهُ (كِفَاتًا) أَيْ مَوْضِعُهُمُ الَّذِي يَكْفِتُونَ فِيهِ أَيْ يُضَمُّونَ فِيهِ : أَحْيَاءً عَلَى ظَهْرِهَا ، وَأَمْوَاتًا فِي بَطْنِهَا .

وأما إِخْرَاجُهُمْ مِنَ الْأَرْضِ أَحْيَاءً يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَقَدْ جَاءَتْ مُوَضَّحَةً فِي آيَاتٍ كَثِيرَةٍ :

كَقَوْلِهِ (وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ) أَيْ مِنْ قُبُورِكُمْ أَحْيَاءً بَعْدَ الْمَوْتِ .

وَقَوْلِهِ تَعَالَى (وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ) أَيْ مِنَ الْقُبُورِ بِالْبَعْثِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ .

وَقَوْلِهِ تَعَالَى (ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ) .

وَقَوْلِهِ تَعَالَى (حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ) .

وَقَوْلِهِ تَعَالَى (يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُونَ) .

وَقَوْلِهِ تَعَالَى (يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ) .

وهذه الآية كقوله تعالى في الأعراف (قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ) يعني: قال الله عز وجل لآدم وذريته وإبليس وأولاده (فيها تحيون) يعني في الأرض تعيشون أيام حياتكم (وفيها تموتون) يعني: وفي الأرض تكون وفاتكم وموضع قبوركم (ومنها تخرجون) يعني: ومن الأرض يخرجكم ربكم ويحشركم للحساب يوم القيامة.

قال ابن كثير: كقوله تعالى (مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى) يخبر تعالى أنه يجعل الأرض دارًا لبني آدم مدة الحياة الدنيا، فيها محياهم وفيها مماتهم وقبورهم، ومنها نشورهم ليوم القيامة. الذي يجمع الله فيه الأولين والآخرين، ويجازي كلا بعمله.

قال ابن عطية: حكم من الله عز وجل أمضاه وجعله حتماً في رقاب العباد يحيون في الأرض ويموتون فيها ويبعثون منها إلى الحشر أحياء كما أنشأ أول خلق يعيده.

قال ابن عاشور : دل قوله تعالى : (وفِيهَا نُعيدُكُم) على أن دفن الأموات في الأرض هو الطريقة الشرعيّة لمواراة الموتى سواء كان شَقّاً في الأرض أو لحْداً ، لأن كليهما إعادة في الأرض ؛ فما يأتيه بعض الأمم غير المتدينة من إحراق الموتى بالنّار ، أو إغراقهم في الماء ، أو وضعهم في صناديق فوق الأرض ، فذلك مخالف لسنّة الله وفطرته.

لأنّ الفطرة اقتضت أنّ الميت يسقط على الأرض فيجب أن يوارى فيها.

وكذلك كانت أول مواراة في البشر حين قتَل أحدُ ابني آدم أخَاه.

الفوائد :

١. أنا خلقنا من تراب .

٢. أن المراد بذلك أبونا آدم .

٣. أنه ما من مخلوق إلا ويدفن في الأرض.

٤. إثبات البعث والنشور.

(وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى (٥٦) قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى (٥٧) فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لاَّ نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلا أَنتَ مَكَانًا سُوًى (٥٨) قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى (٥٩)).

[طه : ٥٦-٥٩] .

==========

(**وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا**) يعْنِي: فِرْعَوْنَ، أَنَّهُ قَامَتْ عَلَيْهِ الْحُجَجُ وَالْآيَاتُ وَالدَّلَالَاتُ وَعَايَنَ ذَلِكَ وَأَبْصَرَهُ .

قال الشوكاني والمرادُ بِالآياتِ هي الآياتُ التِّسْعُ المذْكُورَةُ في قَوْلِه (ولَقَدْ آتَيْنا مُوسى تِسْعَ آيات) عَلى أنَّ الإضافَةَ لِلْعَهْدِ. وقِيلَ: المرادُ جَمِيعُ الآياتِ الَّتِي جاءَ بِها مُوسى، والَّتِي جاءَ بِها غَيْرُهُ مِنَ الأنْبِياءِ، وأنَّ مُوسى قَدْ كانَ عَرَّفَهُ جَمِيعَ مُعْجِزاتِهِ ومُعْجِزاتِ سائِرِ الأنْبِياءِ، **والأوَّلُ أوْلى**.

وقال الشنقيطي: المرادُ بـ آتَيْنَا المعهودةِ لموسى كلِّها هي التِّسعُ المذكورةُ في قولِه تعالى (وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ) وقولِه تعالى (وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ) .

وقال بعض أهل العلم : العموم على ظاهره، وإن الله أرى فرعون جميع الآيات التي جاء بها موسى، والتي جاء بها غيره من الأنبياء، وذلك بأن عرفه موسى جميع معجزاته ومعجزات سائر الأنبياء. **والأول هو الظاهر**.

وبين جل وعلا في غير هذا الموضع : أن الآيات التي أراها فرعون وقومه بعضها أعظم من بعض :

كما قال تعالى (وَمَا نُرِيهِم مِّنْ آيَةٍ إِلاَّ هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا) .

(**فَكَذَّبَ وَأَبَى**) فَكَذَّبَ بِهَا وَأَبَاهَا كُفْرًا وَعِنَادًا وَبَغْيًا .

كَمَا قَالَ تَعَالَى (وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ) .

وقال تعالى (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ * وَمَا نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ * وَقَالُوا يَا أَيُّهَا السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ * فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ) .

وقال سُبحانَه (وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ * كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ) .

قال الشوكاني : قوله (فَكَذَّبَ وأبى) أي كذب فرعون موسى وأبى عليه أن يجيبه إلى الإيمان ، وهذا يدل على أن كفر فرعون كفر عناد ؛ لأنه رأى الآيات وكذب بها كما في قوله (وَجَحَدُواْ بِهَا واستيقنتها أَنفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً) .

قال الشنقيطي : وقد أوضح جل وعلا في غير هذا الموضع شدة إبائه وعناده وتكبره على موسى في مواضع كثيرة من كتابه.

كقوله (وَقَالُواْ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِن آيَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ) .

وقوله تعالى (فَلَمَّا جَآءَهُم بِآيَاتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ) .

وقوله (قَالَ لَئِنِ اتخذت إلها غَيْرِي لأَجْعَلَنَّكَ مِنَ المسجونين) .

وقوله تعالى (ونادى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يا قوم أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وهذه الأنهار تَجْرِي مِن تحتيا أَفَلاَ تُبْصِرُونَ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هذا الذي هُوَ مَهِينٌ وَلاَ يَكَادُ يُبِينُ فَلَوْلاَ أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ الملائكة مُقْتَرِنِينَ) .

(**قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى**) يقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ فِرْعَوْنَ أَنَّهُ قَالَ لِمُوسَى حِينَ أَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَى، وَهِيَ إِلْقَاءُ عَصَاهُ فَصَارَتْ ثُعْبَانًا عَظِيمًا وَنَزَعَ يَدَهُ مِنْ تَحْتِ جَنَاحِهِ فَخَرَجَتْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فَقَالَ: هَذَا سِحْرٌ، جِئْتَ بِهِ لِتَسْحَرَنَا وَتَسْتَوْلِيَ بِهِ عَلَى النَّاسِ، فَيَتَّبِعُونَكَ وَتُكَاثِرُنَا بِهِمْ، وَلَا يَتِمُّ هَذَا مَعَكَ، فَإِنَّ عِنْدَنَا سِحْرًا مِثْلَ سِحْرِكَ، فَلَا يَغُرَّنَّكَ مَا أَنْتَ فِيهِ .

وهذه الدعوى من فرعون ذكرها الله في مواضع :

كقوله (فَلَمَّا جَآءَهُمُ الحق مِنْ عِندِنَا قالوا إِنَّ هذا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ) .

وقوله (إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الذي عَلَّمَكُمُ السحر) .

قال الشوكاني : وإنما ذكر الملعون الإخراج من الأرض ؛ لتنفير قومه عن إجابة موسى ، فإنه إذا وقع في أذهانهم وتقرّر في أفهامهم أن عاقبة إجابتهم لموسى الخروج من ديارهم وأوطانهم كانوا غير قابلين لكلامه ولا ناظرين في معجزاته ولا ملتفتين إلى ما يدعو إليه من الخير.

(**فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِ**) أي : لكنَّ مرادَكَ هذا لن يتحَقَّقَ يا موسى؛ فلَنُعارِضَنَّك بسِحرٍ مِثلِ سِحرِك، بواسِطةِ سَحَرَتِنا الذين نُحضِرُهم إلينا .

وقد بين تعالى في غير هذا الموضع : أن إتيانهم بالسحر وجمعهم السحرة كان عن اتفاق ملئهم على ذلك.

كقوله (قَالَ الملأ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هذا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُمْ مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ قالوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي المدآئن حَاشِرِينَ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ) .

وقوله تعالى (قَالَ لِلْمَلإِ حَوْلَهُ إِنَّ هذا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُمْ مِّنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ قالوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وابعث فِي المدآئن حَاشِرِينَ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ) .

(**فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لاَّ نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلا أَنتَ**) أي: فحدِّدْ بيننا وبينك وَقتًا معيَّنًا ومَكانًا محدَّدًا نجتَمِعُ فيه، فننظُرُ أيُّنا يغلِبُ الآخَرَ، ولا نَقعُدُ نحن ولا أنت عن إتيانِ ذلك الموعِدِ .

(**مَكَانًا سُوًى**) **أي** : في مكانٍ وسَطَ البلدِ؛ ليتمكَّنَ جميعُ النَّاسِ من الحضور .

قال ابن الجوزي : والمعْنى: مَكانًا تَسْتَوِي مَسافَتُهُ عَلى الفَرِيقَيْنِ، فَتَكُونُ مَسافَةُ كُلِّ فَرِيقٍ إِلَيْهِ كَمَسافَةِ الفَرِيقِ الآخَرِ .

وقال أبو السعود : ومعنى سُوى مُنتصَفاً تستوي مسافته إلينا وإليك .

وقال في التسهيل : معناه : مستو في القرب منا ومنكم ، وقيل : معناه مستوي الأرض ليس فيه انخفاض ولا ارتفاع ، وقرئ بكسر السين وضمها .

و**قال الشنقيطي**: أصح الأقوالِ في قولِه: سُوًى على قراءةِ الكسرِ والضمِّ: أنَّه مكانٌ وسَطٌ تستوي أطرافُ البلدِ فيه؛ لتوسُّطِها بينها، فلم يكنْ أقرَبَ للشَّرقِ مِن الغَربِ، ولا للجنوبِ مِن الشَّمالِ، وهذا هو معنى قولِ المفسِّرينَ: مَكَانًا سُوًى أي: نصَفًا وعَدلًا؛ ليتمَكَّنَ جميعُ النَّاسِ أن يحضُروا .

وقال الآلوسي : (مَكَاناً سُوًى) أي منصفاً بيننا وبينك كما روي عن مجاهد وقتادة أي محلاً واقعاً على نصف المسافة بيننا سواء بسواء .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن زيد أنه قال : أي مكاناً مستوياً من الأرض لا وعر فيه ولا جبل ولا أكمة ولا مطمئن بحيث يستر الحاضرين فيه بعضهم عن بعض ومراده مكاناً يتبين الواقفون فيه ولا يكون فيه ما يستر أحداً منهم ليرى كل ما يصدر منك ومن السحرة.

وفيه من إظهار الجلادة وقوة الوثوق بالغلبة ما فيه ، وهذا المعنى عندي حسن جداً وإليه ذهب جماعة .

(**قَالَ**) لهم موسى .

(**مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ**) هُوَ يَوْمُ عِيدِهِمْ ونَوروزُهم وَتَفَرُّغِهِمْ مِنْ أَعْمَالِهِمْ وَاجْتِمَاعِهِمْ جَمِيعِهِمْ؛ لِيُشَاهِدَ النَّاسُ قُدْرَةَ اللَّهِ عَلَى مَا يَشَاءُ، وَمُعْجِزَاتِ الْأَنْبِيَاءِ، وَبُطْلَانَ مُعَارَضَةِ السِّحْرِ لِخَوَارِقِ الْعَادَاتِ النَّبَوِيَّةِ . (**ابن كثير**) .

قال في التسهيل : وقصد موسى أن يكون موعدكم عند اجتماع الناس على رؤوس الأشهاد لتظهر معجزته ويستبين الحق للناس.

قال الشنقيطي : وأقوال أهل العلم في يوم الزينة راجعة إلى أنه يوم معروف لهم ، يجتمعون فيه ويتنزينون. سواء قلنا : إنه يوم عيد لهم ، أو يوم عاشوراء ، أو يوم النيروز ، أو يوم كانوا يتخذون فيه سوقاً ويتزينون فيه بأنواع الزينة.

(**وَأَن يُحْشَرَ النَّاسُ**) جميعهم .

(**ضُحًى**) أيْ: ضَحْوَةً مِنَ النَّهَارِ لِيَكُونَ أَظْهَرَ وَأَجْلَى وَأَبْيَنَ وَأَوْضَحَ، وَهَكَذَا شَأْنُ الْأَنْبِيَاءِ، كُلُّ أَمْرِهِمْ وَاضِحٌ، بَيِّنٌ، لَيْسَ فِيهِ خَفَاءٌ وَلَا تَرْوِيجٌ؛ وَلِهَذَا لَمْ يَقُلْ "لَيْلًا" وَلَكِنْ نَهَارًا ضُحًى. (ابن كثير)

قال البقاعي : (ضحى) يستقبل النهار من أوله ، فيكون أظهر لما يعمل وأجلى ، ولا يأتي الليل إلا وقد قضي الأمر ، وعرف المحق من المبطل ، وأنتم أجمع ما تكونون وأفرغ ، فيكل حد المبطلين وأشياعهم ، والمتكبرين على الحق وأتباعهم ، ويكثر المحدث بذلك الأمر العلم في كل بدو وحضر ، ويشيع في جميع أهل الوبر والمدر .

وقال الرازي : وإنما أوعدهم ذلك اليوم ليكون علو كلمة الله تعالى وظهور دينه وكبت الكافر وزهوق الباطل على رؤوس الأشهاد في المجمع العام ليكثر المحدث بذلك الأمر العجيب في كل بدو وحضر ويشيع في جميع أهل الوبر والمدر .

وقال ابن الجوزي : قال المفسرون : أراد بالناس : أهلَ مصر ، وبالضحى : ضحى اليوم ، وإنما علَّقه بالضحى ، ليتكامل ضوء الشمس واجتماع الناس ، فيكون أبلغَ في الحجة وأبعدَ من الريبة.

وقال ابنُ عاشور : فقوله: يَوْمُ الزِّينَةِ تعيينٌ للوَقتِ، وقوله: وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ تعيينٌ للمكانِ، وقوله: ضُحًى تقييدٌ لمطلقِ الوَقتِ. والضُّحى: وقتُ ابتداء حرارة الشَّمسِ بعد طلوعِها .

الفوائد :

١. إثبات نبوة موسى وهارون .
٢. أن كل نبي يأتي بآية تدل على صدقه ونبوته .
٣. طغيان فرعون .

٤. أن فرعون كذب مع يقينه بأن ما جاء به موسى حق .

٥. تسلية لكل داعية يتهم بأنه ساحر أو مجنون .

٦. هكذا أعداء الأنبياء يتهمونهم بالسحر والكهنة والجنون .

٧. أن آيات الله واضحة جلية ولذلك اختار موسى يوم الزينة والعيد عندهم .

٨. ثقة موسى وقوة يقينه بالله تعالى حيث سيقف أمام فرعون ومن معه أمام جميع الناس .

٩. صدق الأنبياء .

(فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى (٦٠) قَالَ لَهُم مُّوسَى وَيْلَكُمْ لا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَى (٦١) فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى (٦٢) قَالُوا إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى (٦٣) فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى (٦٤)) .

[طه : ٦٠-٦٤] .

==========

(فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ) قال بعض العلماء : معناه فتولى فرعون ، انصرف مدبراً من ذلك المقام ليهيئ ما يحتاج إليه مما تواعد عليه هو وموسى.

ويدل لهذا الوجه قوله تعالى في سورة «النازعات» في القصة بعينها (ثُمَّ أَدْبَرَ يسعى فَحَشَرَ فنادى) وقوله (فَحَشَرَ) أي جمع السحرة.

وقال بعض العلماء : معنى قوله (فتولى فِرْعَوْنُ) أي أعرض عن الحق الذي جاء به موسى.

ومن معنى هذا الوجه قوله تعالى (إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَآ أَنَّ العذاب على مَن كَذَّبَ وتولى) .

وقال ابن عاشور : (وتولّى) التولي الانصراف ، وهو هنا مستعمل في حقيقته ، أي انصرف عن ذلك المجلس إلى حيثُ يُرسل الرسل إلى المدائن لجمع من عُرفوا بعلم السحر ، وهذا كقوله تعالى في سورة النازعات (ثم أدبر يسعى فحشر فنادى) .

(فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى) قال ابن عاشور : ومعنى جمع الكيد : تدبير أسلوب مناظرة موسى ، وإعداد الحيل لإظهار غلبة السحرة عليه ، وإقناع الحاضرين بأنّ موسى ليس على شيء

(قَالَ لَهُم مُّوسَى وَيْلَكُمْ لا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ) أي: قال موسى للسَّحَرةِ : ويلَكم! لا تختَلِقوا كَذبًا على اللهِ ؛ فيَستأصِلَكم بهلاكٍ وعذابٍ مِن عِندِه .

أي : لا تفتروا على الله تعالى كذبا، بأن تقفوا في وجهى، وتزعموا أن معجزاتي هي نوع من السحر. فإنكم لو فعلتم ذلك أهلككم الله تعالى وأبادكم بعذاب عظيم من عنده.

قال القاسمى : (قَالَ لَهُمْ مُوسَى) أي : مقدماً لهم النصح والإنذار ، لينقطع عذرهم .

قال ابن جرير : (فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ) فيستأصلكم بهلاك .

قال الرازي : ثم بين تعالى أن موسى عليه السلام قدم قبل كل شيء الوعيد والتحذير مما قالوه وأقدموا عليه فقال : (وَيْلَكُمْ لاَ تَفْتَرُواْ عَلَى الله كَذِباً) بأن تزعموا بأن الذي جئت به ليس بحق وأنه سحر فيمكنكم معارضتي .

قال أبو حيان : وفيه دلالة على عظم الافتراء وأنه يترتب عليه هلاك الاستئصال .

(**وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَى**) أي : وقد خاب وخسر كل من قال على الله تعالى قولاً باطلاً لا حقيقة له، وفرعون أول المبطلين المفترين الخاسرين، فاحذروا أن تسيروا في ركابه، أو أن تطيعوا له أمراً.

قال الرازي : فكأنه تعالى قال : من افترى على الله كذباً حصل له أمران :

أحدهما : عذاب الاستئصال في الدنيا أو العذاب الشديد في الآخرة وهو المراد من قوله (فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ) .

والثاني : الخيبة والحرمان عن المقصود وهو المراد بقوله (وَقَدْ خَابَ مَنِ افترى) .

(**فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ**) أي: فلمَّا سَمِعَ السَّحَرةُ كلامَ موسى اختَلَفوا، وتجاذَبوا الحديثَ سِرًّا فيما بينَهم، وبالَغوا في إخفائِه مِن فِرعَونَ .

وممن اختار أنَّ التنازُعَ وقَع بينَ السحرةِ: ابنُ جريرٍ، والزجَّاجُ، والواحدي، والسمرقندي، وابنُ عطية، وابنُ الجوزي، والقرطبي، والشوكاني.

(**وَأَسَرُّوا النَّجْوَى**) أي : تناجوا فيما بينهم .

قال القرطبي: (وَأَسَرُّوا النَّجْوَى) .

قال قتادةُ: قالوا: إن كان ما جاء به سحرًا فسنغلبُه، وإن كان مِن عندِ الله فسيكون له أمرٌ، وهذا الذي أسرُّوه.

وقيل: الذي أسرُّوا قولُهم (إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ) الآيات، قاله السديُّ ومقاتلٌ.

وقيل: الذي أسرُّوا قولُهم: إن غلَبَنا اتَّبعْناه، قاله الكلبيُّ، دليلُه ما ظهر مِن عاقبةِ أمرِهم.

وقيل: كان سرُّهم أن قالوا حين قال لهم موسَى: وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا : ما هذا بقولِ ساحرٍ .

وقال ابن عطية : فلما سمع السحرة هذه المقالة هالهم هذا المنزع ووقع في نفوسهم من مهابته أمر شديد (فتنازعوا) والتنازع يقتضي اختلافاً كان بينهم في السر أي قال بعضهم لبعض هو محق، وقال بعضهم هو مبطل، وقال بعضهم إن كان من عند الله فسيغلبنا ونحو هذا من الأقوال التي تعهد من الجموع الكثيرة في وقت الخوف كالحرب ونحو هذا ، ومعلوم أن جميع تناجيهم إنما كان في أمر موسى. وقالت فرقة إنما كان تناجيهم بالآية التي بعد هذا (إن هذان لساحران) والأظهر أن تلك قيلت علانية ولو كان تناجيهم ذلك لم يكن ثم تنازع .

(**قَالُوا إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا**) أي: قالوا بعد التناظر والتشاور: ما هذان الا ساحران، يريدان الاستيلاء على ارض مصر، واخراجكم منها بهذا السحر .

قال ابن كثير : وَالْغَرَضُ أَنَّ السَّحَرَةَ قَالُوا فِيمَا بَيْنَهُمْ: تَعْلَمُونَ أَنَّ هَذَا الرَّجُلَ وَأَخَاهُ -يَعْنُونَ مُوسَى وَهَارُونَ- سَاحِرَانِ عَالِمَانِ، خَبِيرَانِ بِصِنَاعَةِ السِّحْرِ، يُرِيدَانِ فِي هَذَا الْيَوْمِ أَنْ يَغْلِبَاكُمْ وَقَوْمَكُمْ وَيَسْتَوْلِيَا عَلَى النَّاسِ، وَتَتْبَعَهُمَا الْعَامَّةُ، وَيُقَاتِلَا فِرْعَوْنَ وَجُنُودَهُ، فَيَنْتَصِرَا عَلَيْهِ، وَيُخْرِجَاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ.

(**وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى**) أَيْ : وَيَسْتَبِدَّا بِهَذِهِ الطَّرِيقَةِ وَهِيَ السِّحْرُ، فَإِنَّهُمْ كَانُوا مُعَظَّمِينَ بِسَبَبِهَا لَهُمْ أَمْوَالٌ وَأَرْزَاقٌ عَلَيْهَا، يَقُولُونَ: إِذَا غَلَبَ هَذَانَ أَهْلَكَاكُمْ وَأَخْرَجَاكُمْ مِنَ الْأَرْضِ، وَتَفَرَّدَا بِذَلِكَ وَتَمَحَّضَتْ لَهُمَا الرِّيَاسَةُ بِهَا دُونَكُمْ .

قال البقاعي (ويذهبا بطريقتكم) هذه السحرية التي تعبتم في تمهيدها، وأفنى فيها أسلافكم أعمارهم، حتى بلغ أمرها الغاية، وبدينكم الذي به قوامكم (المثلى) أي التي هي أمثل الطرق، فيكونا آثر بما يظهرانه منها عند الناس منكم، ويصرفان وجوه الناس إليها عنكم، ويبطل ما لكم بذلك من الارزاق والعظمة عند الخاص والعام وغير ذلك من الأغراض .

قال الرازي : أنه سبحانه وتعالى لما ذكر ما أسروه من النجوى حكى عنهم ما أظهروه ومجموعه يدل على التنفير عن موسى عليه السلام ومتابعة دينه.

فأحدها : قولهم : (هذان لساحران) وهذا طعن منهم في معجزات موسى عليه السلام ثم مبالغة في التنفير عنه لما أن كل طبع سليم يقتضي النفرة عن السحر وكراهة رؤية الساحر، ومن حيث إن الإنسان يعلم أن السحر لا بقاء له فإذا اعتقدوا فيه السحر قالوا: كيف نتبعه فإنه لا بقاء له ولا لدينه ولا لمذهبه.

وثانيها : قوله (يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُمْ مِّنْ أَرْضِكُمْ) وهذا في نهاية التنفير لأن المفارقة عن المنشأ ، والمولد شديدة على القلوب ، وهذا هو الذي حكاه الله تعالى عن فرعون في قوله (أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ ياموسى) وكأن السحرة تلقفوا هذه الشبهة من فرعون ثم أعادوها.

وثالثها : قوله (وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ المثلى) وهذا أيضاً له تأثير شديد في القلب فإن العدو إذا جاء واستولى على جميع المناصب والأشياء التي يرغب فيها فذلك يكون في نهاية المشقة على النفس فهم ذكروا هذه الوجوه للمبالغة في التنفير عن موسى والترغيب في دفعه وإبطال أمره .

(**فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا**) أَيِ : اجْتَمِعُوا كُلُّكُمْ صَفًّا وَاحِدًا، وَأَلْقُوا مَا فِي أَيْدِيكُمْ مَرَّةً وَاحِدَةً لِتَبْهَرُوا الْأَبْصَارَ، وَتَغْلِبُوا هَذَا وَأَخَاهُ .

قال أبو حيان: قيل: هو مِن كلامِ فرعونَ، والظاهرُ أنَّه مِن كلامِ السحرةِ بعضِهم لبعضٍ .

قال ابن الجوزي : (ثم ائتُوا صَفًّا) أي : مُصْطَفِّين مجتمعين ، ليكون أنظم لأموركم ، وأشدَّ لهيبتكم.

وقال الشوكاني : (ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا) أَيْ : مُصْطَفِّينَ مُجْتَمِعِينَ لِيَكُونَ أَنْظَمَ لِأُمُورِهِمْ وأَشَدَّ لِهَيْبَتِهِمْ، وهَذا قَوْلُ جُمْهُورِ المُفَسِّرِينَ.

(**وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى**) أَيْ : مِنَّا وَمِنْهُ، أَمَّا نَحْنُ فَقَدَ وَعَدَنَا هَذَا الْمَلِكُ الْعَطَاءَ الْجَزِيلَ، وَأَمَّا هو فينال الرياسة العظيمة.

قال المفسرون : أرادوا بالفلاح ما وعدهم به فرعون ، من الإنعامات العظيمة والهدايا الجزيلة ، مع التقريب لهم والتكريم ، كما قال تعالى : (قالوا أئن لنا لأجرا إن كنا نحن الغالبين ؟ قال نعم وإنكم إذا لمن المقربين) .

الفوائد :

١. سنة الله في العداوة بين الحق والباطل .
٢. طغيان فرعون حيث جمع كل ما يقدر من أجل إبطال الحق .
٣. مشروعية تذكير العاصي لعله يتعظ .
٤. تهديد كل كافر مكذب لله .
٥. خطر الافتراء والكذب على الله

(قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى (٦٥) قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى (٦٦) فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَى (٦٧) قُلْنَا لا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الأَعْلَى (٦٨) وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى (٦٩) فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى (٧٠) قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلافٍ وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى (٧١) قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٧٢) إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى (٧٣)) .

[طه : ٦٥-٧٣] .

==========

ذكر الله تعالى في سورة الأعراف (وَجَاء السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ. قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ) يخبر تعالى عما تشارط عليه فرعون والسحرة الذين استدعاهم لمعارضة موسى عليه السلام: إن غلبوا موسى ليثيبنهم وليعطينهم عطاءً جزيلاً. فوعدهم ومناهم أن يعطيهم ما أرادوا، ويجعلنهم من جلسائه والمقربين عنده، فلما توثقوا من فرعون لعنه الله.

(قَالُوا) أي : السحرة .

(يَا مُوسَى إِمَّا أَن تُلْقِيَ) أنت أولاً .

(وَإِمَّا أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى) قبلك .

هذه مبارزة من السحرة لموسى عليه السلام كما في الآية الأخرى (إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ) .

قال السعدي: خيَّروه موهمينَ أنَّهم على جَزمٍ مِن ظُهورِهم عليه بأيِّ حالةٍ كانت .

(قَالَ) موسى لهم .

(بَلْ أَلْقُوا) أنتم .

قال ابن كثير: والحكمة في هذا -والله أعلم- ليري الناس صنيعهم ويتأملوه، فإذا فُرغ من بهرجهم ومحالهم، جاءهم الحق الواضح الجلي بعد تطلب له والانتظار منهم لمجيئه، فيكون أوقع في النفوس. وكذا كان. ولهذا قال تعالى (فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ) أي: خيلوا إلى الأبصار أن ما فعلوه له حقيقة في الخارج، ولم يكن إلا مجرد صنعة وخيال، كما قال تعالى (فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى * فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى. قُلْنَا لا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الأَعْلَى. وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى).

وقال أبو السعود : قال (بَلْ أَلْقُواْ) أنتم أولاً مقابلةً للأدب بأحسنَ مِنْ أدبهم حيث بتّ القولَ بإلقائهم أولاً ، وإظهاراً لعدم المبالاةِ بسحرهم ومساعدةً لما أوهموا من الميل إلى البدء وليبْرِزوا ما معهم ويستفرغوا أقصى جُهدِهم ويستنفدوا قُصارى وُسعِهم ، ثم يظهر الله عز وجل سلطانَه فيقذف بالحق على الباطل فيدمغه لما علم أن ما سيظهر بيده سيلقَف ما يصنعون من مكايد السحر.

وقال الشوكاني : أمرهم بالإلقاء أوّلاً ؛ لتكون معجزته أظهر إذا ألقوا هم ما معهم ثم يلقي هو عصاه فتبتلع ذلك ، وإظهاراً لعدم المبالاة بسحرهم

وقال القاسمي: وإنما سوغ لهم التقدم ازدراءاً لشأنهم، وقلة مبالاة بهم، وثقةً بما كان بصدده من التأييد الإلهي، وأن المعجزة لن يغلبها سحر أبداً.

(**فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى**) أي: فألقَى السَّحرةُ ما معهم فإذا حبالُهم وعِصِيُّهم يُشَبَّهُ لموسى بسَبَبِ سِحرِهم أنَّها تتحرَّكُ .

وفِي الْآيَةِ الْأُخْرَى أَنَّهُمْ لَمَّا أَلْقَوْا (وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُون) وَقَالَ تَعَالَى (سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ) .

قال ابن كثير : وَذَلِكَ أَنَّهُمْ أَوْدَعُوهَا مِنَ الزِّئْبَقِ مَا كَانَتْ تَتَحَرَّكُ بِسَبَبِهِ وَتَضْطَرِبُ وَتَمِيدُ، بِحَيْثُ يُخَيَّلُ لِلنَّاظِرِ أَنَّهَا تَسْعَى بِاخْتِيَارِهَا، وَإِنَّمَا كَانَتْ حِيلَةً، وَكَانُوا جَمًّا غَفِيرًا وَجَمْعًا كَبِيرًا فَأَلْقَى كُلٌّ مِنْهُمْ عَصًا وَحَبْلًا حَتَّى صَارَ الْوَادِي مَلْآنَ حَيَّاتٍ يَرْكَبُ بَعْضُهَا بَعْضًا .

قال ابن عطية : والظاهر من الآيات والقصص في كتب المفسرين أن الحبال والعصي كانت تنتقل بحبل السحر وبدس الأجسام الثقيلة المياعة فيها وكان تحركها يشبه تحرك الذي له إرادة كالحيوان، وهو السعي فإنه لا يوصف بالسعي إلا من يمشي من الحيوان، وذهب قوم إلى أنها ما لم تكن تتحرك لكنهم سحروا أعين الناس وكان الناظر يخيل إليه أنها تتحرك وتنتقل ع وهذا يحتمل والله أعلم أي ذلك كان .

(**فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَى**) أوجس : أضمر واستشعر. (وخِيفَةً) اسم هيئة من الخوف، وزيادة (فِي نَفْسِهِ) هنا للإشارة إلى أنها خيفةُ تفكُّر لم يظهر أثرها على ملامحه.

قال ابنُ الجوزي: في خَوفِه قَولانِ:

أحدُهما: أنَّه خوفُ الطَّبعِ البَشَريِّ.

والثاني: أنَّه لَمَّا رأى سِحْرَهم مِن جِنسِ ما أراهم في العصا، خاف أن يلتَبِسَ على النَّاسِ أمرُه ولا يؤمِنوا، فقيل له: لا تَخَفْ؛ إنَّك أنت الأعلى عليهم بالظَّفَرِ والغَلَبةِ، وهذا أصحُّ مِنَ الأوَّلِ .

وقال ابن كثير : أَيْ خَافَ عَلَى النَّاسِ أَنْ يَفْتَتِنوا بِسِحْرِهِمْ وَيَغْتَرُّوا بِهِمْ قَبْلَ أَنْ يُلْقِيَ مَا فِي يَمِينِه .

وقال ابن عاشور : وإنما خاف موسى مِن أن يَظهرَ أمرُ السَّحرةِ فيُساويَ ما يَظهَرُ على يديه مِن انقلابِ عصاه ثُعبانًا؛ لأنَّه يكونُ قد ساواهم في عملِهم، ويكونون قد فاقوه بالكثرةِ، أو خشِيَ أن يكونَ اللهُ أراد استدراجَ السَّحَرةِ مُدَّةً، فيُمليَ لهم بظُهورِ غَلَبِهم عليه ومَدِّه لِما تكونُ له العاقِبةُ، فخَشِيَ ذلك .

وقال : (الأعلى) دليل على أن ما خامره من الخوف إنّما هو خوف ظهور السحرة عند العامة ولو في وقت ما.

وهو وإن كان موقناً بأن الله ينجز له ما أرسله لأجله لكنه لا مانع من أن يستدرج الله الكفرة مدّة قليلة لإظهار ثبات إيمان المؤمنين، كما قال لرسوله ﷺ (لا يَغُرنك تقلُّب الذين كفروا في البلاد متاع قليل) .

(**قُلْنَا لا تَخَفْ**) تثبيتاً لنفسه ، وإزالة لخوفه.

(**إِنَّكَ أَنتَ الأَعْلَى**) أي الغالب لمن ناوأك في هذا المقام .

(**وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا**) وفي سورة الأعراف (وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ) يخبر تعالى أنه أوحى إلى عبده ورسوله موسى عليه السلام في ذلك الموقف العظيم، الذي فرق الله تعالى فيه بين الحق والباطل، يأمره بأن يلقي ما في يمينه وهي عصاه (فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ) أي: تأكل (مَا يَأْفِكُونَ) أي: ما يلقونه ويوهمون أنه حق، وهو باطل.

قال الآلوسي: قوله تعالى (فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ) أي: فألقاها فصارت حية فإذا هي الخ، وإنما حذف للإيذان بمسارعة موسى عليه السلام إلى الإلقاء وبغاية سرعة الانقلاب كأن لقفها لما يأفكون قد حصل متصلاً بالأمر بالإلقاء.

وفي سورة الأعراف (فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) أي: ظهر الحق وبان، وبطل ما كانوا يعملون من السحر. (فَغُلِبُوا هُنَالِكَ) أي: في ذلك المقام.(وَانقَلَبُوا صَاغِرِينَ) أي: حقيرين قد اضمحل باطلهم، وتلاشى سحرهم، ولم يحصل لهم المقصود الذي ظنوا حصوله.

(**إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ**) أي: إنَّ الذي صَنَعه هؤلاء السَّحرةُ حِيلةٌ من ساحِرٍ .

(**وَلا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى**) أي : ولا يظفَرُ السَّاحِرُ بمَطلوبِه أينما تَوجَّه، لا في الدُّنيا ولا في الآخرةِ؛ فكَيدُه ليس بمُثمِرٍ له ولا ناجِح .

قال ابن عاشور : وتعميم (حَيْثُ أتى) لعموم الأمكنة التي يحضرها ، أي بسحره.

(**فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى**) فعرفت السحرة أن هذا أمر من السماء، وليس هذا بسحر، فخروا سجداً وقالوا (آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى) .

(آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ. رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ).

قال بعض العلماء : سبحان الله ما أعجب أمرهم قد ألقوا حبالهم وعصيهم للكفر والجحود ، ثم ألقوا رؤوسهم بعد ساعة للشكر والسجود فما أعظم الفرق بين الإلقائين.

قال أبو حيان : وجاء التركيب (فألقي السحرة) ولم يأت فسجدوا كأنه جاءهم أمر وأزعجهم وأخذهم فصنع بهم ذلك ، وهو عبارة عن سرعة ما تأثروا لذلك الخارق العظيم فلم يتمالكوا أن وقعوا ساجدين.

قوله تعالى (قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى) الظاهر أن قائل ذلك جميع السحرة، وقيل: بل قاله رؤساؤهم.

قال ابن عاشور : وإنما آمنوا بالله حينئذ لأنّهم أيقنوا أن ما جرى على يد موسى ليس من جنس السحر لأنّهم أئمّة السحر فعلموا أنّه آية من عند الله.

وقال الشنقيطي: (فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا) يَدُلُّ عَلَى قُوَّةِ الْبُرْهَانِ الَّذِي عَايَنُوهُ. كَأَنَّهُمْ أَمْسَكَهُمْ إِنْسَانٌ وَأَلْقَاهُمْ سَاجِدِينَ بِالْقُوَّةِ لِعِظَمِ الْمُعْجِزَةِ الَّتِي عَايَنُوهَا. وَذَكَرَ فِي قِصَّتِهِمْ أَنَّهُمْ عَايَنُوا مَنَازِلَهُمْ فِي الْجَنَّةِ فِي سُجُودِهِمْ. وَالظَّاهِرُ أَنَّ ذَلِكَ مِنْ نَوْعِ الْإِسْرَائِيلِيَّاتِ.

وتعبيرهم عن الرب بطريق الإضافة إلى هارون وموسى لأن الله لم يكن يعرف بينهم يومئذ إلا بهذه النسبة لأن لهم أرباباً يعبدونها ويعبدها فرعون.

وقال السعدي: وأعظم من تبين له الحق العظيم أهل الصنف والسحر، الذين يعرفون من أنواع السحر وجزئياته، ما لا يعرفه غيرهم، فعرفوا أن هذه آية عظيمة من آيات الله لا يدان لأحد بها.

قال ابن عاشور: والإلقاء: مستعمل في سرعة الهُوِي إلى الأرض، أي: لم يتمالكوا أن سجدوا بدون تريث ولا تردد.

أَطْلَقَ عَلَيْهِمُ اسْمَ السَّحَرَةِ فِي حَالِ سُجُودِهِمْ لِلَّهِ مُؤْمِنِينَ بِهِ نَظَرًا إِلَى حَالِهِمُ الْمَاضِيَةِ. كَقَوْلِهِ (وَآتُوا الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ) فَأَطْلَقَ عَلَيْهِمُ اسْمَ الْيُتْمِ بَعْدَ الْبُلُوغِ نَظَرًا إِلَى الْحَالِ الْمَاضِيَةِ كَمَا هُوَ مَعْرُوفٌ فِي مَحَلِّهِ.

وقال الشنقيطي: وَاعْلَمْ أَنَّ عِلْمَ السِّحْرِ مَعَ خِسَّتِهِ، وَأَنَّ اللَّهَ صَرَّحَ بِأَنَّهُ لَا يَضُرُّ، وَلَا يَنْفَعُ، قَدْ كَانَ سَبَبًا لِإِيمَانِ سَحَرَةِ فِرْعَوْنَ. لِأَنَّهُمْ لِمَعْرِفَتِهِمْ بِالسِّحْرِ عَرَفُوا مُعْجِزَةَ الْعَصَا خَارِجَةً عَنْ طَوْرِ السِّحْرِ، وَأَنَّهَا أَمْرٌ إِلَهِيٌّ فَلَمْ يُدَاخِلْهُمْ شَكٌّ فِي ذَلِكَ. فَكَانَ ذَلِكَ

سَبَبًا لِإِيمَانِهِمُ الرَّاسِخِ الَّذِي لَا يُزَعْزِعُهُ الْوَعِيدُ، وَالتَّهْدِيدُ. وَلَوْ كَانُوا غَيْرَ عَالِمِينَ بِالسِّحْرِ جِدًّا، لَأَمْكَنَ أَنْ يَظُنُّوا أَنَّ مَسْأَلَةَ الْعَصَا مِنْ جِنْسِ الشَّعْوَذَةِ. وَالْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى.

قال هنا (بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى) وفي سورة الأعراف قال (رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ) .

قيل: قدم هارون هنا على موسى لمراعاة فواصل الآيات.

وقيل: إن بعضهم قالوا كذا، وبعضهم قال كذا، لأنهم كثير، وكل قال قولاً يظهر أنه مؤمن برب موسى وهارون، لكن كل بمعرفته، والله أعلم.

(**قَالَ**) فرعون .

(**آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ**) كان الخبيث حاكما مستبدا على الأبدان والأقوال، قد تقرر عنده وعندهم أن قوله هو المطاع، وأمره نافذ فيهم، ولا خروج لأحد عن قوله وحكمه، وبهذه الحالة تنحط الأمم وتضعف عقولها ونفوذها، وتعجز عن المدافعة عن حقوقها، ولهذا قال الله عنه (فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ) وقال هنا (آمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ) أي: فهذا سوء أدب منكم وتجرؤ عَليَّ.

(**إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ**) وفي سورة الأعراف (إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ) يعني: صنعاً صنعتموه فيما بينكم وبين موسى في المدينة.

– قال ان كثير: أي: إن غَلَبَه لكم في يومكم هذا إنما كان عن تشاور منكم ورضا منكم لذلك، كقوله في الآية الأخرى (إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ).

قال ابن كثير: وهو يعلم وكلّ من له لب، أن هذا الذي قاله من أبطل الباطل؛ فإن موسى عليه السلام بمجرد ما جاء من "مَدْين" دعا فرعون إلى الله، وأظهر المعجزات الباهرة والحجج القاطعة على صدق ما جاء به، فعند ذلك أرسل فرعون في مدائن ملكه ومعاملة سلطنته، فجمع سحرة متفرقين من سائر الأقاليم ببلاد مصر، ممن اختار هو والملأ من قومه، وأحضرهم عنده ووعدهم بالعطاء الجزيل، وقد كانوا من أحرص الناس على ذلك، وعلى الظهور في مقامهم ذلك والتقدم عند فرعون، وموسى عليه السلام لا يعرف أحداً منهم ولا رآه ولا اجتمع به، وفرعون يعلم ذلك، وإنما قال هذا تستراً وتدليساً على رعاع دولته وجَهَلتهم، كما قال تعالى (فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ) فإن قوما صدّقوه في قوله (أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى) من أجْهَل خلق الله وأضلهم.

وقال الشوكاني : أراد فرعون بهذا القول أن يدخل الشبهة على الناس حتى لا يؤمنوا ، وإلا فقد علم أنهم لم يتعلموا من موسى ، ولا كان رئيساً لهم ، ولا بينه وبينهم مواصلة .

وقال السعدي: وهذا كذب يعلم هو ومن سبر الأحوال، أن موسى عليه السلام لم يجتمع بأحد منهم، وأنهم جمعوا على نظر فرعون ورسله، وأن ما جاء به موسى آية إلهية، وأن السحرة قد بذلوا مجهودهم في مغالبة موسى، حتى عجزوا، وتبين لهم الحق، فاتبعوه.

(**فَلأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلافٍ**) يَعْنِي الْيَدَ الْيُمْنَى، وَالرِّجْلَ الْيُسْرَى مَثَلًا. لِأَنَّهُ أَشَدُّ عَلَى الْإِنْسَانِ مِنْ قَطْعِهِمَا مِنْ جِهَةٍ وَاحِدَةٍ. لِأَنَّهُ إِنْ كَانَ قَطْعُهُمَا مِنْ جِهَةٍ وَاحِدَةٍ يَبْقَى عِنْدَهُ شِقٌّ كَامِلٌ صَحِيحٌ، بِخِلَافِ قَطْعِهِمَا مِنْ خِلَافٍ.

قال الآلوسي : (أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مّنْ خِلاَفٍ) أي اليد اليمنى والرجل اليسرى وعليه عامة المفسرين .

(**وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النخل**) أي: على الجذوع.

– الصلب: أن يقتل المرء مشدوداً على خشبة.

قال أبو حيان: قوله تعالى (لأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ ..) لما ظهرت الحجة عاد إلى عادة ملوك السوء إذا غلبوا من تعذيب من ناوأهم وإن كان محقّاً.

(**وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى**) يعني أنا، أم رب موسى أشد عذاباً وأبقى.

واقتصر على هذا القرطبي.

وَعَلَيْهِ فَفِرْعَوْنُ يَدَّعِي أَنَّ عَذَابَهُ أَشَدُّ وَأَبْقَى مِنْ عَذَابِ اللَّهِ. وَهَذَا كَقَوْلِهِ (أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى)، وَقَوْلِهِ (مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي) وَقَوْلِهِ (لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِين).

وقيل (لتعلمن أينا) يعني أنا، أم موسى أشد عذاباً وأبقى.

وعَلَى هَذَا فَهُوَ كَالتَّهَكُّمِ بِمُوسَى لِاسْتِضْعَافِهِ لَهُ، وَأَنَّهُ لَا يَقْدِرُ عَلَى أَنْ يُعَذِّبَ مَنْ لَمْ يُطِعْهُ. كَقَوْلِهِ (أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ) وَاللَّهُ جَلَّ وَعَلَا أَعْلَمُ.

قال الآلوسي (وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَاباً وأبقى) يريد من نفسه وموسى عليه السلام بقرينة تقدم ذكره في قوله تعالى : (ءامَنتُمْ لَهُ) بناءً على الظاهر فيه ، واختار ذلك الطبري.

وقال أبو السعود : (وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا) يريد به نفسه وموسى عليه الصلاة والسلام لقوله : آمنتم له قبل أن آذَنَ لكم ، واللامُ مع الإيمان في كتاب الله تعالى لغيره تعالى وهذا إما لقصد توضيعِ موسى عليه السلام والهُزْءِ به لأنه لم يكن من التعذيب في شيء ، وإما لإراءة أن إيمانَهم لم يكن عن مشاهدة المعجزة ومعاينةِ البرهان بل كان عن خوف من قِبل موسى عليه السلام حيث رأوا ابتلاعَ عصاه لحبالهم وعِصِيِّهم فخافوا على أنفسهم أيضاً .

وقيل : يريد به ربَّ موسى الذي آمنوا به بقولهم : آمنا برب هارون وموسى .

(**قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ**) أي : لن نختارك وما وعدتنا به من الأجر والتقريب على ما أرانا الله من الآيات البينات الدالات على أن الله هو الرب المعبود وحده المعظم المبجل وحده وأن ما سواه باطل ونؤثرك على الذي فطرنا وخلقنا هذا لا يكون .

قال ابن عاشور : أظهروا استخفافهم بوعيده وبتعذيبه ، إذ أصبحوا أهل إيمان ويقين ، وكذلك شأن المؤمنين بالرسل إذا أشرقت عليهم أنوار الرسالة فسرعان ما يكون انقلابهم عن جهالة الكفر وقساوته إلى حكمة الإيمان وثباته.

(**وَالَّذِي فَطَرَنَا**) قيل: معطوفة على ما سبق ، أي: ولن نُؤثِرَك على اللهِ الذي خلَقَنا، وأنشَأَنا من العَدَمِ، وابتدأَ خَلْقَنا مِن طينٍ؛ فهو المستَحِقُّ للعبادةِ والخُضوعِ لا أنت .

وممن اختار أنَّ الواوَ عاطفةٌ: الفراء، والأخفش، وابن جرير، والزجاج، والواحدي، وابن كثير، وأبو السعود، والقاسمي .

وقيل: هو قسم أَيْ: وَالَّذِي فَطَرَنَا لَا نُؤْثِرُكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ فَاقْضِ مَا أَيٍ: اصْنَعْ مَا أَنْتَ صَانِعٌ. فَلَسْنَا رَاجِعِينَ عَمَّا نَحْنُ عَلَيْهِ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا أَيْ: إِنَّمَا يَنْفُذُ أَمْرُكَ فِيهَا.

قال القاسمي : واختيارُ هذا الوصف للإشعار بعلة الحكم . فإن خالقيته تعالى لهم ، وكون فرعون من جملة مخلوقاته ، مما يوجب عدم إيثارهم له عليه ، سبحانه وتعالى .

(**فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ**) أَيِ: اصْنَعْ مَا أَنْتَ صَانِعٌ. فَلَسْنَا رَاجِعِينَ عَمَّا نَحْنُ عَلَيْهِ .

(**إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا**) أي : إنما لك تسلط في هذه الدار وهي دار الزوال ، ونحن قد رغبنا في دار القرار .

قال السعدي : أي إنما توعدنا به غاية ما يكون في هذه الحياة الدنيا ينقضي ويزول ولا يضرنا بخلاف عذاب الله لمن استمر على كفره فإنه دائم عظيم

وهذا كأنه جواب منهم لقوله (وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى) وفي هذا الكلام من السحرة دليل على أنه ينبغي للعاقل أن يوازن بين لذات الدنيا ولذات الآخرة وبين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة

(**إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ**) أي : إنَّا آمَنَّا بربّنا وأقرَرْنا بتوحيدِه؛ لِيَغفِرَ لنا ذُنوبَنا من الكُفرِ والمعاصي، فيَستُرَها علينا، ويتجاوَزَ عن مؤاخَذتِنا بها، ويَغفِرَ لنا ما أكرَهْتَنا عليه من العَمَلِ بالسحر، ومن ذلك معارضةُ مُعجزاتِ موسى به .

(**خَطَايَانَا**) جمع خطيئة ، وهي الذنب العظيم. كالكفر ونحوه .

وقولهم (وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ) فإن قيل: كيف قالوا: وما أكرهتنا عليه من السحر، مع أنه دلت آيات أخرى أنهم فعلوا ذلك طائعين غير مكرهين؟

قيل: إنه كان يكرههم على تعليم أولادهم السحر.

وقيل: أنه أكرههم على الشخوص من أماكنهم ليعارضوا موسى بسحرهم، وهذا أصح.

قال الشنقيطي : قولهم (وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السحر) يدل على أنه أكرههم عليه ، مع أنه دلت آيات أخر على أنهم فعلوه طائعين غير مكرهين ، كقوله (فتنازعوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّواْ النجوى قالوا إِنْ هذان لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُمْ مِّنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ المثلى فَأَجْمِعُواْ كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائتوا صَفّاً وَقَدْ أَفْلَحَ اليوم مَنِ استعلى) فقولهم (فَأَجْمِعُواْ كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائتوا صَفّاً) صريح في أنهم غير مكرهين.

وكذلك قوله عنهم في « الشعراء » (قَالُواْ لِفِرْعَوْنَ أَإِنَّ لَنَا لأَجْراً إِن كُنَّا نَحْنُ الغالبين قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذاً لَّمِنَ المقربين) .

وللعلماء عن هذا السؤال أجوبة معروفة :

أولاً : أنه أكرههم على الشخوص من أماكنهم ليعارضوا موسى بسحرهم ، فلما أكرهوا على القدوم وأمروا بالسحر أتوه طائعين .

ثانياً : أنه كان يكرههم على تعليم أولادهم السحر في حال صغرهم ، وأن ذلك هو مرادهم بإكراههم على السحر. ولا ينافي ذلك أنهم فعلوا ما فعلوا من السحر بعد تعلمهم وكبرهم طائعين.

ثالثاً : أنهم قالوا لفرعون: أرنا موسى نائماً: ففعل فوجدوه تحرسه عصاه، فقالوا: ما هذا بسحر الساحر! لأن الساحر إذا نام بطل سحره. فأبى إلا أن يعارض، وألزمهم بذلك. فلما لم يجدوا بداً من ذلك فعلوه طائعين. وأظهرها عندي الأول، والعلم عند الله تعالى.

(**وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى**) أكثر الْمُفَسِّرِينَ عَلَى أَنَّ الْمَعْنَى: أَنَّ ثَوَابَهُ خَيْرٌ مِمَّا وَعَدَهُمْ فِرْعَوْنُ فِي قَوْلِهِ (قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ). وَأَبْقَى: أَيْ: أَدْوَمُ. لِأَنَّ مَا وَعَدَهُمْ بِهِ فِرْعَوْنُ زَائِلٌ، وَثَوَابُ اللَّهِ بَاقٍ. كَمَا قَالَ تَعَالَى (مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ) وَقَالَ تَعَالَى (بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى).

فالله لا يزول ملكه ، ولا يذل ولا يموت ، ولا يعزل ، أي بخلاف فرعون وغيره من ملوك الدنيا فإنه لا يبقى ، بل يموت أو يعزل ، أو يذل بعد العز.

وقد اختلف العلماء : هل فعل بهم فرعون ذلك أم لا على قولين:

قيل: إنه فعل بهم ذلك.

واختاره ابن كثير.

لأن هذا هو الظاهر، ولأن الله لم يذكر أنه لم يقتلهم، وأيضاً الأصل أن الطاغية يفعل ذلك

كما فعل الطغاة في كثير من الأزمان بالمسلمين، ولأنه لم يرد دليل على أنه لم يفعل بهم.

قال ابن عباس: كانوا في أول النهار سحرة، وفي آخره شهداء.

وقيل: لم يفعل .

واختاره الشنقيطي، وقال: وَأَظْهَرُهُمَا عِنْدِي: أَنَّهُ لَمْ يَقْتُلْهُمْ، وَأَنَّ اللَّهَ عَصَمَهُمْ مِنْهُ لِأَجْلِ إِيمَانِهِمُ الرَّاسِخِ بِاللَّهِ تَعَالَى. لِأَنَّ اللَّهَ يَقُولُ لِمُوسَى وَهَارُونَ (أَنْتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ) وَالْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى.

قال ابنُ عطيةَ: هؤلاء السَّحَرةُ اختَلَف النَّاسُ: هل نفَذَ فيهم وعيدُ فِرعونَ؟ فقالت طائفةٌ: صلَبَهم على الجذوعِ كما قال، فأصبحَ القَومُ سَحَرةً، وأمسَوا شُهَداءَ بلُطفِ اللهِ لهم وبرَحمتِه! وقالت فرقةٌ: إنَّ فِرعونَ لم يفعَلْ ذلك، وقد كان الله تعالى وعد موسى أنَّه ومن معه الغالبونَ. وهذا كلُّه مُحتَمَلٌ .

الفوائد :

١. أن القلوب بين يدي الله تعالى يقلبها كيف يشاء.

سبحان الله لو تأملنا لوجدنا أن السحرة قبل إيمانهم كانوا يعدون العدة لمحاربة موسى عليه السلام حتى إنهم أقسموا في بداية المعركة بعزة فرعون إنهم كانوا في غاية الكفر والضلال، لكن سبحان مقلب القلوب لما رأوا كيف نصر الله موسى عليه السلام بعصاه التي تحولت الى حية تسعى تلقف ما صنعوا من سحر عظيم، إنه نصر الله؛ إنها قدرة الله جل وعلا.

حينها انقلبت قلوبهم وتحولت من منتهى الكفر والضلال الى منتهى اليقين والايمان؛ نعم إنهم آمنوا مع ما كانوا عليهم من كفر.

٢. الثبات على المبدأ حتى الممات.

٣. إن موقف هؤلاء السحرة يذكرنا بحديث الرسول ﷺ (ثلاث من كنّ فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود إلى الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف في النار).

٤. رغم شدة الإغراءات التي تعرض لها السحرة وتنوعها ما بين مال طائل) إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ) وجاه ومنصب وقرب من السلطان) قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (ورغم شدة التخويف الذي توعدهم به فرعون) فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى) لكن كل هذا الترغيب والترهيب لم يثن عزمهم ولم يفتنهم عن دينهم فجاء ردهم ثابتاً قوياً قاطعاً لا مجال فيه لتردد أو تذبذب (قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَاذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا. إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى).

٥. إن من أكبر العقبات أمام النفس في طريقها إلى الله وتحصيل محبته ورضوانه واتباع شرعه: مطامع النفس ورغباتها المتنوعة من المال والولد والنساء والجاه والرياسة، ومخاوف النفس على الحياة والأهل والولد والوظيفة والتجارة والجاه وما أشبه ذلك.

٦. عظم منزلة الصدق، وإيثار محبة الله على ما سواه، حيث نطق هؤلاء السحرة بهذه الكلمات العظيمة، من تحقير للدنيا، وتعظيم للآخرة.

٧. سؤال الله الصبر على الإيمان حتى الممات ، حيث قالوا لما هددهم (ربنا أفرغ علينا صبراً وتوفنا مسلمين) .

٨. معرفة حقارة الدنيا وأنها إلى زوال سبب للزهد فيها والرغبة في الآخرة .

٩. بيانُ أنَّ الإيمانَ واليقينَ إذا دَخَلَا القلبَ لا يفتنُه شيءٌ؛ فالسَّحَرةُ -جنودُ فِرعَون- كانوا في أوَّلِ النَّهارِ سَحَرةً كَفَرةً، وفي آخرِ النَّهارِ مُؤمِنينَ بَرَرةً؛ يتَحَدَّونَ فِرعَون؛ لِمَا دَخَلَ في قَلبِهم مِن الإيمانِ .

١٠. أن الابتلاء سنة ماضية إلى يوم القيامة، فأشد الناس بلاءً الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل، فالسحرة ابتلوا ابتلاءً عظيمًا، وهو القتل والصلب، ومع ذلك صبروا؛ قال تعالى عن فرعون (لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ * قَالُوا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ * وَمَا تَنْقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ) .

روى البخاري في صحيحه من حديث خباب بن الأرت ﷺ قال (شكونا إلى رسول الله ﷺ وهو متوسد بردة له في ظل الكعبة، قلنا له: ألا تستنصر لنا؟ ألا تدعو الله لنا؟ قال: «كَانَ الرَّجُلُ فِيمَنْ قَبْلَكُمْ يُحْفَرُ لَهُ فِي الأَرْضِ، فَيُجْعَلُ فِيهِ، فَيُجَاءُ بِالْمِنْشَارِ فَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ فَيُشَقُّ بِاثْنَتَيْنِ، وَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَيُمْشَطُ بِأَمْشَاطِ الحَدِيدِ مَا دُونَ لَحْمِهِ مِنْ عَظْمٍ أَوْ عَصَبٍ، وَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ) .

وروى الترمذي في سننه من حديث سعد بن أبي وقاص ﷺ قال: قلت: يا رسول الله، أي الناس أشد بلاءً؟ قال: «الأَنْبِيَاءُ ثُمَّ الأَمْثَلُ فَالأَمْثَلُ، فَيُبْتَلَى الرَّجُلُ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ، فَإِنْ كَانَ دِينُهُ صُلْبًا اشْتَدَّ بَلَاؤُهُ، وَإِنْ كَانَ فِي دِينِهِ رِقَّةٌ ابْتُلِيَ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ، فَمَا يَبْرَحُ البَلَاءُ بِالعَبْدِ حَتَّى يَتْرُكَهُ يَمْشِي عَلَى الأَرْضِ مَا عَلَيْهِ خَطِيئَة .

١١. أن عذاب الآخرة أعظم من عذاب الدنيا؛ ولذلك آثر السحرة ما يحصل لهم من عذاب فرعون في الدنيا على عذاب الآخرة؛ لقوله تعالى (قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى * إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى). وفي الحديث (أَنَّ عَذَابَ الدُّنْيَا أَهْوَنُ مِنْ عَذَابِ الْآخِرَة) .

١٢. أن دأب الطغاة والمجرمين دائمًا تلفيق الأكاذيب والتهم الباطلة، ليروّجوا على الناس باطلهم، فإن فرعون ادَّعى أن ما حصل كان بترتيب بين السحرة وموسى، مع أن موسى عليه السلام أتى من مدين وحيدًا، وحين أتى لم يجتمع بأحد من السحرة ولا غيرهم .

(إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لا يَمُوتُ فِيهَا وَلا يَحْيَى (٧٤) وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُوْلَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى (٧٥) جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاء مَن تَزَكَّى (٧٦)) .

[طه : ٧٤-٧٦] .

==========

(إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ) قالت فِرقةٌ: هذه الآيةُ بجُملتِها من كلامِ السَّحَرةِ لفِرعَونَ على جهةِ الموعظةِ له والبيانِ فيما فعلوه .

واختاره : ابنُ جريرٍ، وابنُ كثيرٍ، والشوكاني.

قال ابن كثير : الظَّاهِرُ مِنَ السِّيَاقِ أَنَّ هَذَا مِنْ تَمَامِ مَا وَعَظَ بِهِ السَّحَرَةُ لِفِرْعَوْنَ، يُحَذِّرُونَهُ مِنْ نِقْمَةِ اللَّهِ وَعَذَابِهِ الدَّائِمِ السَّرْمَدِيِّ، وَيُرَغِّبُونَهُ فِي ثَوَابِهِ الْأَبَدِيِّ الْمُخَلَّدِ .

قال القرطبي: مَن قال: هذا مِن قولِ السَّحرة قال: لعلَّ السحرةَ سمعوه مِن موسَى أو مِن بني إسرائيلَ إذ كان فيهم بمصرَ أقوامٌ، وكان فيهم أيضًا المؤمنُ مِن آلِ فِرعَون. قلتُ: ويحتملُ أن يكونَ ذلك إلهامًا مِن الله لهم أنطَقهم بذلك لما آمنوا، والله أعلم .

وقالت فرقة: بل هي مِن كلامِ الله تعالى لمحمَّدٍ ﷺ ؛ تنبيهًا على قبحِ ما فعَل فِرعَونُ، وحُسنِ ما فعل السَّحَرةُ، وتحذيرًا قد ضُمِّنَت القِصَّةُ المذكورةُ مِثالَه .

قال البغوي : قِيلَ: هَذَا ابْتِدَاءُ كَلَامٍ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى. وَقِيلَ: مِنْ تَمَامِ قَوْلِ السَّحَرَةِ

قال الشوكاني : هذه الآيَةُ مِن جُمْلَةِ ما حَكاهُ اللَّهُ سُبْحانَهُ مِن قَوْلِ السَّحَرَةِ، وقِيلَ: هو ابْتِداءُ كَلامٍ .

(**مجرماً فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ**) أي : يمُت ويلقى الله وهو كافر بالله تعالى فإن له جهنم ، الشديد نكالها، العظيمة أغلالها، البعيد قعرها، الأليم حرها وقرها، التي فيها من العقاب ما يذيب الأكباد والقلوب .

المجرم : فاعل الجريمة ، وهي المعصية والفعل الخبيث الذي يستحقُّ صاحبُه العذابَ والنكالَ .

والمجرم في اصطلاح القرآن هو الكافر ، كقوله تعالى (إن الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون) .

(**لا يَمُوتُ فِيهَا**) فيستريح .

(**وَلا يَحْيَى**) حياة تنفعه .

ومن شدة ذلك : أن المعذب فيها لا يموت ولا يحيا، لا يموت فيستريح، ولا يحيا حياة يتلذذ بها، وإنما حياته محشوة بعذاب القلب والروح والبدن، الذي لا يقدر قدره، ولا يفتر عنه ساعة، يستغيث فلا يغاث، ويدعو فلا يستجاب له.

قال تعالى (وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا) .

وقال تعالى (وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَى مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ) .

وَقَال تعالى (كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ) .

وقال تَعَالَى (وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَا) .

وقال تعالى (وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ. لَقَدْ جِئْنَاكُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُون).

نعم إذا استغاث، أغيث بماء كالمهل يشوي الوجوه، وإذا دعا، أجيب بـ (اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُون) .

(**وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ**) أي : ومن لقي ربه يوم المعاد مؤمن بالله وبكل ما يجب به الإيمان وصدق ذلك بقوله وعمله ، فعمل الأعمال الصالحات من واجبات ومستحبات .

(**فَأُوْلَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى**) فأولئك لهم عندَ اللهِ الدَّرَجاتُ العاليةُ .

(**جَنَّاتُ**) جمع جنة، الجنة في لغة العرب: البستان، لأن أشجاره الملتفة تجن الداخل فيه، وجاء إطلاق الجنة على البستان في القرآن في قوله (إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ) أي البستان، وفي قوله (وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ).

وأما في الاصطلاح: فهي الدار التي أعدها الله لأوليائه، فيها مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

– قوله تعالى (جنات) دليل على أن الجنات أنوع، كما قال تعالى (ولمن خاف مقام ربه جنتان) ثم قال تعالى (ومن دونهما جنتان) وقال ﷺ (جنتان من فضة آنيتهما وما فيهما، وجنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما).

– قال الشيخ ابن عثيمين: (جنات) بالجمع، وأحياناً يقال بالإفراد (جنة) فإذا كانت بالإفراد فالمراد بها مطلق الجنس، وإذا قيلت بالجمع فالمراد بها أنواع الجنات.

(**عَدْنٍ**) أي جنات إقامة ، يقال عَدَنَ بالمكان أي أقام به.

قال تعالى (جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيّاً).

وقال تعالى (وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ).

(**تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ**) أي: من تحت أشجارها.

قال ابن الجوزي: أي من تحت شجرها لا من تحت أرضها.

قال ابن عاشور: وأكمل محاسن الجنات جريان المياه في خلالها وذلك شيء اجتمع البشر كلهم على أنه من أنفس المناظر، لأن في الماء طبيعة الحياة، ولأن الناظر يرى منظراً بديعاً وشيئاً لذيذاً.

– قال ابن القيم: وهذا يدل على أمور:

أحدها: وجود الأنهار فيها. الثاني: أنها جارية لا واقفة. الثالث: أنها تحت غرفهم وقصورهم وبساتينهم كما هو المعهود في أنهار الدنيا.

– وهذه الأنهار جاء تسميتها في قوله تعالى (مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفّىً).

– وهذه الأنهار لا تنضب ولا تنقص، وتجري من غير أخدود.

– قال ابن القيم في النونية:

أنهارها في غير أخدود جرت ... سبحان ممسكها عن الفيضانِ

(**خَالِدِينَ فِيهَا**) مقيمين فيها إقامة أبدية لا تحول ولا تزول، فلا يموتون ولا يفنون ولا يخرجون منها. –

– قال النسفي: الخلد والخلود البقاء الدائم الذي لا ينقطع.

– وقال ابن الجوزي: والخلود: البقاء الدائم الذي لا انقطاع له.

– وجاءت الآيات الكثيرة بخلود أهل الجنة بالجنة:

فقال تعالى (وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً).

وقال تعالى (قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً).

وقال تعالى (وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحاً يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً).

وقال تعالى (وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ).

وقال ﷺ (من يدخل الجنة ينعم ولا ييأس، لا تبلى ثيابُه، ولا يفنى شبابه) رواه مسلم.

وقال ﷺ (ينادِ مناد: إن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبداً، وإن لكم أن تحيوا فلا تموتوا أبداً، وإن لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبداً، وإن لكم أن تنعموا فلا تيأسوا أبداً) رواه مسلم.

وقال ﷺ (إذا دخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، فيؤتى بالموت على شكل كبش فيذبح، فيقال: يا أهل الجنة خلود فلا موت ...) متفق عليه.

قال ابن عاشور: وقوله (وهم فيها خالدون) احتراس مِن تَوَهُّم الانقطاع بما تعودوا من انقطاع اللذات في الدنيا لأن جميع اللذات في الدنيا معرضة للزوال وذلك ينغصها عند المنعم عليه.

– وذكر من نعيم الجنة الخلود، لأنه أعظم النعيم، لأن أكبر ما ينكد اللذائذ، وينغص اللذات، أن يعلم صاحبها أنه زائل عنها، وأنها زائلة عنه، فكل نعيم بعده موت فليس بنعيم، والنعيم إذا تيقن صاحبه الانتقال عنه صار غماً، كما قال بعض الشعراء:

أحب ليالي الهجر لا فرحاً بها ... عسى الدهر يأتي بعدها بوصالِ

وأبغضُ أيام الوصال لأنني ... أرى كل وصلٍ معقباً بزوالِ

فالفكرة بالزوال تكدر اللذات الحاضرة، ولذا كان النبي ﷺ يأمرهم أن يكثروا من ذكر الموت، ويقال للموت: هاذم اللذات، لأن من تذكره ضاعت عليه لذته التي هو فيها، لأنه يقطعها، ولهذا قال (خالدين فيها) لا يزول عنهم ذلك النعيم فتتكدر غبطتهم.

(**وَذَلِكَ جَزَاء مَن تَزَكَّى**) أيْ : جَزاءُ مَن تَطَهَّرَ مِنَ الكُفْرِ والمعاصِي الموجِبَةِ لِلنّارِ .

وقد أقسم الله بفلاح من زكى نفسه فقال (وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا. وَالْقَمَرِ إِذَا تَلاهَا. ... قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا).

ومن أسباب تزكية النفس: الصدقة .

كما قال تعالى (خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ).

ومنها: غض البصر وحفظ الفرج .

كما قال تعالى (قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ).

ومنها: الدعاء بذلك:

كان ﷺ يقول (اللَّهُمَّ آتِ نَفْسِى تَقْوَاهَا وَزَكِّهَا أَنْتَ خَيْرُ مَنْ زَكَّاهَا أَنْتَ وَلِيُّهَا وَمَوْلاَهَا اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عِلْمٍ لاَ يَنْفَعُ وَمِنْ قَلْبٍ لاَ يَخْشَعُ وَمِنْ نَفْسٍ لاَ تَشْبَعُ وَمِنْ دَعْوَةٍ لاَ يُسْتَجَابُ لَهَا) رواه مسلم.

الفوائد :

١. من مات على الكفر فهو مخلد في النار .

٢. إثبات جهنم .

٣. أن الكافر في جهنم خالد لا يموت ولا يحيى .

٤. من شدة عذاب الكافر أنه يتمنى الموت ليستريح من العذاب .

٥. فضل من مات على الإيمان .

٦. من مات على الإيمان والعمل الصالح فله الجنة .

٧. أهمية العمل أن يكون صالحاً .

٨. من أسماء الجنة عدن .

٩. من نعيم الجنة الأنهار تجري من تحت قصورها .

١٠. من أعظم نعيم الجنة الخلود فيها .

١١. أكبر عيب في الدنيا أنها زائلة .

١٢. كل نعيم بعده موت فليس بنعيم .

١٣. أن نعيم الدنيا منقطع .

قال الواحدي : في الآية دليل على أن الأمور بخواتيمها وأن الإيمان بالموافاة لقوله: ﴿وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا﴾ ودليل على أن الدرجات إنما تستحق بالأعمال الصالحة، وقد يدخل الجنة من لا ينال الدرجات العلى.

(**وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لاَّ تَخَافُ دَرَكًا وَلا تَخْشَى (٧٧) فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُم مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ (٧٨) وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى (٧٩)**) .

[طه : ٧٧-٧٩] .

==========

(**وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ** ...) يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا أَنَّهُ أَمَرَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ حِينَ أَبَى فِرْعَوْنُ أَنْ يُرْسِلَ مَعَهُ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنْ يَسْرِيَ بِهِمْ فِي اللَّيْلِ، وَيَذْهَبَ بِهِمْ مِنْ قَبْضَةِ فِرْعَوْنَ .

كما قال تعالى (وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ) .

وقال سُبحانَه (فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ) .

قال ابن عاشور : الإضافة في قوله (بِعِبَادي) لتشريفهم وتقريبهم والإيماءِ إلى تخليصهم من استعباد القبط وأنهم ليسُوا عبيداً لفرعون.

قوله (أن أسر) أي ليلاً ، لأن السري سير الليل .

قال الرازي : (أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي) دلالة على أن موسى عليه السلام في تلك الحالة كثر مستجيبوه.

فأراد الله تعالى تمييزهم من طائفة فرعون وخلاصهم فأوحى إليه أن يسري بهم ليلاً ، والسري اسم لسير الليل والإسراء مثله

قال البقاعي : وهذا الإيحاء بعد ما تقدم من أمر السحرة بمدة مديدة جرت فيها خطوب طوال كانت بسببها الآيات الكبار ، وكأنها حذفت لما تدل عليه من قساوة القلوب ، والمراد هنا الانتهاء لما تقدم من مقصود السورة .

وقال ابن عطية : هذا استئناف إخبار عن موسى من أمر موسى وبينه وبين مقال السحرة المتقدم مدة من الزمان حدثت فيها لموسى وفرعون حوادث، وذلك أن فرعون لما انقضى أمر السحرة وغلب موسى وقوي أمره وعده فرعون أن يرسل معه بني إسرائيل فأقام موسى على وعده حتى غدره فرعون ونكث وأعلمه أنه لا يرسلهم معه، فبعث الله حينئذ الآيات المذكورة في غير هذه الآيات الجراد والقمل إلى آخرها كلما جاءت آية وعد فرعون أن يرسل بني إسرائيل عند انكشاف القول فإذا انكشف نكث حتى تأتي أخرى، فلما كانت الآيات أوحى الله تعالى إلى موسى أن يخرج بني إسرائيل من مصر في الليل هارباً، و"السرى" سير الليل.

قال الرازي : ما الحكمةُ في أن يسري بهم ليلًا ؟ والجوابُ أنَّ ذلك لوجوهٍ:

الوجه الأول: أن يكون اجتماعُهم لا بمشهدٍ من العدوّ، فلا يمنعُهم عن استكمالِ مرادِهم في ذلك.

الوجه الثاني: ليكونَ عائفًا عن طلبِ فِرعَون ومتَّبِعيه.

الوجه الثالث: ليكونَ إذا تقارَب العسكرانِ، لا يرَى عسكرُ موسى عسكرَ فِرعَون، فلا يهابوهم

قال ابن كثير : وَذَلِكَ أَنَّ مُوسَى لَمَّا خَرَجَ بِبَنِي إِسْرَائِيلَ أَصْبَحُوا وَلَيْسَ مِنْهُمْ بِمِصْرَ لَا دَاعٍ وَلَا مُجِيبٌ، فَغَضِبَ فِرْعَوْنُ غَضَبًا شَدِيدًا، وَأَرْسَلَ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ، أَيْ مَنْ يَجْمَعُونَ لَهُ الْجُنْدَ مِنْ بُلْدَانِهِ وَرَسَاتِيقِهِ .

كما قال تعالى (إِنَّ هؤُلاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ وَإِنَّهُمْ لَنا لَغائِظُونَ) .

ثم لما جمع جنده واستوسق لَهُ جَيْشُهُ، سَاقَ فِي طَلَبِهِمْ (**فَأَتْبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ**) أي عند طلوع الشمس (**فَلَمَّا تَرَاءَا الْجَمْعَانِ**) أَيْ نَظَرَ كُلٌّ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ إِلَى الْآخَرِ (**قَالَ أَصْحَابُ مُوسى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِي رَبِّي سَيَهْدِينِ**) وَوَقَفَ مُوسَى بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرُ أَمَامَهُمْ، وَفِرْعَوْنُ وَرَاءَهُمْ، فَعِنْدَ ذَلِكَ أَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ :

(**فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا**) أي: فاتَّخِذْ يا موسى لبني إسرائيلَ طَرِيقًا في البَحرِ يابسًا، لا ماءَ فيه ولا طينَ .

فَضَرَبَ الْبَحْرَ بعصاه، وقال: انفلق علي بِإِذْنِ اللَّهِ .

كما قال تعالى في الشعراء (أَنِ اضرب بِّعَصَاكَ البحر فانفلق) أي فضربه فانفلق .

كما قال تعالى(**فَانْفَلَقَ فَكانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ**) أَيِ الْجَبَلِ الْعَظِيمِ، فَأَرْسَلَ اللَّهُ الرِّيحَ عَلَى أَرْضِ الْبَحْرِ فَلَفَحَتْهُ حَتَّى صَارَ يبسا كَوَجْهِ الْأَرْضِ، فَلِهَذَا قَالَ:(فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقاً فِي الْبَحْرِ يَبَساً) .

قال البقاعي : (فَاضْرِبْ لَهُمْ) أي: اعمَلْ بضربِ البحرِ بعصاك، ولذلك سمَّاه ضربًا. ولما كان ضربُ البحرِ بالعصا سببًا لوجودِ الطريقِ الموصوفة، أوقَع الفعل عليها فقال: طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا .

وقال ابن عاشور: الضربُ: هنا بمعنى الجعلِ كقولهم: ضرب الذهبَ دنانيرَ. وفي الحديث: «واضربوا لي معكم بسهمٍ»، وليس هو كقولِه: أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ ؛ لأنَّ الضربَ هنالك متعدٍّ إلى البحرِ وهنا نصب طريقًا .

هذه العصا كان فيها أربع آيات:

أولاً: أنه يلقيها فتكون حية تسعى، ثم يأخذها فتعود عصا.

ثانياً: أنه يضرب بها الحجر فينفجر عيوناً.

ثالثاً: أنه ضرب بها البحر، فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم.

رابعاً: أنه ألقاها حين اجتمع إليه السحرة، وألقوا حبالهم وعصيهم، فألقاها فإذا هي تلقف ما يأفكون.

(**لَا تَخَافُ دَرَكاً**) أَيْ مِنْ فِرْعَوْنَ .

(**وَلا تَخْشى**) يَعْنِي مِنَ الْبَحْرِ أَنْ يُغْرِقَ قَوْمَكَ .

كما قال تعالى في الشعراء (قَالَ أَصْحَابُ موسى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ قَالَ كَلاَّ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ) .

وقال تعالى في سورة الدخان (فَدَعَا رَبَّهُ أَنَّ هؤلاء قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلاً إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ واترك البحر رَهْواً إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ).

رهواً : أي : اترك البحر ساكناً منفرجاً على هيئته بعد أن تجاوزه .

فالآية الكريمة قد اشتملت على كل ما من شأنه أن يغرس الأمان والاطمئنان في قلب موسى ومن معه.

(**فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ**) على كثرتهم وقوتهم وعلوهم وعزتهم ، فكانوا كالتابع الذي لا معنى له بدون متبوعه .

وقد بين تعالى أنهم اتبعوهم في أول النهار عند إشراق الشمس، فمن الآيات الدالة على اتباعه لهم قوله تعالى في «الشعراء»: (وَأَوْحَيْنَآ إلى موسى أَنْ أَسْرِ بعبادي إِنَّكُم مّتَّبِعُونَ) يعني سيتبعكم فرعون وجنوده.

ثم بين كيفية اتباعه لهم فقال (فَأَرْسَلَ فِرْعَونُ فِي المدآئن حَاشِرِينَ إِنَّ هؤلاء لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بني إِسْرَائِيلَ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ فَلَمَّا تَرَاءَى الجمعان قَالَ أَصْحَابُ موسى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ قَالَ كَلاَّ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ) .

وقال تعالى (وَجَاوَزْنَا ببني إِسْرَائِيلَ البحر فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْياً وَعَدْواً) .

(**فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ**) أَي : فعلاهم وغمرهم ما غمرهم، من الأمر الهائل المروع الذي يعجز البيان عن وصفه، حيث انطبق عليهم الماءُ فأَغرقهم فهلكوا جميعًا، ونجى الله فرعون وأَبقاه ببدنه خاليًا من الروح في اليوم الذي نجى الله فيه موسى وبنى إسرائيل من الغرق، ليراه بنو إسرائيل بعيونهم، فيطمئنوا ويؤْمنوا بهلاكه، وكانوا من ذلك في شك مريب، ولتكون قصته آية وعلامة لمن وراءَه

من أَهل عصره ومن يأْتي بعده. تبين لهم العاقبة المحتومة لكل جبار عنيد، وإِلى ذلك يشير قوله تعالى: (فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً) .

كما قال تعالى (وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا) .

وقال سُبحانَه (فَأَتْبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ) .

وقال عزَّ وجلَّ (وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ * وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ * ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ) .

وقال تبارك وتعالى (وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُغْرَقُونَ) .

(**مَا غَشِيَهُمْ**)أَيِ الَّذِي هُوَ مَعْرُوفٌ وَمَشْهُورٌ، وَهَذَا يُقَالُ عِنْدَ الْأَمْرِ الْمَعْرُوفِ الْمَشْهُورِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوى فَغَشَّاها مَا غَشَّى) وَكَمَا تَقَدَّمَهُمْ فِرْعَوْنُ فَسَلَكَ بِهِمْ فِي الْيَمِّ فَأَضَلَّهُمْ وَمَا هَدَاهُمْ إِلَى سَبِيلِ الرَّشَادِ، كَذَلِكَ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ .

وأما غرقه هو وجميع قومه المشار إليه قوله هنا : (فَغَشِيَهُمْ مِّنَ اليم مَا غَشِيَهُمْ) فقد أوضحه تعالى في مواضع متعددة من كتابه العزيز.

كقوله في « الشعراء » : (فَأَوْحَيْنَآ إلى موسى أَنِ اضرب بِّعَصَاكَ البحر فانفلق فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كالطود العظيم وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الآخرين وَأَنجَيْنَا موسى وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الآخرين إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ) .

وقوله في « الأعراف » (فانتقمنا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي اليم) .

وقوله في « الزخرف » : (فَلَمَّآ آسَفُونَا انتقمنا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ) .

وقوله في « البقرة » (وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ البحر فَأَنجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنظُرُونَ) .

وقوله في « يونس » : (حتى إِذَآ أَدْرَكَهُ الغرق قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لا إله إِلاَّ الذي آمَنَتْ بِهِ بنوا إِسْرَائِيلَ وَأَنَاْ مِنَ المسلمين) .

وقوله في « الدخان » : (واترك البحر رَهْواً إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ) .

(**وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى**) أي : وأَضلهم عن الرشد، وما هداهم إلى الخير بل سلك بهم مسلكًا أَوصلهم إِلى الهلاك في الدنيا والآخرة. حيث أُغرقوا فأُدخلوا نارًا خالدين فيها .

قال تعالى عن فرعون لما غرق (وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَاْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٩٠) آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (٩١) فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً) .

قال الخازن: والمخاطب لفرعون بهذا هو جبريل عليه السلام، وقيل الملائكة، وقيل: إن القائل لذلك هو الله تعالى عرف فرعون قبح صنعه وما كان عليه من الفساد في الأرض ويدل على هذا القول قوله سبحانه وتعالى (فاليوم ننجيك ببدنك). والقول الأول أشهر ويعضده ما روي عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال (لما أغرق الله فرعون قال آمنت أن لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل قال جبريل يا محمد فلو رأيتني وأنا آخذ من حال البحر فأدسه في فيه مخافة أن تدركه الرحمة).

وقال الشوكاني: وقد اختلف من القائل لفرعون بهذه المقالة؟ فقيل: هي من قول الله سبحانه، وقيل: من قول جبريل، وقيل: من قول ميكائيل، وقيل: من قول فرعون، قال ذلك في نفسه لنفسه.

فآمن حيث لا ينفعه الإيمان: فعند الاحتضار لا تقبل التوبة.

قال تعالى (وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً).

فقوله تعالى (وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ) أي: وليس قبول التوبة ممن ارتكب السيئات والمنكرات واستمر عليها، (حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ) أي: حتى إذا فاجأهم الموت وحضرت أسبابه وعلاماته وبلغت الحلقوم، (قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ) أي: قال في هذه الحال حضور الموت، واليأس من الحياة، إني تبت الآن، فهؤلاء لا تنفعهم توبتهم في هذه الحال، لأن توبتهم توبة اضطرار لا اختيار كما قال تعالى عن فرعون (حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ).

وقال تعالى (فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ. فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ).

وقال ﷺ (إِنَّ الله –عز وجل– يَقْبَلُ تَوبَةَ العَبْدِ مَا لَمْ يُغَرْغِرْ) أي تبلغ روحه رأس حلقه، وذلك وقت المعاينة الذي يرى فيه مقعده من الجنة أو مقعده من النار؛ فالمشاهد لطلوع الشمس من مغربها مثله.

(فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ) قال ابن عباس وغيره من السلف: إن بعض بني إسرائيل شكُّوا في موت فرعون، فأمر الله تعالى البحر أن يلقيه بجسده بلا روح، وعليه درعه المعروفة به على نجوة من الأرض وهو المكان المرتفع، ليتحققوا موته وهلاكه؛ ولهذا قال تعالى (فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ) أي: نرفعك على نَشز من الأرض (بِبَدَنِك) قال مجاهد: بجسدك.

– قال الشوكاني: قوله تعالى (لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءايَةً) هذا تعليل لتنجيته ببدنه، وفي ذلك دليل على أنه لم يظهر جسده دون قومه إلا لهذه العلة لا سوى، والمراد بالآية: العلامة، أي لتكون لمن خلفك من الناس علامة يعرفون بها هلاكك، وأنك لست كما تدّعي، ويندفع عنهم الشك في كونك قد صرت ميتاً بالغرق.

الفوائد :

١. من آيات الله إنقاذ بني إسرائيل من فرعون .

٢. تأييد الله لنبيه موسى .

٣. من آيات الله العظيمة فلق البحر لموسى ومن معه .

٤. هلاك فرعون وجنوده بالغرق .

٥. أن فرعون آمن في وقت لا ينفع فيه الندم والتوبة .

(يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى (٨٠) كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى (٨١) وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى (٨٢)) .

[طه : ٨٠–٨٢] .

==========

– يذكرهم الله ببعض نعمه عليهم في التيه.

– سبب هذا التيه: أن الله لما أنجا موسى وقومه من فرعون، وفلق لهم البحر، وأمرهم بقتال الجبارين، أصابهم الجبن الذي قدمنا شرحه في سورة المائدة، وقالوا لنبيهم موسى (لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ) فأصابهم

الجبن والخوف، فقال موسى (رَبِّ إِنِّي لا أَمْلِكُ إِلاَّ نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ) فضرب الله عليهم التيه أربعين سنة (قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الأَرْضِ) يصبحون حيث أمسوا، فإذا مشوا النهار كله أصبحوا من حيث كانوا أمس!! الله ضرب عليهم هذا التيه. وأصحاب الأخبار والتاريخ يطبقون على أن موسى وهارون (عليهما وعلى نبينا الصلاة والسلام) توفيا في التيه، ثم صار الخليفة بعد موسى يوشع بن نون.

(**يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنْجَيْنَاكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ**) يَذْكُرُ تَعَالَى نِعَمَهُ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ الْعِظَامَ وَمِنَنَهُ الْجِسَامَ، حَيْثُ أنجاهم مِنْ عَدُوِّهِمْ فِرْعَوْنَ، وَأَقَرَّ أَعْيُنَهُمْ مِنْهُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْهِ وَإِلَى جُنْدِهِ قَدْ غَرِقُوا فِي صَبِيحَةٍ وَاحِدَةٍ، لَمْ يَنْجُ مِنْهُمْ أَحَدٌ .

كَمَا قال (وَأَغْرَقْنا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ) .

وقال تعالى (وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سواء العذاب يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بلاء مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ) .

وقال سُبحانَه (وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ * مِنْ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَالِيًا مِنَ الْمُسْرِفِينَ) .

قيل: الخطابُ لبني إسرائيلَ بعدَ إنجائِهم مِن البحرِ، وإهلاكِ فرعونَ، على إضمارِ: (قلنا) .

وقيل: الخطابُ لليهودِ المعاصرينَ لنبيّنا ﷺ؛ لأنَّ النعمةَ على الآباءِ معدودةٌ مِن النعمِ على الأبناءِ.

أي المراد: آباؤهم الذين كانوا في زمن موسى عليه السلام ولكن لما كان ذلك مِنَّةً على الآباء الذين هم أصلٌ صار كأنه واقع على الأبناء.

وقال أبو حيان: الظاهِرُ أنَّ الخِطابَ لِمن نجا معَ موسى بعدَ إغراقِ فِرعَونَ. وقيل: لمعاصري الرَّسولِ ﷺ اعتراضًا في أثناءِ قِصَّةِ موسى؛ توبيخًا لهم إذ لم يصبِرْ سَلَفُهم على أداءِ شُكرِ نِعَمِ الله، فهو على حذفِ مُضافٍ، أي: أنجينا آباءَكم مِن تعذيبِ آلِ فِرعَون.

قال ابن جزي : خطاب لهم بعد خروجهم من البحر، وإغراق فرعون، وقيل: هو خطاب لمن كان منهم في عصر رسول الله ﷺ، والأول أظهر .

قال الرازي : اعلم أنه تعالى لما أنعم على قوم موسى عليه السلام بأنواع النعم ذكرهم إياها ولا شك أن إزالة المضرة يجب أن تكون متقدمة على إيصال المنفعة ولا شك أن إيصال المنفعة الدينية أعظم في كونه نعمة من إيصال المنفعة الدنيوية ، فلهذا بدأ الله تعالى بقوله : (أنجيناكم مّنْ عَدُوِّكُمْ) وهو إشارة إلى إزالة الضرر فإن فرعون كان ينزل بهم من أنواع الظلم كثيراً من القتل والإذلال والإخراج والإتعاب في الأعمال .

قال ابن عاشور : وهذا خطاب لليهود الذين في زمن النبي ﷺ تذكيراً لهم بنعم أخرى ، وقُدّمت عليها النعمة العظيمة ، وهي خلاصهم من استعباد الكفرة.

(**وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الأَيْمَنَ**) أي : واعدنا موسى للمناجاة وإنزال التوراة عليه جانب طور سيناء الأيمن ، وإنما نسبت المواعدة إليهم لكون منفعتها راجعة إليهم ، إذ في نزول التوراة صلاح دينهم ودنياهم .

وقال الخازن : وإنما قال وواعدناكم لأنها اتصلت بهم حيث كانت لنبيهم ، ورجعت منافعها إليهم وبها قوام دينهم وشريعتهم وفيها أفاض الله عليهم من سائر نعمه وأرزاقه .

(**وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ**) قال الواحدي: وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى يعني في التِّيهِ

اختلفت عبارات المفسرين فيه، فقيل: صمغة حلوة، وهذا قول مجاهد. وقيل: أنه كان ينزل عليهم على الأشجار فيغدون إليه فيأكلون منه ما شاء، كأنه العسل، قاله الشيخ ابن عثيمين.

وقيل: هو العسل، وهذا قول الشعبي.

قال الماوردي: قوله عز وجل (وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ ...) فيه سبعة أقاويل:

أحدها: أن المنَّ ما سقط على الشجر فيأكله الناس، وهو قول ابن عباس.

والثاني: أن المنَّ صمغة، وهو قول مجاهد.

والثالث: أن المنَّ شرابٌ، كان ينزل عليهم يشربونه بعد مزجِهِ بالماء، وهو قول الربيع بن أنس.

والرابع: أن المنَّ عسل، كان ينزل عليهم، وهو قول ابن زيدٍ.

والخامس: أن المن الخبز الرقاق، وهو قول وهب.

والسادس: أنه الزنجبيل، وهو قول السدي.

والسابع: أنه الترنجين.

قال ابن كثير: والله أعلم أنه أكل ما امتن الله به عليهم من طعام وشراب وغير ذلك مما ليس فيه عمل ولا كد، وفي الحديث قال ﷺ (الكمأة من المن) أي: من جنس ما منّ الله به على بني إسرائيل، حيث إنه يوجد – فضلاً من الله – من غير تعب.

وقال الشنقيطي : والأظهر عندي في المن : أنه اسم جامع لما يمن الله به على عبده من غير كد ولا تعب ، ويدل على هذا قوله ﷺ الثابت في الصحيحين : « الكمأة من المن وماؤها شفاء للعين ».

(و**السَّلْوَى**) عامة المفسرين على أن السلوى طائر حلو اللحم، وهو السُّمَانَى.

قال ابن عطية: السلوى طائر بإجماع المفسرين.

وقال الشنقيطي : والأظهر عندي في السلوى : أنه طائر ، سواء قلنا إنه السمانى ، أو طائر يشبهه ، لإطباق جمهور العلماء من السلف والخلف على ذلك. مع أن السلوى ، يطلق لغة على العسل ، كما بينا.

(**كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ**) أي: وقلنا لهم: كلوا من طيبات ما رزقناكم كهذا المنّ والسلوى.

وهما طيبان حساً ومعنى، للذاذة طعمهما وحلّيتهما شرعاً، لأنهما منّ وفضل من الله جل وعلا.

فالطيّبْ هنا شامل لطيب الإباحة وطيب اللذاذة، لأن الطيبْ يطلق إطلاقين: يطلق طيباً من جهة الإباحة وعدم الشبهة، ويطلق طيباً من جهة اللذاذة وحسن المأكل، وهو جامع لهما هنا.

(**وَلا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غضبي**) فَتَأْخُذُوهُ مِنْ غَيْرِ حَاجَةٍ، وتخالفوا ما أمرتكم بِهِ فتحل عليكم عقوبتي .

قال الرازي: في قَولِه تعالى: وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ وجوه:

أحدُها: قال ابن عباس رضي الله عنهما: لا تطغَوا، أي: لا يظلِمْ بعضُكم بعضًا فيأخُذَه من صاحبه.

وثانيها: قال مقاتل والضحاك: لا تظلموا فيه أنفُسَكم بأن تتجاوزوا حدَّ الإباحة.

وثالثها: قال الكلبي: لا تكفُروا النِّعمةَ، أي: لا تستعينوا بنعمتي على مخالفتي، ولا تُعرِضوا عن الشُّكرِ، ولا تَعدِلوا عن الحلالِ إلى الحرامِ .

وقال القرطبي (وَلاَ تَطْغَوْاْ فِيهِ) أي لا تحملنكم السعة والعافية أن تعصوا ؛ لأن الطغيان التجاوز إلى ما لا يجوز.

وقيل : المعنى ؛ أي لا تكفروا النعمة ولا تنسوا شكر النعم ولا شكر المنعم بها عليكم.

وقيل : أي ولا تستبدلوا بها شيئاً آخر كما قال (أَتَسْتَبْدِلُونَ الذي هُوَ أدنى بالذي هُوَ خَيْرٌ) .

وقال الشنقيطي : ونهاهم عن الطغيان فيما رزقهم ، وهو أن يتعدوا حدود الله فيه بأن يكفروا نعمته به ، ويشغلهم اللهو والنعيم عن القيام بشكر نعمه ، وأن ينفقوا رزقه الذي أنعم عليهم به في المعاصي ، أو يستعينوا به على المعصية ، أو يمنعوا الحقوق الواجبة عليهم فيه ، ونحو ذلك.

وقال ابن عاشور : ومعنى النهي عن الطغيان في الرزق : النهي عن ترك الشكر عليه وقلّة الاكتراث بعبادة المنعِم.

(**وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى**) أي : فقد شقي وهلك .

(**وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ**) أي : رجع من ذنبه .

(**وَآمَنَ**) بقلبه .

(**وَعَمِلَ صَالِحًا**) بجوارحه .

(**ثُمَّ اهْتَدَى**) أي : لزم الإسلام حتى الموت .

أي استقام وثبت على ما ذكر من التوبة والإيمان والعمل الصالح ولم ينكث. ونظير ذلك قوله تعالى (إِنَّ الذين قَالُواْ رَبُّنَا الله ثُمَّ استقاموا) آمنت بالله ثم استقم » وقال تعالى (فاستقم كَمَآ أُمِرْتَ) .

قال القرطبي (ثُمَّ اهتدى) أي أقام على إيمانه حتى مات عليه ؛ قاله سفيان الثوري وقتادة وغيرهما.

الفوائد :

١. التذكير بالنعم من أساليب القرآن .

٢. أن الله يذكر بني إسرائيل بنعمه عليهم ليشكروا ويتعظوا .

٣. من أعظم النعم عليهم هلاك عدوهم الذي يسومهم سوء العذاب .

٤. أن الله أنزل عليهم التوراة ليكون رحمة لهم .

٥. من نعم الله عليهم إنزال المن والسلوى .

٦. منة الله علينا بالأكل من الطيبات .

٧. التحذير من الطغبان في النعمة بعدم شكرها أو استعمالها في معصية الله .

٨. الأكل من الطيبات.

٩. تحريم الأكل من الخبائث، والخبيث نوعان: خبيث لذاته، وخبيث لكسبه.

فالخبيث لذاته: كالميتة، والخنزير، والخبيث لكسبه: كالغش والربا.

(وَمَا أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَا مُوسَى (٨٣) قَالَ هُمْ أُولاء عَلَى أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى (٨٤) قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِن بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ (٨٥) فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي (٨٦) قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ (٨٧) فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلاً جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ (٨٨) أَفَلا يَرَوْنَ أَلاَّ يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلاً وَلا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلا نَفْعًا (٨٩)) .

[طه : ٨٣– ٨٩] .

==========

(وَمَا أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَا مُوسَى) أي : شيء عجل بك عن قومك يا موسى .

أَشَارَ جَلَّ وَعَلَا فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ إِلَى قِصَّةِ مُوَاعَدَتِهِ مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَذَهَابِهِ إِلَى الْمِيقَاتِ ، وَاسْتِعْجَالِهِ إِلَيْهِ قَبْلَ قَوْمِهِ . وَذَلِكَ أَنَّهُ لَمَّا وَاعَدَهُ رَبُّهُ وَجَعَلَ لَهُ الْمِيقَاتَ الْمَذْكُورَ ، وَأَوْصَى أَخَاهُ هَارُونَ أَنْ يَخْلُفَهُ فِي قَوْمِهِ ، اسْتَعْجَلَ إِلَى الْمِيقَاتِ فَقَالَ لَهُ رَبُّهُ وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ .الْآيَةَ ، وَهَذِهِ الْقِصَّةُ الَّتِي أَجْمَلَهَا هُنَا أَشَارَ لَهَا فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ .كَقَوْلِهِ فِي «الْأَعْرَافِ» (وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ) . (أضواء)

قال الشوكاني : هَذا حِكايَةٌ لِما جَرى بَيْنَ اللَّهِ سُبْحانَهُ وبَيْنَ مُوسى عِنْدَ مُوافاتِهِ الميقاتَ ، قالَ المُفَسِّرُونَ: وكانَتِ المواعَدَةُ أنْ يُوافِيَ مُوسى وجَماعَةٌ مِن وُجُوهِ قَوْمِهِ، فَسارَ مُوسى بِهِمْ، ثُمَّ عَجَّلَ مِن بَيْنِهِمْ شَوْقًا إلى رَبِّهِ، فَقالَ اللَّهُ لَهُ: ما أعْجَلَكَ ؟ أيْ ما الَّذِي حَمَلَكَ عَلى العَجَلَةِ، حَتّى تَرَكْتَ قَوْمَكَ وخَرَجتَ مِن بَيْنِهِمْ. فَأجابَ مُوسى عَنْ ذَلِكَ .

قال ابن عاشور: الذي يُؤخَذُ مِن كَلامِ المفَسِّرينَ وتُشيرُ إليه الآيةُ: أنَّ موسى تعجَّلَ مُفارقةَ قَومِه ليحضُرَ إلى المناجاةِ قبلَ الإبَّانِ الذي عَيَّنَه الله له؛ اجتهادًا منه، ورغبةً في تلقِّي الشريعةِ حَسَبما وعده الله قبل أن يحيطَ بنو إسرائيلَ بجَبَلِ الطورِ، ولم يراعِ في ذلك إلا السَّبقَ إلى ما فيه خيرٌ لِنَفسِه ولقومِه، فلامه الله على أن غَفَل عن مراعاةِ ما يحفُّ بذلك من ابتعادِه عن قَومِه قبل أن يوصِيَهم الله بالمحافظةِ على العَهدِ، ويحَذِّرَهم مكرَ مَن يتوسَّمُ فيه مَكرًا .

(قَالَ هُمْ أُولاء عَلَى أَثَرِي) أي : قومي قريبون مني لم أتقدمهم إلا بشيء يسير وهم يأتون بعدي .

(وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى) أي : وعجلتُ إلى الموضع الذي أمرتني بالمجيء إليه لتزداد رضى عني ، اعتذر موسى أولاً ثم بين السبب في إسراعه قبل قومه ، وهو الشوق إلى مناجاة الله ابتغاءً لرضى الله .

(قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِن بَعْدِكَ) أي: قال الله لموسى: فإنَّا قد ابتَلَينا قَومَك مِن بَعدِ فِراقِك لهم بعبادةِ العِجلِ .

فالْفِتْنَةَ الْمَذْكُورَةَ هِيَ عِبَادَتُهُمُ الْعِجْلَ . فَهِيَ فِتْنَةُ إِضْلَالٍ . كَقَوْلِهِ (إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ) وَهَذِهِ الْفِتْنَةُ بِعِبَادَةِ الْعِجْلِ جَاءَتْ مُبَيَّنَةً فِي آيَاتٍ مُتَعَدِّدَةٍ .

كَقَوْلِهِ (وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ) .

والْفِتْنَةُ أَصْلُهَا فِي اللُّغَةِ : وَضْعُ الذَّهَبِ فِي النَّارِ لِيُتَبَيَّنَ أَهُوَ خَالِصٌ أَمْ زَائِفٌ . وَقَدْ أُطْلِقَتْ فِي الْقُرْآنِ إِطْلَاقَاتٍ مُتَعَدِّدَةً :

مِنْهَا : الْوَضْعُ فِي النَّارِ .

كَقَوْلِهِ (يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ) أَيْ : يُحْرَقُونَ بِهَا .

وَقَوْلِهِ (إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ) أَيْ : أَحْرَقُوهُمْ بِنَارِ الْأُخْدُودِ .

وَمِنْهَا : الِاخْتِبَارُ وَهُوَ الْأَغْلَبُ فِي اسْتِعْمَالِ الْفِتْنَةِ .

كَقَوْلِهِ (إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ) .

وَقَوْلِهِ (وَأَنْ لَوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ) .

وَمِنْهَا : نَتِيجَةُ الِاخْتِبَارِ إِذَا كَانَتْ سَيِّئَةً . وَمِنْ هُنَا أُطْلِقَتِ الْفِتْنَةُ عَلَى الشِّرْكِ .

كَقَوْلِهِ (وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ) وَقَوْلِهِ هُنَا (فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ) .

وَمِنْهَا : الْحُجَّةُ ، كَقَوْلِهِ (ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ) أَيْ : لَمْ تَكُنْ حُجَّتُهُمْ .

(**وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ**) حيث كان السبب في ضلالهم ، حيث دعاهم إلى عبادة العجل فانقادوا له وأطاعوه .

قال تعالى (وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِن بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلاً جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ) إِلَى قَوْلِهِ (اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ) أَيِ : اتَّخَذُوهُ إِلَهًا وَقَدْ صَنَعَهُ السَّامِرِيُّ لَهُمْ مِنْ حُلِيِّ الْقِبْطِ فَأَضَلَّهُمْ بِعِبَادَتِهِ .

وَالسَّامِرِيُّ : قِيلَ اسْمُهُ هَارُونُ ، وَقِيلَ اسْمُهُ مُوسَى بْنُ ظُفَرَ ، وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ : أَنَّهُ مِنْ قَوْمٍ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْبَقَرَ . وَقِيلَ : كَانَ رَجُلًا مِنَ الْقِبْطِ . وَكَانَ جَارًا لِمُوسَى آمَنَ بِهِ وَخَرَجَ مَعَهُ . وَقِيلَ : كَانَ عَظِيمًا مِنْ عُظَمَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ قَبِيلَةٍ تُعْرَفُ بِالسَّامِرَةِ وَهُمْ مَعْرُوفُونَ بِالشَّامِ . قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ : كَانَ مِنْ أَهْلِ كَرْمَانَ .

قال ابن عطية : السامري رجل من بني إسرائيل يقال إنه كان ابن خال موسى ، وقالت فرقة لم يكن من بني إسرائيل بل كان أصله من العجم من أهل كرمان والأول أصح .

(**فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا**) والأسف : شدة الغضب .

قال الشنقيطي : فَالْأَسَفُ هُنَا : شِدَّةُ الْغَضَبِ ، وَعَلَى هَذَا فَقَوْلُهُ غَضْبَانَ أَسِفًا أَيْ : غَضْبَانَ شَدِيدَ الْغَضَبِ . وَمِنْ إِطْلَاقِ الْأَسَفِ عَلَى الْغَضَبِ فِي الْقُرْآنِ قَوْلُهُ تَعَالَى فِي «الزُّخْرُفِ» (فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ) أَيْ : فَلَمَّا أَغْضَبُونَا بِتَمَادِيهِمْ فِي الْكُفْرِ مَعَ تَوَالِي الْآيَاتِ عَلَيْهِمُ انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ .

وقيل : الأسف هنا شدة الحزن .

قال ابن جرير : متغيظاً على قومه، حزيناً لما أحدثوه بعده من الكفر بالله.

وقال ابن عطية : (أسفاً) أي حزيناً من حيث علم أنه موضع عقوبة مأموله فدفعها ولا بد منها .

وقال الشوكاني : الأسَفُ الشَّدِيدُ : الغَضَبُ، وقِيلَ: الحَزِينُ .

قال الشنقيطي : مَا ذَكَرَهُ جَلَّ وَعَلَا فِي آيَةِ «طه» هَذِهِ مِنْ كَوْنِ مُوسَى رَجَعَ إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا ذَكَرَهُ فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ ، وَذَكَرَ أَشْيَاءَ مِنْ آثَارِ غَضَبِهِ الْمَذْكُورِ .

كَقَوْلِهِ فِي «الْأَعْرَافِ» (وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي) .

وَقَدْ بَيَّنَ تَعَالَى أَنَّ مِنْ آثَارِ غَضَبِ مُوسَى إِلْقَاءَهُ الْأَلْوَاحَ الَّتِي فِيهَا التَّوْرَاةُ ، وَأَخْذَهُ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ .

كَمَا قَالَ فِي «الْأَعْرَافِ» (وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ) .

وَقَالَ فِي «طه» مُشِيرًا لِأَخْذِهِ بِرَأْسِ أَخِيهِ (قَالَ يَا ابْنَ أُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي) .

وَهَذِهِ الْآيَاتُ فِيهَا الدَّلَالَةُ عَلَى أَنَّ الْخَبَرَ لَيْسَ كَالْعِيَانِ ، لِأَنَّ اللَّهَ لَمَّا أَخْبَرَ مُوسَى بِكُفْرِ قَوْمِهِ بِعِبَادَتِهِمُ الْعِجْلَ كَمَا بَيَّنَهُ فِي قَوْلِهِ : قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ) وَهَذَا خَبَرٌ مِنَ اللَّهِ يَقِينٌ لَا شَكَّ فِيهِ لَمْ يُلْقِ الْأَلْوَاحَ ، وَلَكِنَّهُ لَمَّا عَايَنَ قَوْمَهُ حَوْلَ

الْعِجْلِ يَعْبُدُونَهُ أَثَّرَتْ فِيهِ مُعَايَنَةُ ذَلِكَ أَثَرًا لَمْ يُؤَثِّرْهُ فِيهِ الْخَبَرُ الْيَقِينُ بِذَلِكَ ، فَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ حَتَّى تَكَسَّرَتْ ، وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ لِمَا أَصَابَهُ مِنْ شِدَّةِ الْغَضَبِ مِنِ انْتِهَاكِ حُرُمَاتِ اللَّهِ تَعَالَى .

وقال تعالى في سورة الأعراف (وَأَلْقَى الأَلْوَاحَ) قال ابن عطية: قال سعيد بن جبير عن ابن عباس: كان سبب إلقائه الألواح غضبه على قومه في عبادتهم العجل وغضبه على أخيه في إهمال أمرهم.

وقال قتادة إن صح عنه: بل كان ذلك لما رأى فيها من فضيلة أمة محمد ﷺ فرغب أن يكون ذلك لأمته فلما علم أنه لغيرها غضب.

قال القاضي أبو محمد: وهذا قول رديء لا ينبغي أن يوصف موسى عليه السلام به والأول هو الصحيح. (المحرر الوجيز).

قال ابن كثير: ثم ظاهر السياق أنه إنما ألقى الألواح غضبًا على قومه، وهذا قول جمهور العلماء سلفاً وخلفاً.

(**قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا**) أظهَرُ الْأَقْوَالِ عِنْدِي فِي الْمُرَادِ بِهَذَا الْوَعْدِ الْحَسَنِ : أَنَّهُ وَعَدَهُمْ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَى نَبِيِّهِمْ كِتَابًا فِيهِ كُلُّ مَا يَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ مِنْ خَيْرِ الدُّنْيَا ، وَالْآخِرَةِ .

قال البقاعي : (وعداً حسناً) أي بأنه ينزل عليكم كتاباً حافظاً ، ويكفر عنكم خطاياكم ، وينصركم على أعدائكم – إلى غير ذلك من إكرامه.

والمعنى: أن الله أمركم بأمر، ووعدكم وعدًا، وقال لكم على لسان نبيه: إن موسى يذهب إلى الموعد، وأن الله يناجيه وينزل عليه كتابًا وفيه كل خير، وكل هدى ونور، يصلح الله لكم به دنياكم ودينكم وآخرتكم، وهذا وعدٌ عظيمٌ من الله، ... فلما وعدكم الله هذا الوعد العظيم الذي فيه كل هذا من الخير عَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُم بِذَلِكَ الوعد، أي: عجلتم عنه، وسبقتموه، وعبدتم العجل، ولم تنتظروا الخير الذي وعدكم الله به، وجئتم قبله بكل شر وسوء وخبث.

(**أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ**) أي: فهل طال عليكم انتِظارُ ما وعَدَكم اللهُ، ونَسِيتُم نِعَمَه عليكم؟! فإنَّ زَمَنَ ذلك لم يَبعُدْ حتَّى تيأسوا مِن الوفاءِ، وتَكفُروا وتَعبُدوا غيرَه، وتكونَ لكم شُبهةُ عُذرٍ في الإعراضِ عن عبادةِ اللهِ

والِاسْتِفْهَامُ فِيهِ لِلْإِنْكَارِ ، يَعْنِي لَمْ يَطُلِ الْعَهْدُ .

وقيل: المراد: أَفَطَالَت عليكم مدة مفارقتي إياكم؟

وممَّن قال بذلك: الواحدي، والزمخشري، وابن الجوزي.

قال السعدي: أي: المدة، فتطاولتُم غَيبتي وهي مدةٌ قصيرة؟ هذا قولُ كثيرٍ مِن المفسِّرينَ .

ويحتملُ أن معناه: أفطال عليكم عَهدُ النبُوَّة والرسالة، فلم يكن لكم بالنبُوَّة عِلمٌ ولا أثَرٌ، واندرست آثارُها، فلم تَقِفوا منها على خبرٍ، فانمحت آثارُها لبُعدِ العَهدِ بها، فعبدتُم غيرَ الله؛ لغلبة الجَهلِ، وعَدَمِ العلم بآثار الرسالة؟ أي: ليس الأمرُ كذلك، بل النبوةُ بين أظهُرِكم، والعِلمُ قائِمٌ، والعُذرُ غيرُ مَقبولٍ .

(**أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ**) «أَمْ» هُنَا هِيَ الْمُنْقَطِعَةُ ، وَالْمَعْنَى : بَلْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ ، وَمَعْنَى إِرَادَتِهِمْ حُلُولَ الْغَضَبِ : أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يَسْتَوْجِبُ غَضَبَ رَبِّهِمْ بِإِرَادَتِهِمْ . فَكَأَنَّهُمْ أَرَادُوا الْغَضَبَ لَمَّا أَرَادُوا سَبَبَهُ ، وَهُوَ الْكُفْرُ بِعِبَادَةِ الْعِجْلِ .

قال القرطبي : والمعنى : أم أردتم أن تفعلوا فعلاً يكون سبب حلول غضب الله بكم ؛ لأن أحداً لا يطلب غضب الله ، بل قد يرتكب ما يكون سبباً للغضب.

(**فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي**) قيل : لأنهم وعدوه أن يقيموا على طاعة الله عز وجل إلى أن يرجع إليهم من الطّور ، وقيل : وعدهم على أثره للميقات فتوقفوا.

قال ابو حيان : وكانوا وعدوه بأن يتمسكوا بدين الله وسنة موسى عليه السلام، ولا يخالفوا أمر الله أبدا، فأخلفوا موعده بعبادتهم العجل.

(**قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا**) اي : ما أخلفنا العهد بإرادتنا واختيارنا ، بل كنا مكرهين .

قال الشنقيطي: المعنى: ما أخلفنا موعدَك بأن ملكنا أمرَنا، فلو ملكنا أمرَنا ما أخلفنا موعدَك. وهو اعتذارٌ منهم بأنهم ما أخلفوا الموعدَ باختيارِهم، ولكنهم مغلوبون على أمرِهم مِن جهةِ السامريّ وكيدِه! وهو اعتذارٌ باردٌ ساقطٌ .

(**وَلَكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا**) أي : حملنا اثقالاً واحمالاً من حلي آل فرعون، فطرحناها في النار بأمر السامري.

قال مجاهد : (أوزاراً) أي اثقالاً وهي الحلي التي استعاروها من آل فرعون .

قال ابن جُزَي: وزينةُ القَومِ هي: حُلِيُّ القِبطِ قَومِ فِرعَونَ، كان بنو إسرائيلَ قد استعاروه منهم قبلَ هلاكِهم. وقيل: أخذوه بعد هلاكِهم .

وقال القرطبي: وسُمِّيَت أوزارًا بسَبَبِ أنَّها كانت آثامًا، أي: لم يَحِلَّ لهم أخذُها ولم تَحِلَّ لهم الغنائِمُ، وأيضًا فالأوزارُ هي الأثقالُ في اللغةِ.

قال الشوكاني : وسُمِّيَتْ أوْزارًا: أيْ آثامًا، لِأنَّهُ لا يَحِلُّ لَهم أخْذُها، ولا تَحِلُّ لَهُمُ الغَنائِمُ في شَرِيعَتِهِمْ والأوْزارُ في الأصْلِ الأثْقالُ كَما صَرَّحَ بِهِ أهْلُ اللُّغَةِ، والمرادُ بِالزِّينَةِ هُنا الحُلِيُّ فَقَذَفْناها أيْ طَرَحْناها في النّارِ طَلَبًا لِلْخَلاصِ مِن إثْمِها، وقِيلَ: المَعْنى: طَرَحْناها إلى السّامِرِيِّ لِتَبْقى لَدَيْهِ حَتّى يَرْجِعَ مُوسى فَيَرى فِيها رَأْيَهُ .

قال ابن كثير : وَحَاصِلُ مَا اعْتَذَرَ بِهِ هَؤُلَاءِ الْجَهَلَةُ : أَنَّهُمْ تَوَرَّعُوا عَنْ زِينَةِ الْقِبْطِ فَأَلْقَوْهَا عَنْهُمْ وَعَبَدُوا الْعِجْلَ ، فَتَوَرَّعُوا عَنِ الْحَقِيرِ وَفَعَلُوا الْأَمْرَ الْكَبِيرَ ، كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍ : أَنَّهُ سَأَلَهُ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْعِرَاقِ عَنْ دَمِ الْبَعُوضِ إِذَا أَصَابَ الثَّوْبَ . يَعْنِي هَلْ يُصَلِّي فِيهِ أَمْ لَا ؟ فَقَالَ ابْنُ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا : انْظُرُوا إِلَى أَهْلِ الْعِرَاقِ قَتَلُوا ابْنَ بِنْتِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ (يَعْنِي الْحُسَيْنَ رضي الله عنه) وَهُمْ يَسْأَلُونَ عَنْ دَمِ الْبَعُوضَةِ انْتَهَى مِنْهُ .

(**فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ**) أي كذلك فعل السامري ، ألقى ما كان معه من حلي القوم في النار .

فقوله تعالى (فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ) .فيه قولان:

أحدهما: أنَّه ألقَى حُلِيًّا كما ألقَوا.

واختاره : الثعلبي ، والبيضاوي .

والثاني: ألقَى ما كان مِن ترابِ حافِرِ فَرَسِ جبريلَ .

واختاره : الواحدي ، والطبري ، والسمرقندي ، وابن عطية ، والقرطبي ، وابن جزي ، وابن كثير .

قال ابنُ جُزَي: كان السَّامِرِيُّ قد رأى جبريلَ عليه السلام، فأخذ مِن وَطءِ فَرَسِه قَبضةً مِن تُرابٍ، وألقى اللهُ في نَفسِه أنَّه إذا جعَلَها على شَيءٍ مواتٍ صار حيوانًا، فألقاها على العِجلِ فخار العِجلُ، أي: صاح صِياحَ العُجولِ، فالمعنى: أنَّهم قالوا: كما ألقَينا الحُلِيَّ في الحُفرةِ ألقى السَّامريُّ قَبضةَ التُّرابِ .

(**فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلاً جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ**) أي : صاغ لهم السامري من تلك الحلى المذابة عجلاً جسداً بلا روح ، له خوار وهو صوت البقر .

قال الرازي : قيل إنه صار حياً وخار ، وقيل : لم تحله الحياة وإنما جعل فيه منافذ تدخل فيه الريح فيخرج له صوت يشبه صوت العجل .

– وقد اختلف المفسرون في هذا العجل: هل صار لحماً ودماً له خوار؟ أو استمر على كونه من ذهب، إلا أنه يدخل فيه الهواء فيصوت كالبقر؟ على قولين:

– قال بعض العلماء: لم تكن تلك الصورة لحماً ولا دماً، ولكن إذا دخلت فيها الريح صوتت كخوار العجل.

وقال بعضهم: جعل الله بقدرته ذلك الحلي المصوغ جسداً من لحم ودم لظاهر الآية (عجلاً جسداً) ورجحه الشنقيطي.

(**فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ**) فَنَسِيَ أَيْ : نَسِيَ مُوسَى إِلَهَهُ هُنَا وَذَهَبَ يَطْلُبُهُ فِي مَحَلٍّ آخَرَ . قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ فِي حَدِيثِ الْفُتُونِ . وَهُوَ قَوْلُ مُجَاهِدٍ . وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَيْضًا مِنْ طَرِيقِ عِكْرِمَةَ فَنَسِيَ أَيْ : نَسِيَ أَنْ يُذَكِّرَكُمْ بِهِ . وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَيْضًا فَنَسِيَ أَيِ : السَّامِرِيُّ مَا كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الْإِسْلَامِ ، وَصَارَ كَافِرًا بِادِّعَاءِ أُلُوهِيَّةِ الْعِجْلِ وَعِبَادَتِهِ .

قال ابن عطية : قوله تعالى (فنسي) يحتمل أن يكون من كلام بني إسرائيل، أي فنسي موسى ربه وإلهه فذهب إليه في غير موضعه، ويحتمل أن يكون قوله (فنسي) إخباراً من الله تعالى عن السامري ، أي نسي دينه وطريق الحق ، فالنسيان في التأويل الأول بمعن الذهول ، وفي الثاني بمعنى الترك .

وقال الشوكاني : أي قال السامريّ ومن وافقه هذه المقالة (فنسي) أي فضل موسى ولم يعلم مكان إلهه هذا ، وذهب يطلبه في الطور .

وقيل : المعنى فنسي موسى أن يذكر لكم أن هذا إلهه وإلهكم .

وقيل : الناسي هو السامريّ ، أي ترك السامريّ ما أمر به موسى من الإيمان وضلّ ، كذا قال ابن الأعرابي .

(**أفلا يرون**) أفلا يعتبرن ويتفكرون في أن هذا العجل لا يرجع إليهم قولاً ، أي لا يرد عليهم جواباً ، ولا يكلمهم إذا كلموه ، فكيف يتوهمون أنه إله وهو عاجز عن المكالمة .

قال أبو السعود : (أفلا يرون) إلخ، إنكار وتقبيح من جهته تعالى لحال الضالين والمضلين جميعاً ، وتسفيهاً لهم فيما أقدموا عليه من المنكر الذي لا يشتبه بطلانُه واستحالتُه على أحد وهو اتخاذه إله ، والفاء للعطف على مقدر يقتضيه المقامُ، أي لا يتفكرون فلا يعلمون .

(**أَلاَّ يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلاً وَلا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلا نَفْعًا**) بَيَّنَ اللَّهُ جَلَّ وَعَلَا فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ سَخَافَةَ عُقُولِ الَّذِينَ عَبَدُوا الْعِجْلَ، وَكَيْفَ عَبَدُوا مَا لَا يَقْدِرُ عَلَى رَدِّ الْجَوَابِ لِمَنْ سَأَلَهُ ، وَلَا يَمْلِكُ نَفْعًا لِمَنْ عَبَدَهُ ، وَلَا ضَرًّا لِمَنْ عَصَاهُ . وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْمَعْبُودَ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ عَاجِزًا عَنِ النَّفْعِ ، وَالضَّرَرِ وَرَدِّ الْجَوَابِ . وَقَدْ بَيَّنَ هَذَا الْمَعْنَى فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ .

كَقَوْلِهِ فِي «الْأَعْرَافِ» فِي الْقِصَّةِ بِعَيْنِهَا (أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ) .

وَلَا شَكَّ أَنَّ مَنِ اتَّخَذَ مَنْ لَا يُكَلِّمُهُ ، وَلَا يَهْدِيهِ سَبِيلًا إِلَهًا أَنَّهُ مِنْ أَظْلَمِ الظَّالِمِينَ .

وَنَظِيرُ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى عَنْ إِبْرَاهِيمَ (يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا) .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى عَنْهُ أَيْضًا (قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ) .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى (وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ) .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى (ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ) .

وقال تعالى في سورة الأعراف (واتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِن بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلاً جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّهُ لاَ يُكَلِّمُهُمْ وَلاَ يَهْدِيهِمْ سَبِيلاً اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ

– قال السعدي: وعدم الكلام نقص عظيم، فهم أكمل حالة من هذا الحيوان أو الجماد، الذي لا يتكلم.

– والمعبود الحق لا بد أن يكون يُكلم، ومعبود أهل السماوات والأرض بالحق يقول عن كلام نفسه (لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا)، وفي الآية الأخرى (وَلَوْ أَنَّمَا فِي الأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلاَمٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ) هذه صفة المعبود حقًّا، أمّا الذي لا يقدر على أن يتكلم كلمة واحدة فهذا ليس بمعبود.

(وَلاَ يَهْدِيهِمْ سَبِيلاً) أي: ولا يرشدهم إلى خير، ولكن غَطَّى على أعيُن بصائرهم عَمَى الجهل والضلال.

وقد كانت توبتهم ما ذكره الله في سورة البقرة (وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ).

– قوله تعالى (إِلَى بَارِئِكُمْ) قال ابن كثير: في هذا تنبيه على عظم جرمهم ، أي فتوبوا إلى الذي خلقكم وقد عبدتم معه غيره (فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ) أي ليقتل بعضكم بعضاً، وإنما عبر بقتل النفس، لأن المؤمن أخو المؤمن فكأنه هو نفسه، فالأمة الواحدة المجتمعة على شيء ينزلون منزلة النفس الواحدة.

كقوله تعالى (فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتاً فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ) أي: على من في البيت.

وقوله تعالى (وَلا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ) أي: لا يلمز بعضكم بعضاً.

وقوله تعالى (لَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْراً) أي: ظنوا بإخوانهم خيراً.

وقوله تعالى (ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ) أي: إخوانكم.

عن ابن عباس (... فقال الله تبارك وتعالى إن توبتهم أن يقتل كل رجل منهم كل من لقي من والد أو ولدٍ فيقتله بالسيف ولا يبالي من قتل في ذلك الموطن، فتاب أولئك الذين كان قد خفي على موسى وهارون ما اطلع الله من ذنوبهم فاعترفوا بها وفعلوا ما أمروا به فغفر الله للقاتل والمقتول.

– قيل: فاجتلد القوم فكان من قتل من الفريقين سبعون ألفاً، حتى دعا موسى وهارون: ربنا أهلكت بني إسرائيل، ربنا البقية البقية، فأمرهم أن يضعوا السلاح فتاب عليهم، وقيل: أصابتهم ظلمة فأصبح بعضهم يقتل بعض، فانجلت الظلمة عنهم وقد أجلوا عن سبعين ألف قتيل، وقيل: بل إن القتل وقع جهراً بلا ظلمة، وهذا أصح، لأنه أبلغ في الدلالة على صدق توبتهم.

– قال السعدي: قوله تعالى (وَلا يَهْدِيهِمْ سَبِيلاً) أي: لا يدلهم طريقاً دينياً، ولا يحصل لهم مصلحة دنيوية، لأن من المتقرر في العقول والفطر، أن اتخاذ إله لا يتكلم ولا ينفع ولا يضر من أبطل الباطل، وأسمج السفه.

– المعبود هو الذي يهدي، كما قال تعالى (قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لاَّ يَهِدِّي) أما الذي لا يهدي سبيلاً أي: طريقًا كائنًا ما كان فلا يمكن أن يكون برب ولا بمعبود، فلما قرر (جل وعلا) أن هذا العجل الذي اتخذوه إلهًا تنتفي عنه الصفات التي يجب أن تكون للإله صرح بأنهم عبدوه وهم ظالمون في ذلك فقال (اتَّخَذُوهُ) اتخذوه إلهًا (وَكَانُوا ظَالِمِينَ) ظالمين في ذلك.

– قال الشنقيطي: أن هذا القتل بهذه التوبة يقطع حياتهم الدنيوية، ولكنه يكسبهم حياة أخروية، وهذه الحياة الأخروية خير من الحياة الدنيوية.

الفوائد :

١. شوق موسى للقاء ربه .

٢. إن الله يحب من عبده المسارعة إلى الخيرات .

٣. الحرص على رضا الله بفعل الأسباب التي ترضي الله تعالى .

٤. إن الله ابتلى بني إسرائيل بعبادة العجل .

٥. سخافة عقول هؤلاء .

٦. الغضب عندما تنتهك حرمات الله .

٧. وجوب الحذر من الأسباب التي تسبب غضب الله .

٨. تحريم الشرك بالله تعالى.

٩. وجوب توحيد الله تعالى .

١٠. أن المعبود يجب أن يكون كاملاً.

١١. أن العاجز لا يصلح أن يكون معبوداً.

١٢. إثبات الكلام لله تعالى.

١٣. أن الشرك بالله أعظم الظلم.

قال تعالى (وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ) وأي ظلم أعظم وأشد من أن يتخذ الإنسان مع بارئه وخالقه إلهاً يعبده، فإن هذا أظلم الظلم كما قال تعالى (نَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ).

(وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِن قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي (٩٠) قَالُوا لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى (٩١) قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا (٩٢) أَلاَّ تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي (٩٣) قَالَ يَا ابْنَ أُمَّ لا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي (٩٤) قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ (٩٥) قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي (٩٦) قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَن تَقُولَ لا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّنْ تُخْلَفَهُ وَانظُرْ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا (٩٧) إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا (٩٨)) .

[طه : ٩٠-٩٨] .

==========

(وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ) ناصحاً ومحذراً .

(مِن قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِ) أي : من قبل أن يأتي موسى (يا قوم إنما فتنتم به) أي : ابتليتم (وإن ربَّكم الرحمنُ) لا العجل.

قال الرازي : اعلم أن هارون عليه السلام إنما قال ذلك شفقة منه على نفسه وعلى الخلق .

أما شفقته على نفسه : فلأنه كان مأموراً من عند الله بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وكان مأموراً من عند أخيه موسى عليه السلام بقوله (اخلفني فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلاَ تَتَّبِعْ سَبِيلَ المفسدين) فلو لم يشتغل بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لكان مخالفاً لأمر الله تعالى ولأمر موسى عليه السلام وذلك لا يجوز .

وأما الشفقة على المسلمين فلأن الإنسان يجب أن يكون رقيق القلب مشفقاً على أبناء جنسه وأي شفقة أعظم من أن يرى جمعاً يتهافتون على النار فيمنعهم منها .

(**وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ**) المستحق للعبادة الذي خلق كل شيء .

(**فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي**) فاقتدوا بي فيما أدعوكم اليه من عبادة الله ، واطيعوا امري بترك عبادة العجل .

قال الخازن : اعلم أن هارون عليه السلام سلك في هذا الوعظ أحسن الوجوه لأنه زجرهم أولاً عن الباطل بقوله إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ ثم دعا إلى معرفة الله تعالى بقوله إِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ ثم دعاهم إلى معرفة النبوة بقوله فَاتَّبِعُونِي ثم دعاهم إلى الشرائع بقوله وَأَطِيعُوا أَمْرِي فهذا هو الترتيب الجيد لأنه لا بد من إماطة الأذى عن الطريق وهي إزالة الشبهات ثم معرفة الله فإنها هي الأصل ثم النبوة ثم الشريعة. وإنما قال وإن ربكم الرحمن فخص هذا الموضع بهذا الاسم لأنه ينبههم على أنهم متى تابوا قبل الله توبتهم لأنه هو التواب الرحيم فقابلوا هذا القول بالإصرار والجحود .

(**قَالُوا لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى**) أَصروا على باطلهم ولجوا في عنادهم وقالوا: سنظل عاكفين على عبادة العجل حتى يرجع إلينا موسى ويخبرنا بالحقيقة.

قال الشوكاني : أجابوا هارون عن قوله المتقدّم بهذا الجواب المتضمن لعصيانه ، وعدم قبول ما دعاهم إليه من الخير وحذرهم عنه من الشرّ ، أي لن نزال مقيمين على عبادة هذا العجل ، حتى يرجع إلينا موسى ، فينظر : هل يقرّرنا على عبادته أو ينهانا عنها؟ فعند ذلك اعتزلهم هارون في اثني عشر ألفاً من المنكرين لما فعله السامريّ.

(**قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا أَلاَّ تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي**) أي : قال موسى لأخيه لائمًا له لَمَّا رجَعَ إلى قَومِه، فرأى ما حَدَث فيهم مِن الخَطبِ العَظيمِ: يا هارونُ، أيُّ شَيءٍ مَنَعَك حين رأيتَ بني إسرائيلَ قد أخطؤوا طريقَ الحَقِّ بعبادتِهم العِجلَ وكَفَروا باللهِ: أن تلحَقَ بي .

قال ابن كثير : أي : فتخبرني بهذا الأمر أول ما وقع .

وقال الواحدي : أي ما منعك من اتباعي واللحوق بي، وترك المقام بين أظهرهم ليرغبهم خروجك من بينهم. وقيل: من اتباعي في الإنكار عليهم .

وقال ابن عاشور : والاستفهام في قوله (مَا مَنَعَكَ) إنكاري ، أي لا مانع لك من اللحاق بي ، لأنه أقامه خليفة عنه فيهم فلما لم يمتثلوا أمره كان عليه أن يرد الخلافة إلى من استخلفه.

وقال الألوسي: : كان موسى عليه السلام رأى أنَّ مُفارقةَ هارونَ لهم، وخُروجَه من بينِهم بعد تلك النَّصائحِ القَوليَّةِ: أزجَرُ لهم مِنَ الاقتصارِ على النَّصائحِ؛ لِما أنَّ ذلك أدَلُّ على الغضَبِ، وأشَدُّ في الإنكارِ، لا سيَّما وقد كان عليه السلام رئيسًا عليهم محبوبًا لديهم، وموسى يعلَمُ ذلك، ومُفارقةُ الرَّئيسِ المحبوبِ كراهةً لأمرٍ: تَشُقُّ جِدًّا على النُّفوسِ، وتستدعي تَرْكَ ذلك الأمرِ المكروهِ له الذي يوجِبُ مُفارقتَه، وهذا ظاهِرٌ لا غُبارَ عليه عند من أنصَفَ .

وقال ابنُ الجوزي : وفي المعنى ثلاثةُ أقوالٍ:

أحدُها: تسيرُ ورائي بمن معك من المؤمِنينَ وتفارِقُهم. رواه سعيدُ بنُ جُبير عن ابنِ عبَّاسٍ.

والثاني: أن تُناجِزَهم القِتالَ. رواه أبو صالحٍ عن ابن عبَّاسٍ.
والثالث: في الإنكارِ عليهم. قاله مقاتِلٌ .
وقال الخازن : (وقالَ له يا هارُونُ ما مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا أَلَّا تَتَّبِعَنِ) أي تتبع أمري ووصيتي وهلا قاتلتهم وقد علمت أني لو كنت فيهم لقاتلتهم على كفره، وقيل معناه ما منعك من اللحوق بي وإخباري بضلالتهم فتكون مفارقتك إياهم زجراً لهم عما أتوه.
(**أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي**) أي : أخالفتني وتركت أمري ووصيتي ؟ وأمره هو ما كان أوصاه به فيما حكاه تعالى عنه (وقال موسى لأخيه هارون اخلفني في قومي وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين) .
(**قَالَ يَا ابْنَ أُمَّ**) ترقق لَهُ بِذِكْرِ الْأُمِّ مَعَ أَنَّهُ شَقِيقُهُ لِأَبَوَيْهِ، لأن ذكر الأم هاهنا أرق وأبلغ في الحنو والعطف، ولهذا قال: ابْنَ أُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلا بِرَأْسِي .
قال الآلوسي : خص الأم بالإضافة استعطافاً لحقها وترقيقاً لقلبه ، لا لما قيل من أنه كان أخاه لأمه ، فإن الجمهور على أنهما كانا شقيقين .
(**لا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلا بِرَأْسِي**) أي قال له هارون استعطافاً وترقيقاً: يا ابن أمي -أي يا أخي- لا تأخذ بلحيتي ولا بشعر رأسي، قال ابن عباس : أخذ شعر رأسه بيمينه، ولحيته بشماله، من شدة غيظه وفرط غضبه، لأن الغيرة في الله ملكته
قال ابن الجوزي : اختلف في سبب أخذه بلحيته ورأسه على ثلاثة أقوال :
الثالث : وهو الأشبه – أنه فعل ذلك لإمساكه عن الإنكار على بني إسرائيل الذين عبدوا العجل ومقامه بينهم على معاصيهم.
(**إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ**) أنْ أَتْبَعَكَ فَأُخْبِرَكَ بِهَذَا، فَتَقُولَ لِي لم تركتهم وحدهم وفرقت بينهم .
(**ولَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي**) من بقية كلام هارون. أي خشيت أن تقول فرقت بين بني إسرائيل، وأن تقول لي لم ترقب قولي! أي لم تعمل بوصيتي وتمتثل أمري.
جاء في (التفسير الوسيط) أي: يا بن أمي لا تأخذ بلحيتي ولا برأسي، فإني ما حملني على البقاء معهم وعلى ترك مقاتلتهم بعد أن عبدوا العجل، إلا خوفي من أن تقول لي- لو قاتلتهم أو فارقتهم بمن معي من المؤمنين- إنك بعملك هذا قد جعلت بنى إسرائيل فرقتين متنازعتين لَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي (ولَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي) ولم تتبع وتطع قولي لك: اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ ولذلك لم أقدم على مقاتلتهم بمن معي من المؤمنين، ولم أقدم كذلك على مفارقتهم، بل بقيت معهم ناصحا واعظا، حتى تعود أنت إليهم، فتتدارك الأمر بنفسك، وتعالجه برأيك.
وقال السعدي : (لا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي) فإنك أمرتني أن أخلفك فيهم فلو تبعتك لتركت ما أمرتني بلزومه وخشيت لائمتك و(أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ) حيث تركتهم وليس عندهم راع ولا خليفة فإن هذا يفرقهم ويشتت شملهم فلا تجعلني مع القوم الظالمين ولا تشمت فينا الأعداء فندم موسى على ما صنع بأخيه وهو غير مستحق لذلك فـ (قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ) .
-هَذَا اعْتِذَارٌ مِنْ هَارُونَ عِنْدَ مُوسَى فِي سَبَبِ تَأَخُّرِهِ عَنْهُ حَيْثُ لَمْ يَلْحَقْهُ فَيُخْبِرْهُ بما كان من هذا الخطب .
(**قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ**) أي : ما شأنك فيما صنعت ؟ وما الذي حملك عليه يا سامري ؟
قال الرازي : اعلم أن موسى عليه السلام لما فرغ من مخاطبة هارون عليه السلام وعرف العذر له في التأخير أقبل على السامري .
قال ابن الجوزي : الخطب ما يحدث من الأمور الجليلة التي يخاطب عليها .
(**قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ**) أي : رأيت جبريل حين جاء لهلاك فرعون .

(**فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ**) أي : من أثر فرسه .

قال ابن كثير : هذا هو المشهور عند كثير من المفسرين أو أكثرهم .

قال الرازي : عامة المفسرين قالوا : المراد بالرسول جبريل عليه السلام وأراد بأثره التراب الذي أخذه من موضع حافر دابته ثم اختلفوا أنه متى رآه فقال الأكثرون : إنما رآه يوم فلق البحر.

قال الآلوسي : وأثر الفرس التراب الذي تحت حافره.

وقال أبو حيان : وقال الأكثرون رأى السامري جبريل يوم فلق البحر .

قال الواحدي: قال ابنُ عباسٍ وجميعُ المفسِّرين: يريدُ أثَرَ فَرَسِ جبريلَ .

(**فَنَبَذْتُهَا**) أي : ألقيتها مع من ألقى في العجل .

(**وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي**) أي : حسّنته وأعجبها .

(**قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَن تَقُولَ لا مِسَاسَ**) أي : قال موسى للسامري : عقوبتك في الدنيا ألا تمس أحداً ولا يمسك أحد ، قال الحسن : جعل الله عقوبة السامري ألا يمس الناس ولا يمسوه ، عقوبة له في الدنيا ؟ وكان الله عز وجل شدد عليه المحنة عقوبة له .

قال ابن عاشور : فقوله (فَاذْهَبْ) الأظهر أنه أمر له بالانصراف والخروج من وسط الأمّة ، ويجوز أن يكون كلمة زجر ، كقوله تعالى (قال اذهب فمن تبعك منهم فإن جهنّم جزاؤكم) .

قال الواحدي : الصحيح ما ذكر في التفسير من وجه آخر: أنه جعل يهيم في البرية مع الوحوش والسباع لا يمس أحدًا ولا يمسه أحد، عاقبه الله بذلك ، وكان إذا لقى أحدًا يقول: لا مساس أي: لا تقربني ولا تمسني، وصار ذلك عقوبة له .

قال الزمخشري : عوقب في الدنيا بعقوبة لا شيء أطم منها وأوحش ، وذلك أنه منع من مخالطة الناس منعاً كلياً ، وحرم عليهم ملاقاته ومكالمته ومبايعته ومواجهته وكل ما يعايش به الناس بعضهم بعضاً ، وإذا اتفق أن يماس أحداً رجلاً أو امرأة حمّ الماسّ والممسوس فتحامى الناس وتحاموه ، وكان يصيح (لا مساس) ويقال إن قومه باق فيهم ذلك إلى اليوم انتهى.

قال ابن كثير : أي كما أخذت ومسست ما لم يكن لك أخذه ومسه من أثر الرسول .

وقال السعدي : قوله تعالى (فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لا مِسَاسَ) أي: تعاقب في الحياة عقوبة، لا يدنو منك أحد، ولا يمسك أحد، حتى إن من أراد القرب منك، قلت له: لا تمسني، ولا تقرب مني، عقوبة على ذلك، حيث مس ما لم يمسه غيره، وأجرى ما لم يجره أحد .

قال الآلوسي : والسر في عقوبته على جنايته بما ذكر. أنه ضد ما قصده من إظهار ذلك ليجتمع عليه الناس ويعززوه، فكان ما فعله سبباً لبعدهم عنه وتحقيره. وقيل: عوقب بذلك ليكون الجزاء من جنس العمل، حيث نبذ فنبذ، فإن ذلك التحامي عنه أشبه شيء بالنبذ..

(**وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا**) يوم القيامة .

(**لَّنْ تُخْلَفَهُ**) لا محيد لك عنه .

(**وَانظُرْ إِلَى إِلَهِكَ**) معبودك .

(**الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا**) أي : أقمت على عبادته يعني العجل .

(**لَّنُحَرِّقَنَّهُ**) بالنار .

(**ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا**) ثم لنطيرنه رماداً في البحر ، لا يبقى منه عين ولا أثر .

النسف : ذرء الأشياء وتفريقها .

قال ابن عاشور : والنسف : تفريقٌ وإذراء لأجزاء شيء صلب كالبناء والتراب ، وأراد باليمّ البحر الأحمر .

قال السعدي : ففعل موسى ذلك، فلو كان إلها، لامتنع ممن يريده بأذى ويسعى له بالإتلاف، وكان قد أشرب العجل في قلوب بني إسرائيل، فأراد موسى عليه السلام إتلافه وهم ينظرون، على وجه لا تمكن إعادته بالإحراق والسحق وذريه في اليم ونسفه، ليزول ما في قلوبهم من حبه، كما زال شخصه، ولأن في إبقائه محنة، لأن في النفوس أقوى داع إلى الباطل .

-ثم خاطب موسى عليه السلام بني إسرائيل مبيناً لهم الإله الحق :

(**إِنَّمَا إِلَهُكُمُ**) المستحق للعبادة والتعظيم .

(**اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ**) أي: لا معبود إلا وجهه الكريم، فلا يؤله، ولا يحب، ولا يرجى ولا يخاف، ولا يدعى إلا هو، لأنه الكامل الذي له الأسماء الحسنى، والصفات العلى، المحيط علمه بجميع الأشياء، الذي ما من نعمة بالعباد إلا منه، ولا يدفع السوء إلا هو، فلا إله إلا هو، ولا معبود سواه.

فهو الإله الحق الذي تتعين أن تكون جميع أنواع العبادة والطاعة والتأله له تعالى، لكماله وكمال صفاته وعظيم نعمه، ولكون العبد مستحقا أن يكون عبداً لربه، ممتثلاً أوامره مجتنباً نواهيه، وكل ما سوى الله تعالى باطل، فعبادة ما سواه باطلة، لكون ما سوى الله مخلوقاً ناقصاً مدبراً فقيراً من جميع الوجوه، فلم يستحق شيئاً من أنواع العبادة.

في هذه الآية يخبر الله بأنه منفرد بالألوهية، وذلك من قوله (لا إله إلا هو) هذه جملة تفيد الحصر وطريقة النفي والإثبات هذه من أقوى صيغ الحصر.

ففيها نفي استحقاق غير الله العبادة، وإثبات استحقاق الألوهية والعبودية لله تعالى.

قال ابن كثير: إخبار بأنه المنفرد بالإلهية لجميع الخلائق.

وقال السعدي: فأخبر أنه الله، الذي له جميع معاني الألوهية، وأنه لا يستحق الألوهية والعبودية إلا هو، وعبودية غيره باطلة.

قال ابن رجب: قَوْل: لَا إِلَهَ إِلَّا اَللَّهُ، تَقْتَضِي أَلَّا يُحِبَّ سِوَاهُ، فَإِنَّ اَلْإِلَهَ هُوَ اَلَّذِي يُطَاعُ، مَحَبَّةً وَخَوْفًا وَرَجَاءً. وَمِنْ تَمَامِ مَحَبَّتِهِ مَحَبَّةُ مَا يُحِبُّهُ، وَكَرَاهَةُ مَا يَكْرَهُهُ، فَمَنْ أَحَبَّ شَيْئًا مِمَّا يَكْرَهُ اَللَّهُ، أَوْ كَرِهَ شَيْئًا مِمَّا يُحِبُّهُ اَللَّهُ لَمْ يَكْمُلْ تَوْحِيدُهُ وَلَا صِدْقُهُ فِي قَوْلِهِ: لَا إِلَهَ إِلَّا اَللَّهُ، وَكَانَ فِيهِ مِنْ اَلشِّرْكِ اَلْخَفِيِّ بِحَسْبِ مَا كَرِهَهُ مِمَّا يُحِبُّهُ اَللَّهُ، وَمَا أَحَبَّهُ مِمَّا يَكْرَهُهُ. قَالَ تَعَالى (ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ).

- فضائل كلمة التوحيد:

(**وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا**) أي: أحاط اللهُ بكُلِّ شَيءٍ عِلمًا، فلا يخفَى عليه شَيءٌ، ولا يَضيقُ عليه عِلمُ جَميعِ ذلك .

فهو (جل وعلا) يعلمُ الموجوداتِ والمعدوماتِ والجائزاتِ والمستحيلاتِ، فإنه بإحاطةِ عِلْمِهِ ليعلمُ المعدومَ الذي سَبَقَ في سابقِ عِلْمِهِ أنه لا يوجدُ، وهو يعلمُ أن ذلك المعدومَ الذي لا يُوجَدُ أن لَوْ وُجِدَ كيف يكونُ، فهو يعلمُ مثلاً: أن أبا لَهَبٍ لَنْ يُؤْمِنَ، ومع ذلك يعلمُ لو آمَنَ أبو لهبٍ أيكونُ إيمانُه تَامًّا أو ناقصًا، كما لا يَخْفَى، وكونُه (جل وعلا) يعلمُ المعدومَ الذي لا يوجدُ أن لو وُجِدَ كيفَ يكونُ، دَلَّتْ عليه آياتٌ كثيرةٌ من كتابِ اللهِ، من الآياتِ الدالةِ على ذلك: أن الكفارَ يومَ القيامةِ إذا رَأَوُا النارَ، وَعَايَنُوا صدقَ ما جاءت به الرسلُ، وندموا وقد فَاتَتِ الْفُرْصَةُ نَدِمُوا حيث لا ينفعُ الندمُ، وَتَمَنَّوْا أن يُرَدُّوا إلى الدنيا مرةً أخرى ليُصدقوا

الرسلَ، واللَّهُ يعلمُ أنه لا يَرُدُّهُمْ إلى الدنيا مرةً ثانيةً، فقد بَيَّنَ في سورةِ الأنعامِ أن هذا الردَّ الذي عَلِمَ أنه لا يكونُ، بَيَّنَ أنه لو كان لَعَلِمَ كيفَ يكونُ؛ وَلِذَا قال (وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ) فهو يعلمُ أنهم لا يُرَدُّونَ ويعلمُ لو رُدُّوا ماذا يكونُ، كما صَرَّحَ بقولِه (وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ) والمتخلفونَ عن غزوةِ تبوكَ لا يَحْضُرُونَهَا أبدًا؛ لأَنَّ اللَّهَ هو الذي ثَبَّطَهُمْ عنها بإرادتِه لحكمةٍ، كما بَيَّنَهُ بقولِه (وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ) وهذا الخروجُ الذي لاَ يكونُ قد عَلِمَ (جل وعلا) أَنْ لو كان كيفَ يكونُ، كما صَرَّحَ به في قولِه (لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلاَّ خَبَالاً وَلأَوْضَعُوا خِلاَلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ).

قال تعالى (وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ).

الفوائد :

١. وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

٢. إثبات اسم الرحمن لله تعالى .

٣. تمرد بني إسرائيل على هارون وعصيانهم له .

٤. الشرك أعظم فتنة .

٥. المبادرة إلى إنكار المنكر .

٦. سرعة النفوس بالاستجابة للباطل .

٧. أن عدم وجود راع وخليفة للناس يسبب الافتراق والاختلاف .

٨. الغضب إذا انتهكت حرمات الله .

٩. العقوبة الشديدة للسامري بسبب شركه .

١٠. شدة موسى بالحق .

١١. هذه الآيةُ أصلٌ في نَفيِ أهلِ البِدَعِ والمعاصي، وهِجرانِهم، وألَّا يُخالَطوا .

١٢. مَرتبةُ تغييرِ المنكَرِ باليَدِ سَنَّها أبو الأنبياءِ إبراهيمُ، حين راغ على تلك الأوثانِ ضَربًا باليَمينِ حتى جعَلَها جُذاذًا وحَطَّمها تحطيمًا، وتَبِعَه فيها موسى حينما قال للسَّامريِّ: وَانْظُرْ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا، وتَبِعَهما خِتامُهم وأفضَلُهم محمَّدٌ ﷺ، فحَطَّم أوثانَ العَرَبِ المحيطةَ بمكَّةَ، وأرسلَ أصحابَه يَهدِمونَها في كلِّ حيٍّ .

١٣. الإله الحق المستحق للعبادة هو الله .

١٤. عموم علم الله تعالى الكامل .

(كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاء مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا (٩٩) مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا (١٠٠) خَالِدِينَ فِيهِ وَسَاء لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلاً (١٠١)) .

[طه : ٩٩ -١٠١] .

==========

(كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاء مَا قَدْ سَبَقَ) أَي : مثل ذلك القصص الصادق من خبر موسى وقومه نقصُّ عليك يا محمد أمثاله من قصص الأَولين تسلية لك مما حل بك من قومك، وتأْييدا لنبوتك، وتبصيرا للمستبصرين من أولى الالباب الباحثين عن الحق .

قال القرطبي : أي كما قصصنا عليك خبر موسى (كذلك نَقُصُّ عَلَيْكَ) قصصاً كذلك من أخبار ما قد سبق ؛ ليكون تسلية لك ، وليدل على صدقك.

قال ابن الجوزي : كما قصصنا عليك يا محمد من نبأ موسى وقومه، نقص عليك (من أنباء ما قد سبق) أي : من أخبار من مضى.

قال الشنقيطي : وَالظَّاهِرُ أَنَّ «مِنْ» فِي قَوْلِهِ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ لِلتَّبْعِيضِ ، وَيُفْهَمُ مِنْ ذَلِكَ أَنَّ بَعْضَهُمْ لَمْ يُقْصَصْ عَلَيْهِ خَبَرُهُ وَيَدُلُّ لِهَذَا الْمَفْهُومِ قَوْلُهُ تَعَالَى فِي سُورَةِ «النِّسَاءِ» : وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ) .

وَقَوْلُهُ فِي سُورَةِ «الْمُؤْمِنِ» (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ) .

وقَوْلُهُ فِي سُورَةِ «إِبْرَاهِيمَ» (أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ) وَالْأَنْبَاءُ : جَمْعُ نَبَإٍ وَهُوَ الْخَبَرُ الَّذِي لَهُ شَأْنٌ .

الحكمة من ذكر قصص الأمم الماضية :

لِيُبَيِّنَ بِذَلِكَ صِدْقَ نُبُوَّتِهِ ، لِأَنَّهُ أُمِّيٌّ لَا يَكْتُبُ ، وَلَا يَقْرَأُ الْكُتُبَ ، وَلَمْ يَتَعَلَّمْ أَخْبَارَ الْأُمَمِ وَقِصَصَهُمْ . فَلَوْلَا أَنَّ اللَّهَ أَوْحَى إِلَيْهِ ذَلِكَ لَمَا عَلِمَهُ . بَيَّنَهُ أَيْضًا فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ .

كَقَوْلِهِ فِي «آلِ عِمْرَانَ» (ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ) أَيْ : فَلَوْلَا أَنَّ اللَّهَ أَوْحَى إِلَيْكَ ذَلِكَ لَمَا كَانَ لَكَ عِلْمٌ بِهِ .

وَقَوْلِهِ تَعَالَى فِي سُورَةِ «هُودٍ» (تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ) .

تثبيت قلبي النبي ﷺ .

كما قال تعالى (وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاء الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ) .

- فيه أن من فوائد قصص الأنبياء تثبيت الفؤاد على أداء الرسالة وعلى الصبر واحتمال الأذى .

وذلك لأن الإنسان إذا ابتلى بمحنة وبلية فإذا رأى له فيه مشاركاً خف ذلك على قلبه ، كما يقال : المصيبة إذا عمت خفت ، فإذا سمع الرسول هذه القصص ، وعلم أن حال جميع الأنبياء صلوات الله عليهم مع أتباعهم هكذا ، سهل عليه تحمل الأذى من قومه وأمكنه الصبر عليه.

كما قال تعالى (وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ) .

وقال تعالى (مَا يُقَالُ لَكَ إِلاَّ مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ) .

قال الخازن : وذلك لأن النبي ﷺ إذا سمع هذه القصص وعلم أن حال جميع الأنبياء مع أتباعهم هكذا سهل عليه تحمل الأذى من قومه وأمكنه الصبر عليه .

قال أبو حيان : وتثبيت الفؤاد هو بما جرى للأنبياء عليهم الصلاة والسلام ولاتباعهم المؤمنين، وما لقوا من مكذبيهم من الأذى، ففي هذا كله أسوة بهم ، إذ المشاركة في الأمور الصعبة تهون ما يلقى الإنسان من الأذى ، ثم الإعلام بما جرى على مكذبيهم من العقوبات المستأصلة بأنواع من العذاب من غرق وريح ورجفة وخسف ، وغير ذلك فيه طمأنينة للنفس ، وتأنيس بأنْ يصب الله من كذب الرسول ﷺ بالعذاب ، كما جرى لمكذبي الرسل.

تكثيراً لشأنك وزيادة في معجزاتك وليكثر الاعتبار والاستبصار للمكلفين بها في الدين .

(**وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا**) أي: وقد أعْطَيْناك -يا محمَّدُ- مِن عِندِنا عطيَّةً نَفيسةً، وهي القرآنُ الكريمُ .

قال ابن عاشور : قوله (مِن لَّدُنَّا) توكيد لمعنى (ءاتيناك) وتنويه بشأن القرآن بأنه عطية كانت مخزونة عند الله فخص بها خير عباده.

كما قال تعالى (ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ) .

وقال سُبحانَه (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ) .

وقال عزَّ وجلَّ (وَهَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ) .

قال الرازي : ثم في تسمية القرآن بالذكر وجوه :

أحدها : أنه كتاب فيه ذكر ما يحتاج إليه الناس من أمر دينهم ودنياهم.

وثانيها : أنه يذكر أنواع آلاء الله تعالى ونعمائه ففيه التذكير والمواعظ.

وثالثها : فيه الذكر والشرف لك ولقومك على ما قال (وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ) .

قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله: وسمي القرآن ذكراً:

أولاً: لما فيه من التذكير والموعظة.

ثانياً: لما فيه من الأخبار الماضية، وقصص الأنبياء الغابرة المفيدة للقلب، كما قال تعالى (لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي الأَلْبَابِ).

ثالثاً: لما فيه من ذكر أحوال الناس في الجزاء يوم القيامة ، وأنهم ينقسمون إلى: فريق في الجنة، وفريق في السعير.

رابعاً: لما فيه من ذكر العرب ورفع شأنهم ، كما قال تعالى (وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ).

خامساً: ذكر شريعة الله وأحكامه من الأوامر والنواهي.

(**مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ**) أي: مَن أعرَضَ عن القُرآنِ، فلم يؤمِنْ به، ولم يَعمَلْ بما فيه .

(**فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا**) فإنَّه يأتي يومَ القيامةِ وهو يحمِلُ إثمًا عظيمًا .

قال أبو السعود : أي عقوبةً ثقيلةً فادحة على كفره وسائرِ ذنوبه، وتسميتُها وِزراً إما لتشبيهها في ثِقلها على المعاقَب وصعوبةِ احتمالها بالحِمْل الذي يفدَح الحاملَ وينقُض ظهرَه، أو لأنها جزاءُ الوِزْر وهو الإثمُ والأولُ هو الأنسبُ بما سيأتي من تسميتها حِملاً.

قال الشنقيطي : قَدْ دَلَّتْ آيَاتٌ كَثِيرَةٌ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ : عَلَى أَنَّ الْمُجْرِمِينَ يَأْتُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ . أَيْ : أَثْقَالَ ذُنُوبِهِمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ . كَقَوْلِهِ فِي سُورَةِ «الْأَنْعَامِ» (قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ) .

وَقَوْلِهِ فِي «النَّحْلِ» (لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ) .

وَقَوْلِهِ فِي «الْعَنْكَبُوتِ» (وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ) .

وَقَوْلِهِ فِي «فَاطِرٍ» (وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى) .

وَبِهَذِهِ الْآيَاتِ الَّتِي ذَكَرْنَا وَأَمْثَالِهَا فِي الْقُرْآنِ تَعْلَمُ أَنَّ مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى : (فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا) وَقَوْلِهِ : (وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلًا) أَنَّ الْمُرَادَ بِذَلِكَ الْوِزْرِ الْمَحْمُولِ أَثْقَالُ ذُنُوبِهِمْ وَكُفْرِهِمْ يَأْتُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَحْمِلُونَهَا

(**خَالِدِينَ فِيهِ**) خَالِدِينَ فِيهِ يُرِيدُ مُقِيمِينَ فِيهِ ، أَيْ : فِي جَزَائِهِ ، وَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ .

قال ابنُ جرير: خالِدونَ في أوزارِهم، والمعنى: أنهم خالدونَ في النَّارِ بأوزارهم، ولكِنْ لما كان معلومًا المرادُ مِن الكلامِ، اكتفى بما ذُكِرَ عمَّا لم يُذكَرْ .

وقال السعدي: خَالِدِينَ فِيهِ أي: في وِزرِهم؛ لأنَّ العذابَ هو نفسُ الأعمالِ، تنقَلِبُ عذابًا على أصحابِها، بحَسَبِ صِغَرِها وكِبَرِها

(**وَسَاء لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلاً**) أي: وبِئسَ للمُعرِضينَ عن القُرآنِ حِملُهم الثَّقيلُ مِن الآثامِ يومَ القيامةِ .

الفوائد :

١. فيه أنَّ سَماع أخبارِ الأخيارِ فيه تقويةٌ للعزائمِ، وإعانةٌ على اتِّباعِ تلك الآثارِ؛ فإنَّ النفوسَ تأنسُ بالاقتداءِ، وتنشطُ على الأعمالِ، وتريدُ المنافسةَ لغيرِها، ويتأيَّد الحقُّ بذكرِ شواهدِه، وكثرةِ مَن قام به

٢. الاعتبارَ مِن قَصَصِ الرُّسُل، بما فيها مِن حُسنِ صَبرِهم على أُمَمِهم، واجتهادِهم على دُعائِهم إلى عبادةِ الله بالحَقِّ، وتذكير الخيرِ والشَّرِّ، وما يدعو إليه كلٌّ منهما مِن عاقبةِ النَّفعِ والضُّرِّ؛ للثَّباتِ على ذلك جميعِه اقتداءً بهم .

٣. عناية الله تعالى بنبيه ﷺ .

(يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا (١٠٢) يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ عَشْرًا (١٠٣) نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ يَوْمًا (١٠٤)) .

[طه : ١٠٢-١٠٤] .

==========

(**يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ**) أي : يوم ينفخ إسرافيل في الصور النفخة الثانية .

قال الرازي : المراد من هذا النفخ هو النفخة الثانية لأن قوله بعد ذلك (وَنَحْشُرُ المجرمين يَوْمِئِذٍ زُرْقاً) كالدلالة على أن النفخ في الصور كالسبب لحشرهم فهو نظير قوله (يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصور فَتَأْتُونَ أَفْوَاجاً) .

وفي الآية إثبات النفخ في الصور، والنفخ في الصور ثابت بالكتاب والسنة والإجماع.

من الكتاب قوله تعالى: (وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ).

وقال تعالى: (وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ).

وقال تعالى: (وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعاً).

وقال تعالى: (وَمَا يَنْظُرُ هَؤُلاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَا لَهَا مِنْ فَوَاقٍ).

ومن السنة:

عن عبد الله بن عمرو قال: جاء أعرابي إلى النبي ﷺ فقال: ما الصور؟ قال: (قرن ينفخ فيه).

وعن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ (ثم ينفخ في الصور فلا يسمعه أحد إلا أصغى ليتاً ورفع ليتاً ، ثم لا يبقى أحد إلا صعق ... ثم ينفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون).

وأجمع المسلمون على ثبوته.

– النافخ في الصور هو إسرافيل عليه السلام .

أجمع العلماء أن الذي موكل بنفخ الصور هو إسرافيل.

– عدد النفخات:

اختلف العلماء في عدد النفخات على قولين:

القول الأول: أنها نفختان: نفخة الصعق ونفخة البعث.

ويدل لهذا قوله تعالى: (وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ).

وقال تعالى: (مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ. فَلا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلا إِلَى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ. وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ).

فقوله تعالى: (مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ). هذه النفخة الأولى.

وقوله تعالى: (وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ) هذه هي النفخة الثانية.

وعن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: (ما بين النفختين أربعون) قالوا: يا أبا هريرة: أربعين يوماً؟ قال: أبيت. قالوا: أربعون شهراً؟ قال: أبيت. قالوا: أربعون سنة: قال: أبيت). متفق عليه

القول الثاني: أنها ثلاث نفخات: نفخة الفزع ، ونفخة الصعق ، ونفخة البعث.

واحتجوا: في قوله تعالى: (وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ) وهذه نفخة الفزع.

وقوله تعالى: (وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ ...) هذه نفخة الصعق.

وقوله تعالى: (فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ) هذه نفخة البعث.

قالوا: إن الفزع مغاير للصعق.

– صاحب الصور مستعد للنفخ.

عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ (كيف أنعم، وقد التقم صاحب القرنِ القرنَ، وحنى جبهته وأصغى سمعه، ينتظر أن يؤمر أن ينفخ، فينفخ) رواه الترمذي.

(**وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ**) إلى أرض المحشر . **والمجرم** : الكافر .

(**يَوْمَئِذٍ زُرْقًا**) أي : زرق العيون من شدة ما هم فيه من الأهوال .

وأيضاً سود الوجوه .

كما قال تعالى (فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ) .

وقال تعالى (وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ) .

وقال تعالى (وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا) .

وَأَقْبَحُ صُورَةً أَنْ تَكُونَ الْوُجُوهُ سُودًا وَالْعُيُونُ زُرْقًا ، أَلَا تَرَى الشَّاعِرَ لَمَّا أَرَادَ أَنْ يُصَوِّرَ عِلَلَ الْبَخِيلِ فِي أَقْبَحِ صُورَةٍ ، وَأَشْوَهِهَا اقْتَرَحَ لَهَا زُرْقَةَ الْعُيُونِ ، وَاسْوِدَادَ الْوُجُوهِ فِي قَوْلِهِ :

وَلِلْبَخِيلِ عَلَى أَمْوَالِهِ عِلَلٌ زُرْقُ الْعُيُونِ عَلَيْهَا أَوْجُهٌ سُودُ .

قال بعض العلماء : يعني زرق العيون سود الوجوه وهي زرقة تتشوه بها خلقتهم والعرب تتشاءم بذلك .

قال أبو حيان : والظاهر أن المراد بالزرق زرقة العيون، والزرقة أبغض ألوان العيون إلى العرب لأن الروم أعداؤهم وهم زرق العيون، ولذلك قالوا في صفة العدو : أسود الكبد ، أصهب السبال ، أزرق العين.

وقال القرطبي : والعرب تتشاءم بزَرَق العيون وتذمّه ؛ أي تشوه خلقتهم بزرقة عيونهم وسواد وجوههم.

فَبَيَاضُ الْوُجُوهِ وَحُسْنُهَا سِيمَا أَهْلِ الْجَنَّةِ ، وَسَوَادُهَا وَقُبْحُهَا وَزُرْقَةُ الْعُيُونِ سِيمَا أَهْلِ النَّارِ .

كَمَا قَالَ أَيْضًا فِي سِيمَا أَهْلِ الْجَنَّةِ (تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ) ، وَقَالَ (وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ) .

(**يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ**) أي : يتهامسون بينهم ويسر بعضهم إلى بعض .

قال الرازي : وإنما يتخافتون لأنه امتلأت صدورهم من الرعب والهول أو لأنهم صاروا بسبب الخوف في نهاية الضعف فلا يطيقون الجهر.

قال أبو حيان : (يتخافتون) يتسارّون لهول المطلع وشدة ذهاب أذهانهم قد عزب عنهم قدر المدة التي لبثوا فيها .

قال البقاعي : ولما كانت الزرقة أبغض ألوان العيون إلى العرب لعدم إلفهم لها ، والمخافتة أبغض الأصوات إليهم لأنها تدل عندهم على سفول الهمة والجبن وكانوا من الزرقة أشد نفرة لأن المخافتة قد يتعلق بها غرض رتبهما سبحانه كذلك .

(**إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ عَشْرًا**) أي : في الدار الدنيا ، لقد كان لبثكم فيها قليلاً عشرة أيام أو نحوها .

قال ابن الجوزي : في مرادهم بمكان هذا اللبث قولان.

أحدهما : القبور.

والقول الثاني : أنهم عَنَوا لبثهم في الدنيا ، قاله الحسن ، وقتادة.

(**نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ**) في حال تناجيهم بينهم .

(**إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً**) أي : العاقل الكامل فيهم

(**إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ يَوْمًا**)أي : ما لبثتم إلى يوماً واحداً .

قال الشوكاني: نسبةُ هذا القَولِ إلى أمثَلِهم؛ لِكَونِه أدَلَّ على شِدَّةِ الهَولِ، لا لِكَونِه أقرَبَ إلى الصِّدقِ .

قال ابن كثير : لِأَنَّ الدُّنْيَا كُلَّهَا وَإِنْ تَكَرَّرَتْ أَوْقَاتُهَا وَتَعَاقَبَتْ لَيَالِيهَا وأيامها وساعاتها، كأنها يوم واحد، ولهذا يستقصر الكافرون مُدَّةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَكَانَ غَرَضُهُمْ فِي ذَلِكَ دَرْءَ قِيَامِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِمْ لِقِصَرِ الْمُدَّةِ،

وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى (كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ ما يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا ساعَةً مِنْ نَهارٍ ...).

وقال تعالى (كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا).

وقال تعالى (وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ ساعَةٍ- إلى قوله- وَلَكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ) .

وَقَالَ تَعَالَى (أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجاءَكُمُ النَّذِيرُ) .

وَقَالَ تَعَالَى (كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ قالُوا لَبِثْنا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْئَلِ الْعادِّينَ قالَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ).

وقال تعالى (وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاء اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ).

قال البيضاوي: يَستقصِرونَ مُدَّةَ لُبثِهم فيها؛ لزوالِها، أو لاستِطالتِهم مُدَّةَ الآخرةِ، أو لتأسُّفِهم عليها لَمَّا عاينوا الشَّدائدَ، وعَلِموا أنَّهم استحَقُّوها على إضاعتِها في قضاءِ الأوطارِ، واتِّباعِ الشَّهَواتِ .

قال ابن القيم: ويكفي بالزهد في الدنيا:

قوله تعالى (أفرأيت ان متعناهم سنين ثم جاءهم ما كانوا يوعدون ما أغنى عنهم ما كانوا يتمتعون).

وقوله (ويوم نحشرهم كأن لم يلبثوا إلا ساعة من النهار يتعارفون بينهم).

وقوله (كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار بلاغ فهل يهلك إلا القوم الفاسقون).

وقوله تعالى (كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا الا عشية أو ضحاها).

وقوله (ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة).

وقوله (قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ. قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلْ الْعَادِّينَ. قَالَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ).

الفوائد :

١. إثبات الحشر.

٢. أن الكفار يوم القيامة يظنون أنهم لم يلبثوا في الدنيا إلا لحظات.

٣. شدة ندم الكفار على تضييع الحياة الدنيا.

٤. خطر التكذيب بالحشر والمعاد.

٥. الحث على التزود في هذه الدنيا بالأعمال الصالحة، فهي قصيرة زائلة.

٦. شدة خسارة من كذب بلقاء الله.

٧. وجوب الإيمان باليوم الآخر.

(وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا (١٠٥) فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا (١٠٦) لا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلا أَمْتًا (١٠٧) يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لا عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَت الأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلا تَسْمَعُ إِلاَّ هَمْسًا (١٠٨) يَوْمَئِذٍ لاَّ تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلاً (١٠٩)) .

[طه : ١٠٥-١٠٩] .

==========

(وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا) وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبالِ أَيْ هَلْ تَبْقَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَوْ تَزُولُ؟ أي: فقُلْ لهم: يُزِيلُ اللهُ الجبالَ يومَ القيامةِ مِن أماكِنِها، ويَدُكُّها دكًّا، ويُفَتِّتُها ثمَّ يُطَيِّرُها في الهواءِ .

والسائلون عن أحوال الجبال يوم القيامة كفار مكة، روى أنهم قالوا للرسول ﷺ على سبيل الاستهزاء، يا محمد إنك تدعى أن هذه الدنيا تفنى، وأننا نبعث بعد الموت، فأين تكون هذه الجبال، فنزل قوله تعالى: وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبالِ فَقُلْ يَنْسِفُها رَبِّي نَسْفاً.

وقيل: السائلون هم المؤمنون على سبيل طلب المعرفة والفهم.

(**فَيَذَرُهَا**) أي : الأرض .

قال الرازي : أما الضمير في قوله (فَيَذَرُهَا) فهو عائد إلى الأرض فاستغنى عن تقديم ذكرها كما في عادة الناس من الإخبار عنها بالإضمار كقولهم : ما عليها أكرم من فلان وقال تعالى (مَا تَرَكَ على ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ) .

وقيل : فيَترُكُ اللهُ مواضِعَ الجبالِ أرضًا سهلةً مُستويةً، لا نباتَ فيها ولا بناءَ ولا ارتفاعَ .

(**قَاعًا صَفْصَفًا**) أي : بساطاً واحداً ، وَالْقَاعُ هُوَ الْمُسْتَوِي مِنَ الْأَرْضِ، وَالصَّفْصَفُ تَأْكِيدٌ لِمَعْنَى ذَلِكَ، وَقِيلَ الَّذِي لَا نَبَاتَ فِيهِ، وَالْأَوَّلُ أَوْلَى وَإِنْ كَانَ الْآخَرُ مُرَادًا أَيْضًا بِاللَّازِمِ .

(**لا تَرَى فِيهَا**) أي : في الأرض .

(**عِوَجًا وَلا أَمْتًا**) أي : لا ترى فيها انخفاضاً ولا ارتفاعاً . **الأمت** : المكان المرتفع .

(**يَوْمَئِذٍ**) أي : يوم القيامة .

(**يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لا عِوَجَ لَهُ**) أيْ يَوْمَ يَرَوْنَ هَذِهِ الْأَحْوَالَ وَالْأَهْوَالَ يَسْتَجِيبُونَ مُسَارِعِينَ إِلَى الدَّاعِي حَيْثُمَا أُمِرُوا بَادَرُوا إِلَيْهِ، وَلَوْ كَانَ هَذَا فِي الدُّنْيَا لَكَانَ أَنْفَعَ لَهُمْ وَلَكِنْ حَيْثُ لَا يَنْفَعُهُمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنا) .

وَالدَّاعِي : هُوَ الْمَلَكُ الَّذِي يَدْعُوهُمْ إِلَى الْحُضُورِ لِلْحِسَابِ . قَالَ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ : يُنَادِيهِمْ أَيَّتُهَا الْعِظَامُ النَّخِرَةُ ، وَالْأَوْصَالُ الْمُتَفَرِّقَةُ ، وَاللُّحُومُ الْمُتَمَزِّقَةُ ، قُومِي إِلَى رَبِّكِ لِلْحِسَابِ ، وَالْجَزَاءِ ، فَيَسْمَعُونَ الصَّوْتَ وَيَتْبَعُونَهُ .

وَمَعْنَى لَا عِوَجَ لَهُ : أَيْ : لَا يَحِيدُونَ عَنْهُ ، وَلَا يَمِيلُونَ يَمِينًا ، وَلَا شِمَالًا .

كما قال تعالى (فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُو الدَّاعِي إِلَى شَيْءٍ نُكُرٍ خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِي يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ) الْإِهْطَاعُ : الْإِسْرَاعُ .

وَقَوْلِهِ تَعَالَى (وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِي الْمُنَادِي مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ) .

وَقَوْلِهِ تَعَالَى (يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ) .

قال ابن عطية : وقوله تعالى (لا عوج له) يحتمل أن يريد الإخبار به أي لا شك فيه ولا يخالف وجوده خبره ، ويحتمل أن يريد لا محيد لأحد عن اتباعه والمشي نحو صوته.

وقال القرطبي : (لاَ عِوَجَ لَهُ) أي لا معدل لهم عنه ؛ أي عن دعائه لا يزيغون ولا ينحرفون بل يسرعون إليه ولا يحيدون عنه. وعلى هذا أكثر العلماء.

(**وَخَشَعَت الأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ**) أي : سكنت وخفتت هيبة لله وإجلالاً وخوفاً .

(**فَلا تَسْمَعُ**) في ذلك اليوم .

(**إِلاَّ هَمْسًا**) الصوت الخفي من شدة الخوف .

وقيل : وطء الأقدام .

(**يَوْمَئِذٍ لاَّ تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلاً**) أي: في يَومِ القيامةِ لا تَنفَعُ الشَّفاعةُ أحدًا مِن الناسِ لا الشَّافِعَ ولا المشفوعَ له، إلَّا شفاعةَ مَن أذِنَ له الرَّحمنُ أن يَشفَعَ أو يُشفَعَ له، ورَضِيَ اللهُ قَولَ الشَّافِعِ والمشفوعِ له .

كما قال تعالى (وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ) .

وقال عزَّ وجلَّ (وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى) .

وقال تعالى (وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى) .

وقال سُبحانه (يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا) .

الفوائد :

١. من مشاهد يوم القيامة نسف الجبال ودكها .

٢. أن الأرض يوم القيامة تكون مستوية لا نبات فيها ولا بناء .

٣. إثبات البعث وقيام الناس من قبورهم .

٤. شدة يوم القيامة وخشوع وسكون الناس هيبة لله تعالى .

٥. إثبات الشفاعة يوم القيامة لمن أذن الله له ورضي عنه .

(يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا (١١٠)) .

[طه : ١١٠] .

=========

(يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ) قيل : إن الضميرَ في قولِه (ما بين أَيْدِيهِمْ وخَلْفَهُمْ) يعودُ إلى الخلائقِ .

واختاره : ابنُ كثيرٍ، والبقاعي، والشربيني، والشوكاني.

قال ابن كثير : أي يحيط علماً بالخلائق كلهم .

قال في التسهيل (يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ) الضميران لجميع الخلق .

وقيل: الضميرُ يعودُ إلى الذين يتَّبعون الدَّاعي.

واختاره : ابنُ جريرٍ، وابنُ الجوزي ، والرازي .

قال الرازي : الضمير في قوله (بَيْنِ أَيْدِيهِمْ) عائد إلى الذين يتبعون الداعي .

قال أبو حيان : الظاهر أن الضمير في (أيديهم وما خلفهم) عائد على الخلق المحشورين وهم متبعو الداعي.

وقال الآلوسي : الظاهر أن ضمير الجمع عائد على الخلق المحشورين وهم متبعو الداعي، وقيل: على الناس لا بقيد الحشر والاتباع، وقيل: على الملائكة عليهم السلام وهو خلاف الظاهر جداً

(مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ) أي: يعلَمُ الله ما يَستَقبِلُه الخلائِقُ ممَّا يكونُ في الآخرةِ، ويعلَمُ ما مضَى وراءَهم مِن أمورِ الدُّنيا وأعمالِهم فيها .

فالمعنى : (يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ) يعني الآخرة لأنهم يُقدِمون عليها (وَمَا خَلْفَهُمْ) من الدنيا لأنهم يخلفونها وراء ظهورهم.

وقيل: (يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ) بعد انقضاء آجالهم (وَمَا خَلْفَهُمْ) أي: ما كان من قبل أن يخلقهم، وقيل: ما فعلوا من خير وشر وما يفعلونه بعد ذلك.

والمراد من الآية: أن الله يعلم كل شيء من ماض ومستقبل، وأن علمه شامل لكل شيء سبحانه وتعالى.

قال ابن كثير: دليل على إحاطة علمه بجميع الكائنات ماضيها وحاضرها ومستقبلها.

وقال أبو حيان: والذي يظهر أن هذا كناية عن إحاطة علمه تعالى بسائر المخلوقات من جميع الجهات.

وقال الشيخ صديق حسن خان: والمقصود أنه عالم بجميع المعلومات لا يخفى عليه شيء من أحوال جميع خلقه، حتى يعلم دبيب النملة السوداء في الليلة الظلماء على الصخرة الصماء تحت الأرض الغبراء، وحركة الذرة في جو السماء، والطير في الهواء، والسمك في الماء.

(**وَلا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا**) قيل : ولا يحيطون بالله علماً .

وقيل: هو مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ .

قال الرازي : قوله تعالى (وَلاَ يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً) أي العباد لا يحيطون بما بين أيديهم وما خلفهم علماً.

الثاني : المراد لا يحيطون بالله علماً والأول أولى لوجهين :

أحدهما : أن الضمير يجب عوده إلى أقرب المذكورات والأقرب ههنا قوله (مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ) .

وثانيهما : أنه تعالى أورد ذلك مورد الزجر ليعلم أن سائر ما يقدمون عليه وما يستحقون به المجازاة معلوم لله تعالى .

كما قال تعالى في سورة البقرة (ولا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ) قوله (من علمه) ذكر المفسرون قولان:

الأول: العلم هنا بمعنى المعلوم.

والثاني: العلم هنا علم ذاته وصفاته.

فعلى القول الأول: قال الطبري: لا يعلم أحد سواه شيئاً إلا بما شاء هو أن يُعلمه، فأراد فعلّمه.

وقال ابن عطية: لا معلوم لأحد إلا ما شاء الله أن يُعلمه.

وعلى القول الثاني: لا يحيط أحد علماً بذاته جل جلاله وصفاته إلا ما أطلعه تعالى عليه كقوله (ولا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً).

– قال الشيخ ابن عثيمين: وقد علمنا الله تعالى أشياء كثيرة عن أسمائه وصفاته، وعن أحكامه الكونية وأحكامه الشرعية، ولكن هذا الكثير هو بالنسبة لمعلومه قليل كما قال تعالى (وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً).

الفوائد :

١. عموم علم الله تعالى لكل شيء .

٢. أن علم العبد أن الله عالم به مطلع عليه أكبر حافز للطاعة .

٣. يجب على العبد أن يراقب الله في سره وعلانيته لأن الله مطلع عليه لا يخفى عليه شيء .

٤. وجوب تعظيم الله .

٥. الخوف والحذر من عصيان الله تعالى .

(**وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا (١١١)**) .

[طه : ١١١] .

==========

(**وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ**) قالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَغَيْرُ وَاحِدٍ: خَضَعَتْ وَذَلَّتْ وَاسْتَسْلَمَتِ الْخَلَائِقُ لِجَبَّارِهَا الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ، الْقَيُّومُ الَّذِي لَا يَنَامُ، وَهُوَ قَيِّمٌ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ يُدَبِّرُهُ وَيَحْفَظُهُ، فَهُوَ الْكَامِلُ فِي نَفْسِهِ، الَّذِي كَلُّ شَيْءٍ فَقِيرٌ إِلَيْهِ لَا قِوَامَ لَهُ إِلَّا بِهِ. (ابن كثير)

وخَصَّ الوُجوهَ؛ لشَرفِها، ولأنَّ آثارَ الذُّلِّ إنَّما تظهَرُ في أوَّلِ الوُجوهِ .

(**الحي**) الذي له الحياة الكاملة.

ومعناه: أي: ذو الحياة الكاملة المتضمنة لجميع صفات الكمال لم تسبق بعدم، ولا يلحقها زوال، ولا يعتريها نقص بوجه من الوجوه.

قال ابن كثير: أي الحي في نفسه الذي لا يموت أبداً.

وقال البغوي: الباقي الدائم على الأبد.

وقال الطبري: الذي له الحياة الدائمة، والبقاء الذي لا أول له بحد، ولا آخره له أمد، إذ كل ما سواه فإنه وإن كان حياً فلحياته أول محدود، وآخر ممدود ينقطع بانقطاع أمدها، وينقضي بقضاء غايتها.

وقد ورد اسم الحي لله تعالى في عدة آيات:

قال تعالى (اللَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ).

وقال تعالى (وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ).

وقال تعالى (وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ).

وقال تعالى (هُوَ الْحَيُّ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ).

- واسم الحي من أعظم الأسماء، لأنه يستلزم جميع صفات الكمال لله تعالى.

- كل ما سوى الله ميت.

قال تعالى (كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ).

وقال تعالى (كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ).

وقال تعالى (كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ. وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَالْإِكْرَامِ).

وقد جاء في الحديث (أن جبريل قال للنبي ﷺ: يا محمد عش ما شئت فإنك ميت، وأحبب من شئت فإنه مفارقه).

(**الْقَيُّومِ**) أي: القائم بنفسه القائم على غيره، المتضمن لصفة القيومية.

قال ابن كثير: هو القيّم لغيره، فجميع الموجودات مفتقرة إليه، وهو غني عنها، ولا قوام لها بدون أمره.

وقال ابن القيم: هو الذي قام بنفسه فلم يحتج إلى أحد، وقام كل شيء به فكل ما سواه محتاج إليه بالذات.

وقال السعدي: القيوم: القائم بنفسه، القيوم لأهل السماوات والأرض، القائم بتدبيرهم وأرزاقهم وجميع أحوالهم.

وهذا الاسم له شأن عظيم، قال ابن أبي العز: وأما القيوم، فهو متضمن كمال غناه وكمال قدرته، فإنه القائم بنفسه، فلا يحتاج إلى غيره بوجه من الوجوه، المقيم لغيره، فلا قيام لغيره إلا بإقامته.

وقد وردت عدة نصوص في القرآن الكريم تدل على أن قيام الموجودات وبقاءها وحفظها بأمر الله ولا قوام لها بدونه.

قال تعالى (أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ).

وقال تعالى (وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ. وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ. لا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ. وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ. وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ. وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلا صَرِيخَ لَهُمْ وَلا هُمْ يُنْقَذُونَ. إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَمَتَاعاً إِلَى حِينٍ).

(**وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا**) أي : خسر من أشرك بالله تعالى .

وقد جاءت الْآيَاتُ الْقُرْآنِيَّةُ الدَّالَّةُ عَلَى تَسْمِيَةِ الشِّرْكِ ظُلْمًا .

كقَوْلِهِ (إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ) وَقَوْلِهِ (وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ) وَقَوْلِهِ (وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِنَ الظَّالِمِينَ) وَقَوْلِهِ (الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ) .

قال ابنُ عطية: الظُّلمُ يعُمُّ الشركَ والمعاصيَ، وخَيبةُ كلِّ حاملٍ بقَدرِ ما حَمَل من الظُّلمِ، فخيبةُ المشرِك على الإطلاقِ، وخيبةُ العاصي مُقَيَّدةٌ بوقتٍ وحَدٍّ في العقوبةِ .

الفوائد :

١. خضوع جميع الخلائق لله تعالى .

٢. أن من أسماء الله الحي الذي لا يموت .

٣. أن كل أحد سوى الله يموت .

٤. وجوب الاعتماد على الحي الذي لا يموت .

٥. أنه لا يُعتمد على من يموت ويمرض .

٦. من أسماء الله القيوم .

٧. غنى الله تعالى عن كل شيء .

٨. فقر وحاجة المخلوق لله تعالى .

٩. تحريم الشرك بالله .

١٠. أن أعظم الظلم الشرك بالله تعالى .

(وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلا يَخَافُ ظُلْمًا وَلا هَضْمًا (١١٢)) .

[طه : ١١٢] .

==========

(وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ) أي : من قدّم أعمال صالحة .

والعمل الصالح ما توفر فيه شرطان: الإخلاص لله تعالى، والمتابعة للشريعة

دليل الأول قوله ﷺ (إنما الأعمال بالنيات ...) ودليل الثاني قوله ﷺ (من عمل عملاً ليس عليه ...).

(وَهُوَ مُؤْمِنٌ) وهذا شرط لجميع الأعمال، لا تكون صالحة ولا تقبل ولا يترتب عليها الثواب ولا يندفع بها العقاب إلا بالإيمان، فالأعمال بدون الإيمان كأغصان شجرة قطع أصلها وكبناء بني على موج الماء، فالإيمان هو الأصل والأساس والقاعدة التي يبنى عليه كل شيء، وهذا القيد ينبغي التفطن له في كل عمل أطلق، فإنه مقيد به.

– فالإيمان شرط لقبول الأعمال وصحتها.

كما في هذه الآية.

وكما قال تعالى (مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ).

وقال تعالى (وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلاَ يُظْلَمُونَ نَقِيرًا) .

وقال تعالى (مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً ...).

وقال تعالى (وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِناً قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى).

وقال تعالى (وَمَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَاب).

– فأعمال الكافر مردودة غير مقبولة.

قال تعالى (وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُوراً).

وقال تعالى (مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلالُ الْبَعِيدُ).

(**فَلا يَخَافُ ظُلْمًا وَلا هَضْمًا**) الظلم : الزيادة في السيئات ، والهضم : النقص .

أي : فلا يخاف ظلماً بزيادة سيئاته ، ولا بخساً ونقصاً في حسناته .

فالله لا يظلم الناس شيئاً ، وذلك لكمال عدله، فلا ينقصون من حسناتهم، ولا يزاد عليهم في السيئات، ولا يعاقبون بظلم غيرهم.

قال تعالى (إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْراً عَظِيماً).

كما قال تعالى (ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ) .

وقال تعالى (الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ).

وقال تعالى (وَلا تُظْلَمُونَ فَتِيلاً) أي: من أعمالكم، بل توفونها أتم الجزاء، والفتيل: هو الخيط الذي يكون في بطن النواة.

قال تعالى (وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً).

– فالله عز وجل لا يظلم أحداً لكمال عدله لا لعجزه عن الظلم.

الفوائد :

١. فضل الإيمان.

٢. بيان شروط قبول العمل، وهي الإيمان والإخلاص والمتابعة.

٣. فضل العمل الصالح.

٤. ينبغي الاجتهاد أن يكون عمل الإنسان صالحاً.

٥. الحذر من الرياء وطلب المحمدة.

٦. أن المؤمن مأواه الجنة.

٧. تنزيه الله عن الظلم.

٨. كمال عدل الله تعالى.

(**وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا (١١٣)**) .

[طه : ١١٣] .

=========

(**وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا**) أي : ومثل ما أنزلنا الآيات السابقة المشتملة على الآداب والأحكام والقصص، أنزلنا عليك يا محمد القران كله، فما نزل منه متأخرا يشبه في هدايته وإعجازه ما نزل منه متقدماً.

وقد اقتضت حكمتنا أن نجعله قُرْآناً عَرَبِيًّا أي: بلغة العرب، لكي يفهموه ويقعوا على ما فيه من هدايات وإرشادات وإعجاز للبشر.

وقوله (أنزلناه) دليل على أن القرآن منزل ، أنزله الله على محمد كما قال تعالى (إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ) وقال تعالى (الر كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ) وقال تعالى (وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّراً وَنَذِيراً) وقال تعالى (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ) وقال تعالى (إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ).

(**وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ**) أي : كررنا فيه الإنذار والوعيد على سبيل التخويف والتهديد .

قال الخازن: يدخلُ تحتَ الوعيدِ بيانُ الفرائضِ والمحارمِ؛ لأنَّ الوعيدَ بهما يتعلَّقُ، فتكريرُه وتصريفُه يقتضي بيانَ الأحكام .

وقال السعدي: (وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ) أي: نوَّعناها أنواعًا كثيرةً؛ تارةً بذكرِ أسمائِه الدالةِ على العدلِ والانتقامِ، وتارةً بذكرِ المثلاتِ التي أحلَّها بالأممِ السابقةِ، وأمر أن تعتبرَ بها الأممُ اللاحقةُ، وتارةً بذكرِ آثارِ الذنوبِ، وما تكسبُه مِن العيوبِ، وتارةً بذكرِ أهوالِ القيامةِ، وما فيها مِن المزعجاتِ والمقلقاتِ، وتارةً بذكرِ جهنمَ وما فيها مِن أنوعِ العقابِ وأصنافِ العذاب، كلُّ هذا رحمةٌ بالعبادِ .

قال أبو حيان : وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لم يَذكُرِ الوعْدَ؛ لأنَّ الآيةَ سِيقَتْ مَساقَ التَّهديدِ، ولمناسَبةِ قولِه قبْلَه: وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا.

(**لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ**) أي : بترك المآثم والمحارم والفواحش .

(**أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا**) أي : تذكراً ، أي لعل القرآن يحدث لهم تذكر العذاب ، فيزجرهم عن المعاصي .

ذهب بعض العلماء إلى أن معنى (لهم ذكراً) أي : شرفاً .

قال ابن جزي : وهو ها هنا بعيد .

وقال الآلوسي : ولا يخفى أن هذا ليس بشيء .

-فالقرآن بيّن كل شيء ووضحه للناس كي يعتبروا ويتعظوا ويتذكروا .

كما قال تعالى (وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُواْ وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلاَّ نُفُوراً) .

وقال تعالى (وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلاَّ كُفُوراً) .

وقال تعالى (وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا) .

فقوله تعالى (وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ) يقول تعالى: ولقد بينا للناس في هذا القرآن ووضحنا لهم الأمور وفصّلناها كيلا يضلوا عن الحق ويخرجوا عن طريق الهدى، من الوعد والوعيد، والقصص، والأمثال، والمواعظ والأخبار، والآداب والتشريعات، ومع هذا البيان وهذا الفرقان، الإنسان كثير المجادلة والمخاصمة والمعارضة للحق بالباطل إلا من هدى الله وبصره لطريق النجاة .

وقوله تعالى (وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُواْ ...) ولقد بَيَّنَّا ونوَّعْنا وأكثَرْنا في هذا القُرآنِ العِبَرَ والمواعِظَ، والحِكَمَ والأمثالَ، والحُجَجَ والأدِلَّةَ؛ ليتَذَكَّروا ويتَّعِظوا، وما يزيدُ الظَّالِمينَ هذا التَّصريفُ والتَّذكيرُ بآياتِ القُرآنِ إلَّا ذَهابًا وهربًا من الحَقِّ، وتَباعُدًا عن الإيمانِ، وغفلةً عنِ النَّظَرِ والاعتبارِ، وعكوفا على باطلهم، بسبب جحودهم وعنادهم وحسدهم للرسول ﷺ على ما آتاه الله من فضله.

قال الرازي : اعلم أن التصريف في اللغة عبارة عن صرف الشيء من جهة إلى جهة ، نحو تصريف الرياح وتصريف الأمور هذا هو الأصل في اللغة ، ثم جعل لفظ التصريف كناية عن التبيين ، لأن من حاول بيان شيء فإنه يصرف كلامه من نوع إلى نوع آخر ومن مثال إلى مثال آخر ليكمل الإيضاح ويقوي البيان .

الفوائد :

١. أن القرآن منزل غير مخلوق .

٢. عظمة الله تعالى .

٣. أن القرآن نوّع أساليبه في دعوة الكفار مرة بالترغيب ومرة بالترهيب ومرة بذكر قصص الأمم الهالكة وغير ذلك .

٤. من حكم إنزال القرآن الإنذار والتخويف .

٥. رحمة الله بعباده حيث يخوفهم لعلهم يتوبون .

(فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا (١١٤)) .

[طه : ١١٤] .

=========

(**فَتَعَالَى اللَّهُ**) أيْ : تَنَزَّهَ وَتَقَدَّسَ الْمَلِكُ الْحَقُّ الَّذِي هُوَ حَقٌّ وَوَعْدُهُ حَقٌّ، وَوَعِيدُهُ حَقٌّ وَرُسُلُهُ حَقٌّ، وَالْجَنَّةُ حَقٌّ وَالنَّارُ حَقٌّ وَكُلُّ شَيْءٍ مِنْهُ حَقٌّ، وَعَدْلُهُ تعالى أن لا يُعَذِّبَ أَحَدًا قَبْلَ الْإِنْذَارِ وَبَعْثَةِ الرُّسُلِ، وَالْإِعْذَارِ إِلَى خَلْقِهِ لِئَلَّا يَبْقَى لِأَحَدٍ حُجَّةٌ وَلَا شُبْهَةٌ.

(**الْمَلِكُ**) الذي الملك وصفه، والخلق كلهم مماليك له، وأحكام الملك القدرية والشرعية، نافذة فيهم.

(**الْحَقُّ**) أي: وجوده وملكه وكماله حق، فصفات الكمال، لا تكون حقيقة إلا لذي الجلال، ومن ذلك: الملك، فإن غيره من الخلق، وإن كان له ملك في بعض الأوقات، على بعض الأشياء، فإنه ملك قاصر باطل يزول، وأما الرب، فلا يزال ولا يزول ملكا حيا قيوما جليلا.

قال الرازي : إنَّما وصَفَ مُلكَه بالحَقِّ؛ لأنَّ مُلكَه لا يزولُ ولا يتغَيَّرُ، وليس بمستفادٍ مِن قِبَلِ الغَيرِ، ولا غيرُه أولى به؛ ولهذا وُصِفَ بذلك .

وقال ابن عاشور : الْحَقُّ: الَّذي ليس في مُلْكِه شائبةُ عجْزٍ، ولا خُضوعٍ لغَيرِه. وفيه تَعريضٌ بأنَّ مُلْكَ غيرِه زائفٌ، وأنَّ مُلْكَ غيرِه من المتسمِّينَ بالملوكِ لا يَخْلو من نقْصٍ، كما قال تعالى: الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ

(**وَلا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَى إِلَيْكَ وحيه**) أي: ولا تتعجل بقراءة القرآن من قبل أن ينتهى جبريل من إبلاغه إليك، قالوا: وكان النبي ﷺ كلما قرأ عليه جبريل آية قرأها معه، وذلك لشدة حرصه على حفظ القرآن، ولشدة شوقه إلى سماعه، فأرشده الله تعالى في هذه الآية إلى كيفية تلقى القرآن عن جبريل، ونهاه عن التعجل في القراءة.

وشبيه بهذه الآية قوله تعالى: لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ. إِنَّ عَلَيْنا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ. فَإِذا قَرَأْناهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ. ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنا بَيانَهُ .

ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، كان يعالج من الوحي شدة، فكان مما يحرك به لِسَانَهُ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ هَذِهِ الْآيَةَ ، يَعْنِي أَنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ إِذَا جَاءَهُ جِبْرِيلُ بِالْوَحْيِ، كُلَّمَا قَالَ جِبْرِيلُ آيَةً قَالَهَا مَعَهُ مِنْ شِدَّةِ حِرْصِهِ عَلَى حِفْظِ الْقُرْآنِ، فَأَرْشَدَهُ اللَّهُ تَعَالَى إِلَى مَا هُوَ الْأَسْهَلُ وَالْأَخَفُّ فِي حَقِّهِ لِئَلَّا يَشُقَّ عَلَيْهِ، فَقَالَ: لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ إِنَّ عَلَيْنا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ، أَيْ أَنْ نَجْمَعَهُ فِي صَدْرِكَ، ثُمَّ تَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ مِنْ غَيْرِ أَنْ تَنْسَى مِنْهُ شَيْئًا فَإِذا قَرَأْناهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنا بَيانَهُ

وَقَالَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ وَلا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضى إِلَيْكَ وَحْيُهُ، أَيْ بَلْ أَنْصِتْ، فَإِذَا فَرَغَ الْمَلَكُ مِنْ قِرَاءَتِهِ عَلَيْكَ فَاقْرَأْهُ بَعْدَهُ.

(**وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا**) أي : اسأل الله زيادة العلم النافع .

ولذلك جاء في الحديث (اللهم إني أسألك علماً نافعاً) .

قال السعدي : أمَرَ تعالى نبيَّه ﷺ أن يسألَه زيادةَ العِلمِ؛ فإنَّ العِلمَ خَيرٌ، وكَثرةُ الخيرِ مَطلوبةٌ، وهي مِنَ الله، والطَّريقُ إليها الاجتِهادُ والشَّوقُ للعِلمِ، وسؤالُ اللهِ والاستعانةُ به، والافتِقارُ إليه في كُلِّ وَقتٍ .

ففي الآية دليلٌ على فَضْلِ العِلْمِ، فلم يَقُلْ سُبحانَه لِنَبِيِّه: «وقلْ ربِّ زدني مالًا» بل قال له: وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا، فكفى بهذا شرفًا للعلم أنْ أمَرَ نبَّيه أن يسألَه المزيدَ منه . وقد قيل: (ما أمَرَ اللهُ رَسولَه بطَلَبِ الزِّيادةِ في شَيءٍ إلَّا في العِلمِ) .

قال ابن القيم: وكفى بهذا شرفاً للعلم أن أمر نبيه أن يسأله المزيد منه.

وقال القرطبي: فلو كان شيء أَشْرَفَ مِنَ الْعِلْمِ لَأَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى نَبِيَّهُ ﷺ أَنْ يَسْأَلَهُ الْمَزِيدَ مِنْهُ كَمَا أَمَرَ أَنْ يَسْتَزِيدَهُ مِنَ الْعِلْمِ.

وقال ابن حجر: واضح الدلالة في فضل العلم لأن الله تعالى لم يأمر نبيه ﷺ بطلب الازدياد من شيء إلا من العلم.

وفي هذا فضل طلب العلم :

-فهو من أسباب دخول الجنة.

كما قال ﷺ (وَمَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا سَهَّلَ اللَّهُ لَهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ) رواه مسلم .

-ومن أسباب الرفعة.

قال تعالى (يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات).

-أن الله لم يأمر نبيه بالاستزادة إلا من العلم.

قال تعالى (وقل رب زدني علماً).

-أن الله استشهدهم وقرن شهادتهم بشهادته وشهادة الملائكة.

قال تعالى (شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائماً بالقسط).

قال القرطبي: هذه الآية دليل على فضل العلم وشرف العلماء، فإنه لو كان أحد أشرف من العلماء لقرنهم الله باسمه واسم ملائكته كما قرن العلماء.

-أن العلم دليل على الخير.

قال ﷺ (من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين) متفق عليه.

قال الحافظ ابن حجر: يفقهه: أي يفهمه، ومفهوم الحديث أن من لم يتفقه في الدين-أي يتعلم قواعد الإسلام وما يتصل بها من الفروع- فقد حرم الخير.

-أن الملائكة تضع أجنحتها لطالب العلم.

قال ﷺ (وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضاً بما يصنع) رواه أبو داود.

قال ابن القيم: ووضع الملائكة أجنحتها له تواضعاً له وتوقيراً وإكراماً لما يحمله من ميراث النبوة.

قال الخطابي: وفي معنى وضعها أجنحتها ثلاثة أقوال:

أحدها: أنه بسط الأجنحة. الثاني: أنه بمعنى التواضع تعظيماً لطالب العلم. الثالث: أنه المراد به النزول عند مجالس العلم وترك الطيران .

-العلماء ورثة الأنبياء.

قال ﷺ (وإن العلماء ورثة الأنبياء) رواه أبو داود.

من أقوال السلف.

قال الشافعي: ليس شيء بعد الفرائض أفضل من طلب العلم.

وقال: من أراد الدنيا فعليه بالعلم، ومن أراد الآخرة فعليه بالعلم.

وقال سهل بن عبد الله: من أراد النظر إلى مجالس الأنبياء فلينظر إلى مجالس العلماء.

وقال الزهري: ما عبد الله بمثل الفقه.

وقال الثوري: ما من عملٍ أفضل من طلب العلم إذا صحت النية.

قال ابن القيم: من طلب العلم ليحيي به الإسلام فهو من الصديقين، ودرجته بعد درجة النبوة.

الفوائد :

١. وجوب تنزيه الله عن كل نقص وعيب .

٢. وجوب تعظيم الله تعالى .

٣. أن الملك لله تعالى .

٤. محبة العلم .

٥. شرف العلم .

قال السعدي : ويؤخذ من هذه الآية الكريمة الأدب في تلقي العلم وأن المستمع للعلم ينبغي له أن يتأنى ويصبر حتى يفرغ المملي والمعلم من كلامه المتصل بعضه ببعض فإذا فرغ منه سأل إن كان عنده سؤال ولا يبادر بالسؤال وقطع كلام ملقي العلم فإنه سبب للحرمان وكذلك المسئول ينبغي له أن يستملي سؤال السائل ويعرف المقصود منه قبل الجواب فإن ذلك سبب لإصابة الصواب .

قال البقاعي : في هذا دليلٌ على أنَّ التأنِّيَ في العِلمِ بالتَّدبُّرِ وبإلقاءِ السَّمعِ أنفَعُ مِن الاستعجالِ المتعِبِ للبالِ، المكَدِّرِ للحالِ، وأعوَنُ على الحِفظِ، فمن وعى شيئًا حقَّ الوعيِ حَفِظَه غايةَ الحِفظِ .

(وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا (١١٥) وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى (١١٦)) .

[طه : ١١٥-١١٦] .

==========

(وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا) أي: ولقَدْ وصَّيْنا آدَمَ -وهو في الجنَّةِ- بألَّا يأكُلَ مِن الشَّجَرةِ ولا يَقرَبَها، وحَذَّرْناه مِن طاعةِ الشَّيطانِ .

قال الثعالبي : العهدُ هنا بمعنى الوصِيّة ، والشيءُ الّذي عهد إلى آدم عليه السلام هو ألاَّ يقرَبَ الشجرة.

وقوله (من قبل) قال الرازي: في قولِه تعالَى: مِنْ قَبْلُ وجوهٌ: أحدُها: مِن قبلِ هؤلاءِ الَّذين صَرَّفْنا لهم الوعيدَ في القرآنِ. وثانيها: **قالَ ابنُ عَبَّاسٍ**: مِن قبلِ أنْ يأكُلَ مِن الشَّجرةِ عَهِدْنا إليه ألَّا يأكُلَ منها. وثالثُها: أي: مِن قبلِ محمَّدٍ ﷺ والقرآنِ.

قال البقاعي : أي في زمن من الأزمان الماضية قبل هؤلاء الذين تقدم في هذه السورة ذكر نسيانهم وإعراضهم .

وقال ابن الجوزي : (مِنْ قَبْلُ) أي: مِنْ قبل هؤلاء الذين نقضوا عهدي وتركوا الإيمان بي، وهم الذين ذكرهم في قوله لعلَّهم يَتَّقون).

وقال القرطبي : ومعنى "مِنْ قَبْلُ" أي من قبل أن يأكل من الشجرة ؛ لأنه نهي عنها.

(فَنَسِيَ) في هذا النسيان قولان.

أحدهما : أنه التَّرك ، قاله ابن عباس ، ومجاهد ، والمعنى : ترك ما أُمِر به.

قال القرطبي : أي تَرَكَ الأمر والعهد ؛ وهذا قول مجاهد وأكثر المفسرين ومنه "نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ".

والعرب تطلق النسيان وتريد به الترك ولو عمداً ، ومنه قوله تعالى (قَالَ كذلك أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وكذلك اليوم تنسى) فالمراد في هذه الآية : الترك قصداً. وكقوله تعالى (فاليوم نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هذا وَمَا كَانُواْ بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ) .

على هذا فمعنى قوله (فَنَسِيَ) أي ترك الوفاء بالعهد ، وخالف ما أمره الله به من ترك الأكل من تلك الشجرة ، لأن النهي عن الشيء يستلزم الأمر بضده. (أضواء)

والثاني : أنه من النسيان الذي يخالف الذِّكْر .

قال القرطبي : وعلى هذا القول يحتمل أن يكون آدم عليه السلام في ذلك الوقت مأخوذاً بالنسيان، وإن كان النسيان عنا اليوم مرفوعاً.

قال الشنقيطي : لأن إبليس لما أقسم له بالله أنه له ناصح فيما دعاه إليه من الأكل من الشجرة التي نهاه ربه عنها – غره وخدعه بذلك ، حتى أنساه العهد المذكور. كما يشير إليه قوله تعالى (وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ الناصحين فَدَلاَّهُمَا بِغُرُورٍ) .

أما على القول الأول فلا إشكال في قوله (وعصى ءَادَمُ رَبَّهُ فغوى) وأما على الثاني ففيه إشكال معروف. لأن الناسي معذور فكيف يقال فيه (وعصى ءَادَمُ رَبَّهُ فغوى) وأظهر أوجه الجواب عندي عن ذلك: أن آدم لم يكن معذوراً بالنسيان. وقد بينت في كتابي (دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب) الأدلة الدالة على أن العذر بالنسيان والخطأ والإكراه من خصائص هذه الأمة. كقوله هنا (فَنَسِيَ) مع قوله (وعصى) فأسند إليه النسيان والعصيان، فدل على أنه غير معذور بالنسيان. ومما يدل على هذا ما ثبت في صحيح مسلم من حديث ابن عباس وأبي هريرة : أن النَّبي ﷺ لما قرأ (رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا) قال الله نعم قد فعلت. فلو كان ذلك معفواً عن جميع الأمم لما كان لذكره على سبيل الامتنان وتعظيم المنة عظيم موقع. ويستأنس لذلك بقوله (كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الذين مِن قَبْلِنَا) ويؤيد ذلك حديث : (إن الله تجاوز لي عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه) .

(**وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا**) أي : تصميماً في حفظه . إذ لو كان كذلك ، لما أزلّه الشيطان ولما استطاع أن يغرّه .

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة : (وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً) يدل على أن أبانا آدم عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام ليس من الرسل الذين قال الله فيهم (فاصبر كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ العزم مِنَ الرسل) وهم : نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ومحمد ﷺ. وقيل: هم جميع الرسل. وعن ابن عباس وقتادة (وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً) أي لم نجد له صبراً عن أكل الشجرة ومواظبة على التزام الأمر. وأقوال العلماء راجعة إلى هذا .

(**وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى**) هذا كرامة عظيمة من الله تعالى لآدم امتن بها على ذريته، حيث أخبر أنه تعالى أمر الملائكة بالسجود لآدم.

قال الآلوسي: وحكمة الأمر بالسجود إظهار الاعتراف بفضله عليه السلام .

(**فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ**) أي سجدوا جميعاً غير إبليس.

(**أبي**) رفض وأبى واستكبر كما قال تعالى (فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِ) .

وقال تعالى عنه (قَالَ أَنَاْ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ) .

فائدة : ١

قوله تعالى (**وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ**) اختلف العلماء ما المراد بالملائكة:

فقيل: ملائكة الأرض فقط.

وقيل: ملائكة الأرض والسماء.

ونسبه الرازي للأكثر.

ورجحه ابن كثير، لقوله تعالى (فَسَجَدَ الملائكة كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ).

قال القاسمي: اختلفوا في الملائكة الذين أمروا بالسجود، فقيل: هم الذين كانوا مع إبليس في الأرض.

قال تقي الدين ابن تيمية: هذا القول ليس من أقوال المسلمين واليهود والنصارى، وقيل: هم جميع الملائكة حتى جبريل وميكائيل، وهذا قول العامة من أهل العلم بالكتاب والسنة. (تفسير القاسمي).

وقال ابن تيمية: ومن قال خلافه فقد رد القرآن بالكذب والبهتان، لأنه سبحانه قال (فسجد الملائكة كلهم أجمعون) وهذا تأكيد للعموم. ... (مجموع الفتاوي).

فائدة : ٢

– قوله تعالى (**اسْجُدُوا لِآدَمَ** ...) اختلف ما المراد بالسجود:

فقيل: المراد بالسجود الخضوع لا الانحناء.

قال الرازي مضعفاً هذا القول: ... فضعيف أيضاً؛ لأن السجود لا شك أنه في عرف الشرع عبارة عن وضع الجبهة على الأرض فوجب أن يكون في أصل اللغة كذلك؛ لأن الأصل عدم التغيير.

وقيل: كان قبلة والسجدة لله.

وقيل: السجود لآدم إكراماً واحتراماً، وهي طاعة لله لأنها امتثال لأمر الله تعالى.

وهذا القول هو الراجح .

فهذا السجود تعظيم لله لأنه امتثال أمره لا عبادة آدم، ولا سجود إلا بأمر الله، والأمر إن كان ممتثلاً به أمر الله فالمطاع فيه الله، ونظيره أن ملَك الموت يقال له: اقبض روح محمد ﷺ وسائر الأنبياء، فأي جريمة في الدنيا أعظم من قتل النبي ﷺ ونزع روحه، وقتل الأنبياء والأولياء؟ لكن ملك الموت مأمور من الله، فهو مطيع في ذلك الفعل، لأنه إنما فعله بأمر الله.

فائدة : ٣

هذا الأمر بالسجود كان قبل خلق آدم كما قال تعالى في الحجر (وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ).

قال الشنقيطي: قوله تعالى (وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسجدوا لآدَمَ) لم يبين هنا هل قال لهم ذلك قبل خلق آدم أَو بعد خلقه؟ وقد صرح في سورة الحجر وص؛ بأنه قال لهم ذلك قبل خلق آدم، فقال في الحجر (وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلآئِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ)، وقال في سورة ص (إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِّن طِينٍ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ).

فائدة : ٤

إبليس سمي بذلك لأنه أبلَسَ من رحمة الله: أي أيس منها يأساً لا رجاء بعده.

فائدة : ٥

قوله تعالى (**فَسَجَدُواْ إِلاَّ إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا**) وفي البقرة (فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى ...) لم يبين سبب رفض واستكبار إبليس عن السجود لكنه بينه تعالى في آيات أخرى كقوله تعالى (قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ أنا خير).

وهذا قياس فاسد لأمور:

أولاً: أنه في مقابلة النص، وأي قياس في مقابلة النص فاسد الاعتبار.

ثانياً: أنا لا نسلم أن النار خير من الطين، بل الطين خير من النار، لأن طبيعتها الطيش والإفساد والتفريق، وطبيعته الرزانة والإصلاح.

ثالثاً: أنا لو سلمنا تسليماً جدلياً أن النار خير من الطين، فإنه لا يلزم من ذلك أن إبليس خير من آدم، لأن شرف الأصل لا يقتضي شرف الفرع.

فائدة : ٦

قوله تعالى: (فسجدوا إلا إبليس) استدل بها بعض العلماء على أن إبليس من الملائكة، وهذه المسألة اختلف فيها العلماء على قولين:

القول الأول: أن إبليس ليس من الملائكة بل هو من الجن.

أ-للآية التي في سورة الكهف (إلا إبليس كان من الجن) والجن غير الملائكة، وهذا نص قرآني صريح في محل النزاع.

ب- ولأن الملائكة معصومين من ارتكاب الكفر الذي ارتكبه إبليس كما قال تعالى عنهم (لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ).

ج- ولقوله ﷺ (خلقت الملائكة من نور، وخلق الجان من مارج من نار) رواه مسلم.

د- أن إبليس له نسل وذرية قال الله تعالى (أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدو).

وقالوا إن استثناء الله إياه منهم لا يدل على كونه من جملتهم، وإنما استثناه منهم، لأنه كان مأموراً بالسجود معهم، فلما دخل معهم في الأمر جاز إخراجه بالاستثناء منهم.

القول الثاني: أن أصله كان من الملائكة.

ونسب هذا القول القرطبي لجمهور العلماء.

قال القاسمي: قاله ابن عباس، وابن مسعود، وسعيد بن المسيب، واختاره الشيخ موفق الدين، والشيخ أبو الحسن الأشعري، وأئمة المالكية، وابن جرير الطبري. قال البغوي: هذا قول أكثر المفسرين.

لأنه سبحانه أمر الملائكة بالسجود لآدم. قال تعالى: (وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ) فلولا أنه من الملائكة، لما توجه الأمر إليه بالسجود، ولو لم يتوجه الأمر إليه بالسجود لم يكن عاصياً، ولما استحق الخزي والنكال.

وقالوا: فإخراجه بالاستثناء منهم دليل على أنه منهم.

فائدة : ٧

قال الماوردي: وعلى قول من يقول: إن إبليس كان من الملائكة، فاختلفوا في قوله تعالى (إِلاَّ إِبْلِيسَ كان مِنَ الْجِنِّ) لِمَ سماه الله تعالى بهذا الاسم، على أربعة أقاويل:

أحدها: أنهم حي من الملائكة يُسَمَّوْن جنّاً كانوا من أشدِّ الملائكة اجتهاداً، وهذا قول ابن عباس.
والثاني: أنه جعل من الجنّ، لأنه من خُزَّانِ الجنَّةِ، فاشتق اسمه منها، وهذا قول ابن مسعود.
والثالث: أنه سمي بذلك لأنه جُنَّ عن طاعة ربِّه، وهذا قول ابن زيدٍ.
والرابع: أن الجِنّ لكلِّ ما اجْتَنَّ فلم يظهر، حتى إنهم سَمَّوُا الملائكة جناً لاستتارهم، وهذا قول أبي إسحاق.

فائدة : ٨

بيان فضل آدم على الملائكة، حيت أن الله أمر الملائكة أن يسجدوا له تعظيماً له، ولآدم فضائل:
أنه أبو البشر – خلقه الله بيده – علمه الله أسماء كل شيء – أن الله نفخ فيه من روحه – وأسجد له الملائكة.

فائدة : ٩

أن السجود لغير الله إذا كان بأمر الله فهو عبادة، لأن الله تعالى يحكم بما شاء، ويدل على أن المحرم إذا كان بأمر الله كان عبادة قصة إبراهيم عليه السلام ، حين أمره الله أن يذبح ابنه إسماعيل فامتثل أمر الله.

فائدة : ١٠

أن ترك السجود لله كفر بالله.

فائدة : ١١

أن الأمر يقتضي الوجوب إذا لم يوجد قرينة، وجه الدلالة: أن الله قال للملائكة (اسجدوا) فلما امتنع إبليس وبّخه وحكم عليه بالعصيان وقال (قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ). ومما يدل على أن الأمر للوجوب قوله تعالى (فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ).

فائدة : ١٢

الحذر من الرجس والسريرة الخبيثة، لأن إبليس غلبه ما في قلبه من الرجس والسريرة الخبيثة حتى استكبر وأبى.

فائدة : ١٣

طاعة الملائكة لربها.

(فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى (١١٧) إِنَّ لَكَ أَلاَّ تَجُوعَ فِيهَا وَلا تَعْرَى (١١٨) وَأَنَّكَ لا تَظْمَأُ فِيهَا وَلا تَضْحَى (١١٩)) .

[طه : ١١٧-١١٩] .

==========

(فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ) حواء .

(فَلا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى) أي : إياك أن تسعى فِي إِخْرَاجِكَ مِنْهَا فَتَتْعَبَ وَتُعَنَّى وَتَشْقَى فِي طَلَبِ رِزْقِكَ، فَإِنَّكَ هَاهُنَا فِي عَيْشٍ رَغِيدٍ هنيء بلا كُلْفَةَ وَلَا مَشَقَّةَ .

قال ابن الجوزي : (فتشقى) قال المفسرون : المراد به نَصَب الدُّنيا وتعبها من تكلُّف الحرث والزرع والعجن والخَبْز وغير ذلك.

وقال القرطبي : (فتشق) تعباً ونصباً؛ أي جُعْتَ وعريتَ وظَمئتَ وأصابتك الشمس؛ لأنك ترد إلى الأرض إذا أخرجت من الجنة.

وقال الآلوسي : (فتشقى) أي فتتعب بمتاعب الدنيا وهي لا تكاد تحصى ولا يسلم منها أحد .

وقال الشنقيطي : أي فتتعب في طلب المعيشة بالكد والاكتساب. لأنه لا يحصل لقمة العيش في الدنيا بعد الخروج من الجنة حتى يحرث الأرض ، ثم يزرعها ، ثم يقوم على الزرع حتى يدرك ، ثم يدسه ، ثم ينقيه ، ثم يطحنه ، ثم يعجنه ، ثم يخبره. فهذا شقاؤه المذكور... يعني احذر من عدوك أن يخرجك من دار الراحة التي يضمن لك فيها الشبع والري ، والكسوة والسكن.

وقال ابن عاشور : ... لأنّ العدوّ لا يروقه صلاح حال عدوه.

قال ابن الجوزي : قال العلماء : والمعنى : فتشقَيا ؛ وإنما لم يقل : فتشقيا ، لوجهين.

أحدهما : أن آدم هو المخاطَب ، فاكتفى به ، قاله الفراء.

والثاني : أنه لما كان آدم هو الكاسب ،كان التعب في حَقِّه أكثر ، ذكره الماوردي.

قال ابن عاشور : وأسند ترتب الشقاء إلى آدم خاصة دون زوجه إيجازاً ، لأنّ في شقاء أحد الزوجين شقاء الآخر لتلازمهما في الكون مع الإيماء إلى أنّ شقاء الذكر أصل شقاء المرأة ، مع ما في ذلك من رعاية الفاصلة.

(**إِنَّ لَكَ أَلاَّ تَجُوعَ فِيهَا وَلا تَعْرَى**) أي : لا ينالك جوع ولا عري .

قال ابن كثير : إِنَّمَا قَرَنَ بَيْنَ الْجُوعِ وَالْعُرْيِ، لِأَنَّ الْجُوعَ ذُلُّ الْبَاطِنِ، وَالْعُرْيَ ذُلُّ الظاهر .

(**وَأَنَّكَ لا تَظْمَأُ فِيهَا**) أي: وأنَّك لا تَعطَشُ في الجنَّةِ .

(**وَلا تَضْحَى**) أي: لا تصيرُ بارزًا للشمسِ، ليس لك ما تستكِنُّ فيه مِن حرِّها .

قال ابن كثير : وَهَذَانَ أَيْضًا مُتَقَابِلَانِ، فَالظَّمَأُ حَرُّ الْبَاطِنِ وَهُوَ الْعَطَشُ، وَالضُّحَى حَرُّ الظَّاهِرِ.

قال ابن عطية : المعنى (إن لك) يا آدم نعمة تامة وعطية مستمرة أن لا يصيبك جوع ولا عري ولا ظمأ ولا بروز للشمس يؤذيك وهو الضحاء .

قال السعدي : ضمن له استمرار الطعام والشراب، والكسوة، والماء، وعدم التعب والنصب، ولكنه نهاه عن أكل شجرة معينة فقال (وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ) فلم يزل الشيطان يسول لهما، ويزين أكل الشجرة .

اختلق العلماء في الجنة التي أسكنها آدم هل هي جنة الخلد أم لا على قولين:

القول الأول: أنها ليست جنة الخلد، وإنما جنة في الأرض. واستدلوا:

قالوا: إن جنة الخلد يكون دخولها يوم القيامة، ولم يأت زمن دخولها.

وقالوا: وصف الله الجنة بأنها (دار المقامة) فمن دخلها أقام بها، ولم يقم آدم بالجنة التي دخلها.

وقالوا: إن جنة الخلد دار سلامة مطلقة، لا دار ابتلاء وامتحان، وقد ابتلي فيها آدم بأعظم الابتلاء.

وقالوا: ولو كان آدم أسكن جنة الخلد، فكيف توصل إليها إبليس الرجس النجس المذموم حتى فتن فيها آدم.

القول الثاني: أنها جنة الخلد. واستدلوا:

بقوله تعالى (اهبطوا) والهبوط يكون من أعلى إلى أسفل.

وقالوا: إن الله وصفها بصفات لا تكون إلا في جنات الخلد فقال (إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى، وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى) وهذا لا يكون في الدنيا أصلاً.

وجاء في الصحيحين في حديث احتجاج آدم وموسى، (قال موسى لآدم: أخرجتنا ونفسك من الجنة) ولو كانت في الأرض فهم قد خرجوا من بساتين، فلم يخرجوا من الجنة.

وهذا القول هو الصحيح.

الفوائد :

١. عداوة إبليس لآدم وذريته .

٢. أن الجنة التي سكنها آدم هي جنة الخلد .

٣. أن الجنة فيها كل النعيم والراحة ، فلا جوع فيها ولا عطش ولا ظمأ .

٤. أن الدنيا دار التعب والكد والمشقة .

(فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لاَّ يَبْلَى (١٢٠) فَأَكَلا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى (١٢١) ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى (١٢٢)) .

[طه : ١٢٠-١٢٢] .

==========

(فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ) حدّثه خفية بطريق الوسوسة .

قد تقدم أنه (فدلاهما بغرور) (وَقاسَمَهُما إِنِّي لَكُما لَمِنَ النَّاصِحِينَ) .

قال القرطبي: ولا خلاف بين أهل التأويل وغيرهم أن إبليس كان متولّي إغواء آدم؛ واختلف في الكيفية: فقال ابن مسعود وابن عباس وجمهور العلماء: أغواهما مشافهة؛ ودليل ذلك قوله تعالى (وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ الناصحين) والمقاسمة ظاهرها المشافهة.

فإن قيل : كيف وسوس إبليس لهما؟.

قيل: أنه دخل في فم الحية.

وقيل: أنه مُنع من دخولها مكرماً، أما على وجه الإهانة فلا يمتنع.

وقيل: أنه وسوس لهما وهو بالأرض.

وقيل: أنه وسوس إلى آدم وهو خارج باب الجنة. والله أعلم بالصواب.

(قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ) أي: الشجرة التي من أكل منها خلد في الجنة.

قال البقاعي : (على شجرة الخلد) أي التي من أكل منها خلد ، فإن الإنسان أحب شيء في طول البقاء .

(وَمُلْكٍ لاَّ يَبْلَى) أي: لا ينقطع إذا أكلت منها، فأتاه بصورة ناصح، وتلطف له في الكلام، فاغتر به آدم، وأكلا من الشجرة. كما قال تعالى (مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ) .

(فَأَكَلا مِنْهَا) أي : أكل آدم وحواء من الشجرة التي نهاهما الله عنها .

(فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا) فظَهَرت لهما عوراتُهما بعدما كانت مستورةً عن أعيُنِهما .

قال الشنقيطي : الفاءُ في قَولِه فَأَكَلَا تدُلُّ على أنَّ سَبَبَ أكلِهما هو وسوسةُ الشَّيطانِ المذكورةُ قَبلَه في قَولِه: فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ أي: فأكلا منها بسبَبِ تلك الوسوسةِ. وكذلك الفاءُ في قوله: فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا تدُلُّ على أنَّ سَبَبَ ذلك هو أكلُهما من الشَّجَرةِ المذكورةِ، فكانت وسوسةُ الشيطانِ سَببًا للأكلِ مِن تلك الشَّجَرةِ، وكان الأكلُ منها سببًا لبدُوِّ سَوءاتِهما) .

(وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ) أي: وأخَذَ آدَمُ وحَوَّاءُ يُلصِقانِ عليهما مِن وَرَقِ أشجارِ الجَنَّةِ؛ لِيَستُرا به عوراتِهما.

(وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى) أي: وخالَف آدَمُ وصِيَّةَ رَبِّه، فأكَل مِن الشَّجَرةِ التي نَهاه اللهُ عن الأكلِ منها، فأخطأَ طَريقَ الصَّوابِ، ولم يحصُلْ على ما وعَدَه الشَّيطانُ .

فالمعصية خلاف الطاعة. فقوله (وعصى ءَادَمُ رَبَّهُ) أي لم يطعه في اجتناب ما نهاه عنه مِن قُربان تلك الشجرة.

وقوله : (فغوى) الغي : الضلال ، وهو الذهاب عن طريق الصواب.

فمعنى الآية : لم يُطِع آدمُ ربَّه فأخطأ طريق الصواب بسبب عدم الطاعة ، وهذا العصيان والغي بيَّن الله جل وعلا في غير موضع مِن كتابه أن المراد به : أن الله أباح له أن يأكل هو وامرأته مِن الجنة رَغَداً حيثُ شاءَا ، ونهاهما أن يَقرَبا شجرة مُعينة من شجرها. فلم يزل الشيطان يُوسوس لهما ويَحْلِف لهما بالله إنه لهما نَاصِح ، وإنَّهما إنْ أكلا منهما نالا الخُلود والمُلْك الذي لا يَبْلى. فخدعهما بذلك كما نصّ الله على ذلك في قوله (وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ الناصحين) (فَدَلاَّهُمَا بِغُرُورٍ) .

وقول بعض أهل العلم: إن معنى قوله (فغوى) أي فسد عليه عيشه بِنُزوله إلى الدنيا، قالوا : والغي. الفساد، خلاف الظاهر وإن حكاه النقاش واختاره القشيري واستحسنه القرطبي. وكذلك قول من قال (فغوى) أي بشم من كثرة الأكل. والبشم : التخمة، فهو قول باطل.

(**ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى**) أي: ثم اصطَفَى الله تعالى آدَمَ بعدَ مَعصيتِه، فتابَ عليها منها، وهداه للتوبةِ، ووفَّقه لها، وثبَّته عليها .

كما قال تعالى (فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ) .

الفوائد :

١. خطر وسوسة الشيطان .
٢. وجوب الحذر من إبليس وذريته .
٣. خطر الطمع .
٤. توبة الله على آدم .
٥. رحمة الله بعباده بقبول توبته .

(**قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَى (١٢٣) وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى (١٢٤) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا (١٢٥) قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسَى (١٢٦) وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِن بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى (١٢٧)**) .

[طه : ١٢٣- ١٢٧] .

==========

(**قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا**) أي: قال اللهُ لآدَمَ –ومعه زوجُه حواءُ التي هي تبَعٌ له– وإبليسَ: اهبِطا من الجنَّةِ إلى الأرضِ .

لأن الله تعالى قال في البقرة (وَقُلْنَا اهْبِطُوا ..) هذا الخطاب لآدم وحواء وإبليس .

فإن قيل ما الحكمة من إهباط آدم من الجنة؟ ذكر ابن القيم رحمه الله عدة حكم:

فقال: ليعود إليها على أحسن أحواله، فأراد سبحانه أن سيذيقه وولده من نصب الدنيا وغمومها وهمومها ما يُعظّم به عندهم مقدار دخولهم إليها في الدار، فإن الضد يظهر حسنه الضد، ولو تربوا في دار النعيم لم يعرفوا قدرها.

وأيضاً، فإنه سبحانه أراد أن يتخذ منهم أنبياء ورسلاً وأولياء وشهداء يحبهم ويحبونه، فخلّى بينهم وبين أعدائه، وامتحنهم بهم، فلما آثروه وبذلوا نفوسهم وأموالهم في مرضاته ومحابه، نالوا من محبته ورضوانه والقرب منه ما لم يكن ليُنال بدون ذلك أصلاً،

فدرجة الرسالة والنبوة والشهادة والحب فيه والبغض فيه وموالاة أوليائه ومعاداة أعدائه عنده من أفضل الدرجات، ولم يكن يُنال هذا إلا على الوجه الذي قدّره وقضاه من إهباطه إلى الأرض.

وأيضاً، فإنه سبحانه له الأسماء الحسنى، فمن أسمائه: الغفور، والرحيم، والحليم، والخافض، الرافع .. ولابد من ظهور آثار هذه الأسماء، فاقتضت حكمته سبحانه أن ينزل آدم وذريته دار يظهر عليهم فيها أثر أسمائه الحسنى، فيغفر لمن يشاء، ويرحم من يشاء، ويخفض من يشاء، ويرفع من يشاء، ويعز من يشاء، ويذل من يشاء.

وأيضاً، فإنه سبحانه المِلك الحق المبين، والملك هو الذي يأمر وينهى، ويثيب ويُعاقب، ويهين ويكرم، ويعز ويذل، فاقتضى ملكه سبحانه أن ينزِل آدم وذريته داراً تجري عليهم فيها أحكام الملك، ثم ينقلهم إلى دار يُتم عليهم فيها ذلك.

وأيضاً، فإنه سبحانه أنزلهم إلى دار يكون إيمانهم فيها بالغيب هو الإيمان النافع، وأما الإيمان بالشهادة فكل أحد يؤمن يوم القيامة، يوم لا ينفع نفساً إلا إيمانها في الدنيا، فلو خلقوا في دار النعيم لم ينالوا درجة الإيمان بالغيب، واللذة والكرامة الحاصلة بذلك لا تحصل بدونه.

وأيضاً، فإنه سبحانه لما كان يحب الصابرين، ويحب المحسنين، ويحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً، ويحب التوابين، ويحب المتطهرين، ويحب الشاكرين، وكانت محبته أعلى أنواع الكرامات، اقتضت حكمته أن أسكن آدم وبنيه داراً يأتون فيها بهذه الصفات التي ينالون بها أعلى الكرامات من محبته، فكان إنزالهم إلى الأرض من أعظم النعم عليهم.

وأيضاً، فإنه سبحانه جعل عبوديته أفضل درجاتهم – وذكر نبيه باسم العبودية في أعلى الدرجات – اقتضت حكمته أن أسكن آدم وذريته داراً ينالون فيها هذه الدرجة بكمال طاعتهم لله، وتقربهم إليه بمحابه، وترك مألوفاتهم من أجله.

وأيضاً: فإنه سبحانه إنما خلق الخلق لعبادته، ومعلوم أن كمال العبودية المطلوب من الخلق لا يحصل بدار النعيم والبقاء، إنما يحصل في دار المحنة والابتلاء، وأما دار البقاء فدار لذة ونعيم، لا دار ابتلاء وامتحان وتكليف. [مفتاح دار السعادة].

قال الرازي: اعلم أن في هذه الآيات تحذيراً عظيماً عن كل المعاصي من وجوه:

أحدها: أن من تصور ما جرى على آدم عليه السلام بسبب إقدامه على هذه الزلة الصغيرة كان على وجل شديد من المعاصي.

وثانيها: التحذير عن الاستكبار والحسد والحرص.

وثالثها: أنه سبحانه وتعالى بين العداوة الشديدة بين ذرية آدم وإبليس، وهذا تنبيه عظيم على وجوب الحذر.

(**بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ**) هذه العداوة بين آدم وذريته وبين الشيطان، كما قال تعالى (إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدواً).

وقيل : أن بعض بني آدم عدو لبعضهم .

كما قال تعالى (أو يلبِسَكم شيعاً ويذيقَ بعضكم بأس بعض) .

(**فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى**) قال أبو العالية: الهدى: الأنبياء والرسل والبينات والبيان.

(**فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ**) أي : من أقبل على ما أنزلت به الكتب وأرسلت به الرسل.

قال ابن القيم: أيَّ وقتٍ وأيَّ حين أتاكم مني هدى.

(**فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَى**) قيل : فلا يضل في الدنيا ، ولا يشقى في الآخرة .

لَا يَضِلُّ فِي الدُّنْيَا : أَيْ : لَا يَزِيغُ عَنْ طَرِيقِ الْحَقِّ لِاسْتِمْسَاكِهِ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى .

وَلَا يَشْقَى فِي الْآخِرَةِ : لِأَنَّهُ كَانَ فِي الدُّنْيَا عَامِلًا بِمَا يَسْتَوْجِبُ السَّعَادَةَ مِنْ طَاعَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَطَاعَةِ رُسُلِهِ .

قال ابن عباس: تكفل الله لمن قرأ القرآن وعمل بما فيه أن لا يضل في الدنيا ولا يشقى في الآخرة ثم قرأ: (فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَى).

واختاره : ابنُ جريرٍ، والواحدي، والسمعاني، وابنُ عطية، وابن جزي، والعُليمي، والشوكاني، والشنقيطي.

قال ابن عطية : فإنه " لا يضل " في الدنيا (ولا يشقى) في الآخرة .

وقيل : فلا يضِلُّ في الدنيا والآخرةِ، ولا يشقَى فيهما .

واختاره ابنُ تيمية، وابنُ القيم، والبقاعي، والسعدي.

وفي البقرة (فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ) .

– قال السعدي: رتب على اتباع هداه أربعة أشياء: نفي الخوف والحزن والفرق بينهما، أن المكروه إن كان قد مضى، أحدث الحزن، وإن كان منتظراً، أحدث الخوف، فنفاهما عمن اتبع هداه، وإذا انتفيا، حصل ضدهما، وهو الأمن التام، وكذلك نفي الضلال والشقاء عمن اتبع هداه، وإذا انتفيا ثبت ضدهما، وهو الهدى والسعادة، فمن اتبع هداه، حصل له الأمن والسعادة الدنيوية والأخروية والهدى، وانتفى عنه كل مكروه، من الخوف، والحزن، والضلال، والشقاء، فحصل له المرغوب، واندفع عنه المرهوب، وهذا عكس من لم يتبع هداه، فكفر به، وكذب بآياته.

(**وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي**) أَيْ : خَالَفَ أَمْرِي وَمَا أَنْزَلْتُهُ عَلَى رَسُولِي أَعْرَضَ عَنْهُ وَتَنَاسَاهُ وَأَخَذَ مِنْ غَيْرِهِ هُدَاهُ .

(**فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا**) أي : ضنكا فِي الدُّنْيَا، فَلَا طُمَأْنِينَةَ لَهُ وَلَا انْشِرَاحَ لِصَدْرِهِ، بَلْ صَدْرُهُ ضَيِّقٌ حَرَجٌ لِضَلَالِهِ، وَإِنْ تَنَعَّمَ ظَاهِرُهُ وَلَبِسَ مَا شَاءَ وَأَكَلَ مَا شَاءَ وَسَكَنَ حَيْثُ شَاءَ، فَإِنَّ قَلْبَهُ مَا لَمْ يَخْلُصْ إِلَى الْيَقِينِ وَالْهُدَى فَهُوَ فِي قَلَقٍ وَحَيْرَةٍ وَشَكٍّ، فَلَا يَزَالُ فِي رِيبَةٍ يَتَرَدَّدُ فَهَذَا مِنْ ضَنْكِ الْمَعِيشَةِ.

وقيل : المعيشةُ الضَّنكُ في الدُّنيا وفي البرزخِ، والعذابُ في الآخرةِ .

وقيل : المراد عذاب القبر .

ورجحه : ابن جرير ، والقرطبي .

– نتائج الإعراض :

أولاً : أن صاحبه من أعظم الناس ظلماً .

قال تعالى (ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه فأعرض عنها ونسي ما قدمت يداه) .

ثانياً : جعل الأكنة على القلوب حتى لا تفقه .

قال تعالى (إنا جعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه) .

ثالثاً : انتقام الله .

كما قال تعالى (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ) .

رابعاً : كون المعرض كالحمار .

كما قال تعالى (فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ . كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ) .

خامساً : الإنذار بصاعقة مثل صاعقة عاد وثمود .

قال تعالى (فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ) .

سادساً : المعيشة الضنك .

قال تعالى (وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى) .

سابعاً : سلكه العذاب الصعد .

كما قال تعالى (وَمَن عَن ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَاباً صَعَداً) .

(**وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى**) البصر .

قال الواحدي: قيل في التفسيرِ: أعمَى البصرِ. وقيل: أعمَى عن الحجةِ. يعني أنَّه لا حجةَ له يهتدي إليها، والأعمَى إذا أُطلِق كان الظاهرُ عمَى البصرِ .

وقال أبو حيان : والظاهر أن قوله (أعمى) المراد به عمى البصر كما قال (ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عمياً) وقيل : أعمى البصيرة.

وقال الشنقيطي : قَالَ مُجَاهِدٌ ، وَأَبُو صَالِحٍ ، وَالسُّدِّيُّ : (أَعْمَى) أَيْ : لَا حُجَّةَ لَهُ .

وَقَالَ عِكْرِمَةُ : عَمِيَ عَلَيْهِ كُلُّ شَيْءٍ إِلَّا جَهَنَّمَ .

اعْلَمْ أَنَّ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ قَرِينَةً دَالَّةً عَلَى خِلَافِ قَوْلِ مُجَاهِدٍ وَأَبِي صَالِحٍ ، وَعِكْرِمَةَ . وَأَنَّ الْمُرَادَ بِقَوْلِهِ (أَعْمَى) أَيْ : أَعْمَى الْبَصَرِ لَا يَرَى شَيْئًا . وَالْقَرِينَةُ الْمَذْكُورَةُ هِيَ قَوْلُهُ تَعَالَى (قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا) فَصَرَّحَ بِأَنَّ عَمَاهُ هُوَ الْعَمَى الْمُقَابِلُ لِلْبَصَرِ وَهُوَ بَصَرُ الْعَيْنِ ، لِأَنَّ الْكَافِرَ كَانَ فِي الدُّنْيَا أَعْمَى الْقَلْبِ كَمَا دَلَّتْ عَلَى ذَلِكَ آيَاتٌ كَثِيرَةٌ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ ، وَقَدْ زَادَ جَلَّ وَعَلَا فِي سُورَةِ «بَنِي إِسْرَائِيلَ» أَنَّهُ مَعَ ذَلِكَ الْعَمَى يُحْشَرُ أَصَمَّ أَبْكَمَ أَيْضًا ، وَذَلِكَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى (وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا) .

فِي آيَةِ "طه" هَذِهِ وَآيَةِ "الْإِسْرَاءِ" الْمَذْكُورَتَيْنِ إِشْكَالٌ مَعْرُوفٌ . وَهُوَ أَنْ يُقَالَ : إِنَّهُمَا قَدْ دَلَّتَا عَلَى أَنَّ الْكَافِرَ يُحْشَرُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى ، وَزَادَتْ آيَةُ " الْإِسْرَاءِ " أَنَّهُ يُحْشَرُ أَبْكَمَ أَصَمَّ أَيْضًا ، مَعَ أَنَّهُ دَلَّتْ آيَاتٌ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ عَلَى أَنَّ الْكُفَّارَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُبْصِرُونَ وَيَسْمَعُونَ وَيَتَكَلَّمُونَ . كَقَوْلِهِ تَعَالَى : (أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا) وَقَوْلِهِ تَعَالَى : (وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا) وَقَوْلِهِ تَعَالَى : (رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا) إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ . وَقَدْ ذَكَرْنَا فِي كِتَابِنَا (دَفْعِ إِيهَامِ الِاضْطِرَابِ عَنْ آيَاتِ الْكِتَابِ) الْجَوَابَ عَنْ هَذَا الْإِشْكَالِ مِنْ ثَلَاثَةِ أَوْجُهٍ :

الْوَجْهُ الْأَوَّلُ : وَاسْتَظْهَرَهُ أَبُو حَيَّانَ أَنَّ الْمُرَادَ بِمَا ذُكِرَ مِنَ الْعَمَى ، وَالصَّمَمِ ، وَالْبَكَمِ حَقِيقَتُهُ . وَيَكُونُ ذَلِكَ فِي مَبْدَأِ الْأَمْرِ ثُمَّ يَرُدُّ اللَّهُ تَعَالَى إِلَيْهِمْ أَبْصَارَهُمْ وَنُطْقَهُمْ وَسَمْعَهُمْ فَيَرَوْنَ النَّارَ وَيَسْمَعُونَ زَفِيرَهَا ، وَيَنْطِقُونَ بِمَا حَكَى اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُمْ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ .

الْوَجْهُ الثَّانِي : أَنَّهُمْ لَا يَرَوْنَ شَيْئًا يَسُرُّهُمْ ، وَلَا يَسْمَعُونَ كَذَلِكَ ، وَلَا يَنْطِقُونَ بِحُجَّةٍ ، كَمَا أَنَّهُمْ كَانُوا فِي الدُّنْيَا لَا يَسْتَبْصِرُونَ ، وَلَا يَنْطِقُونَ بِالْحَقِّ ، وَلَا يَسْمَعُونَهُ .

(**قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا**) في الدنيا .

(**قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا**) أي : قال الله تعالى له : لقد أتتك آياتنا واضحة جلية فتعاميت عنها وتركتها .

(**وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسَى**) أي : وكذلك تترك اليوم في العذاب جزاء وفاقاً .

كما قال تعالى (فَالْيَوْمَ نَنْسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ) .

(**وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِن بِآيَاتِ رَبِّهِ**) أي : مثل ذلك الجزاء نعاقب من أسرف وانهمك بالشهوات وترك آيات الله فلم يؤمن بها .

(**وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى**) أي: وللعذابُ الواقِعُ في الآخرةِ أشدُّ ألَمًا ، وأدوَمُ على أصحابِه بلا انقِطاعٍ .

كما قال تعالى (لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ) .
وقال سُبحانَه (فَأَذَاقَهُمُ اللَّهُ الْخِزْيَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ) .
وقال عزَّ وجلَّ (وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى) .
وقال تعالى (وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ) .
وَلِهَذَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِلْمُتَلَاعِنِينَ (إِنَّ عَذَابَ الدُّنْيَا أَهْوَنُ مِنْ عَذَابِ الآخرة) .

الفوائد :

١. إثبات علو الله تعالى .
٢. العداوة بين بني آم والشيطان .
٣. فضل من اتبع هدى الله ، فإنه لا يضل ولا يشقى .
٤. ذم الإعراض عن الله ، فإنه سبب للمعيشة الضنك .
٥. من أسباب انشراح الصدر الإيمان والتوحيد .
٦. إثبات الحشر .
٧. أن الكافر يحشر أعمى البصر والبصيرة .
٨. من ترك الإيمان بالله تركه الله بالعذاب جزاءً وفاقاً .
٩. أن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة .

(أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّأُوْلِي النُّهَى (١٢٨) وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى (١٢٩))

[طه : ١٢٨-١٢٩] .

==========

(**أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ**) أي : أفلم يتبين لكفار مكة الذين كذبوك .

(**كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ**) كم أهلكنا قبلهم من الأمم الخالية المكذبين لرسلهم .

قال القرطبي : قوله تعالى (أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ) يريد أهل مكة ؛ أي أفلم يتبين لهم خبر من أهلكنا قبلهم من القرون يمشون في مساكنهم إذا سافروا وخرجوا في التجارة طلب المعيشة ، فيرون بلاد الأمم الماضية ، والقرون الخالية خاوية ؛ أي أفلا يخافون أن يحلّ بهم مثل ما حلّ بالكفار قبلهم.

وقال ابن الجوزي : أي أفلم يتبيَّن لكفار مكة إِذا نظروا آثار مَنْ أهلكْنا مِنَ الأمم ؛ وكانت قريش تتَّجر وترى مساكن عاد وثمود وفيها علامات الهلاك ، فذلك قوله تعالى (يمشون في مساكنهم) .

قال ابنُ عاشور: والمرادُ بالقرونِ: عادٌ وثمود؛ فقد كان العربُ يمرُّون بمساكِنِ عادٍ في رِحْلاتِهم إلى اليَمَنِ ونجران وما جاورها، وبمساكِنِ ثمودَ في رحلاتِهم إلى الشَّامِ، وقد مرَّ النبيُّ ﷺ والمسلمون بديارِ ثمودَ في مسيرِهم إلى تبوكَ .

(**يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ**) حين أَسفارهم كعاد وثمود الذين يشاهدون آثارهم الدالة على ما كانوا عليه من عظمة وسعة في العيش فلقد أَخذهم الله بذنوبهم، ولم يُغْنِ عنهم ما كانوا فيه من القوة والمنعة – لم يغن عنهم – من عذاب الله شيئًا، وحاق بهم ما كانوا يكسبون، فلو كان هؤُلاءِ أصحاب عقول سليمة لاعتبروا بهؤُلاء السابقين، كما قال سبحانه .

قال الرازي : وأراد بقوله (يَمْشُونَ فِي مساكنهم) أن قريشاً يشاهدون تلك الآيات العظيمة الدالة على ما كانوا عليه من النعم ، وما حل بهم من ضروب الهلاك ، وللمشاهدة في ذلك من الاعتبار ما ليس لغيره .

وقال الشوكاني : (يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ) ... يتقلبون في ديارهم ، أو حال كون هؤلاء يمشون من مساكن القرون الذين أهلكناهم عند خروجهم للتجارة وطلب المعيشة ، فيرون بلاد الأمم الماضية ، والقرون الخالية خاوية خاربة من أصحاب الحجر وثمود وقرى قوم لوط ، فإن ذلك مما يوجب اعتبارهم ، لئلا يحل بهم مثل ما حل بأولئك .

(**إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُوْلِي النُّهَى**) أي : إن في إهلاك أهل هذه القرون الماضية على كفرهم، لعظات بالغات لأصحاب العقول الراجحة، التي تنهاهم عن الكفر والمعاصي.

والنهى : جمع نهية ، وهي العقل ، أي لذوي العقول التي تنهى أربابها عن القبيح.

قال تعالى (وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْها وَهُمْ عَنْها مُعْرِضُونَ) .

وقال تعالى (قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لا يُؤْمِنُون).

وقال تعالى (وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفاً مَحْفُوظاً وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ).

قال ابن عاشور : وفي هذا تعريض بالذين لم يهتدوا بتلك الآيات بأنهم عديمو العقول ، كقوله (إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلاً) .

(**وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى**) أَيْ : لَوْلَا الْكَلِمَةُ السَّابِقَةُ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ أَنَّهُ لَا يُعَذِّبُ أَحَدًا إِلَّا بَعْدَ قِيَامِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِ، وَالْأَجَلُ المسمى الذي ضربه الله تَعَالَى لِهَؤُلَاءِ الْمُكَذِّبِينَ إِلَى مُدَّةٍ مُعَيَّنَةٍ، لَجَاءَهُمْ الْعَذَابُ بَغْتَةً .

الفوائد :

١. أن الله أهلك كثيراً من الأمم بسبب كفرها وتكذيبها .
٢. الكفر والتكذيب سبب هلاك الأمم .
٣. أن هلاك المكذبين من أعظم الآيات الدالة على نصرة الله لأوليائه .
٤. إن في هلاك الأمم المكذبة عبرة وعظة لمن وفقه الله للاعتبار .
٥. أن أصحاب العقول هم من يتعظون ويعتبرون .
٦. ذم من لا يعتبر ولا يتعظ .
٧. حكمة الله في تأخير العذاب عن الكافرين .
٨. أن لكل شيء أجلاً وموعداً لا يتقدم ولا يتأخر .

(**فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاء اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى (١٣٠)**) .

[طه : ١٣٠] .

==========

(**فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ**) من تكذيب قومك لك .

وقد أمره الله تعالى بالصبر في آيات كثيرة:

فقال تعالى (فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ) وقال تعالى (فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ) وقال تعالى (فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لا يُوقِنُونَ) وقال تعالى (فَاصْبِرْ صَبْراً جَمِيلاً) وقال تعالى (فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ).

- وإنما أمره بالصبر لأمور:

أولاً: لأن بالصبر ينتصر الإنسان كما قال ﷺ (واعلم أن النصر مع الصبر).

ثانياً: أن الصبر فيه رفع للدرجات وتكفير للسيئات.

ثالثاً: وبالصبر مع اليقين تنال الإمامة في الدين كما قال تعالى (وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ).

رابعاً: وليكون قدوة لغيره .

لأن من قام بدين الإسلام ودعا الناس إليه ، فقد تحمل أمراً عظيماً ، وقام مقام الرسل في الدعوة إلى الله.

والدعوة إلى الله تحتاج إلى صبر، ذلك أن أصحاب الدعوة إلى الله يطلبون إلى الناس أن يتحرروا من أهوائهم وأوهامهم ومألوفاتهم، وأكثر الناس لا يؤمنون بهذه الدعوة الجديدة، فلهذا يقاومونها بكل قوة، ويحاربون دعاتها بكل سلاح، مدلين بأنهم أكثر مالاً وأعز نفراً، وأقوى نفوذاً، وأوسع سلطاناً.

فأذية الداعية طبيعة البشر:

قال الله تعالى لنبيه (وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا).

والرسل أوذوا بالقول والفعل ، قال الله (وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُون).

بل إن منهم من تعرض للقتل، قال سبحانه (أَفَكُلَّمَا جَاءكُمْ رَسُولٌ بِمَا لاَ تَهْوَى أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقاً كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقاً تَقْتُلُون).

ومن قام بما قام به الرسل ناله ما نالهم ، قال سبحانه (وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً).

وبالصبر مع التقوى لا يضر كيد العدو قال تعالى (وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لاَ يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ).

(**وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ**) صلاة الفجر .

قال الرازي : وإنما أمر عقيب الصبر بالتسبيح لأن ذكر الله تعالى يفيد السلوة والراحة إذ لا راحة للمؤمنين دون لقاء الله تعالى.

(**وَقَبْلَ غُرُوبِهَا**) صلاة العصر .

كما جاء في الصحيحين عن جرير بن عبد الله البجلي قال: كنا جلوساً عند رسول الله ﷺ فنظر إلى القمر ليلة البدر فقال: «إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر، لا تضامون في رؤيته- أي: لا ينالكم ضيم في رؤيته بأن يراه بعضكم دون بعض- فإن استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا» ثم قرأ هذه الآية..

(**وَمِنْ آنَاء اللَّيْلِ فَسَبِّحْ**) أي : من ساعاته فتهجد به ، وحمله بعضهم على المغرب والعشاء .

(**وَأَطْرَافَ النَّهَارِ**) **قال القرطبي** : أكثر المفسرين ان هذه الآية إشارة الى الصلوات الخمس [قبل طلوع الشمس] صلاة الصبح [وقبل غروبها] صلاة العصر [ومن آناء الليل] صلاة العشاء [وأطراف النهار] صلاة المغرب والظهر ، لأن الظهر في آخر طرف النهار الأول ، وغروب الشمس آخر طرف النهار الأخير .

قال الرازي : قال أبو مسلم : لا يبعد حمله على التنزيه والإجلال ، والمعنى اشتغل بتنزيه الله تعالى في هذه الأوقات ، وهذا القول أقرب إلى الظاهر وإلى ما تقدم ذكره ، وذلك لأنه تعالى صبره أولاً على ما يقولون من تكذيبه ومن إظهار الشرك والكفر ، والذي يليق بذلك أن يأمر بتنزيهه تعالى عن قولهم حتى يكون دائماً مظهراً لذلك وداعياً إليه فلذلك قال ما يجمع كل الأوقات.

وقال الشوكاني : ولو قيل ليس في الآية إشارة إلى الصلاة بل المراد التسبيح في هذه الأوقات أي : قول القائل سبحان الله ، لم يكن ذلك بعيداً من الصواب ... والتسبيح وإن كان يطلق على الصلاة ولكنه مجاز ، والحقيقة أولى إلا لقرينة تصرف ذلك إلى المعنى المجازي .

(**لَعَلَّكَ تَرْضَى**) أي : لعلك تُعطى ما يرضيك .

الفوائد :

١. الأمر بالصبر على أذية الخلق .
٢. تسلية لكل داع إلى الله .
٣. أن الصبر من أسباب النصر .
٤. من أسباب الصبر العبادة والطاعة خاصة الصلاة .
٥. فضل التسبيح .
٦. فضل ذكر الله في أول النهار وآخره .

(**وَلا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى (١٣١)**) .

[طه : ١٣١] .

==========

(**وَلا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ**) أي: ولا تُطِلِ النَّظَرَ -يا محمَّدُ- بإعجابٍ ورَغبةٍ وتمنٍّ إلى ما أعطَيناه للأغنياءِ المترَفينَ من هؤلاءِ المعرِضينَ عن آياتِ رَبِّهم .

ومد النظر تطويله .

قال القرطبي : لاَ تَمُدَّنَّ " أبلغ من لا تنظرنّ ، لأن الذي يمدّ بصره ، إنما يحمله على ذلك حرص مقترن ، والذي ينظر قد لا يكون ذلك معه .

(**زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنيَا**) زينة الحياة الدنيا .

قال ابن عطية : وقوله تعالى (زهرة الحياة الدنيا) شبه نعم هؤلاء الكفار بالزهر وهو ما اصفر من النور، وقيل "الزهر" النور جملة لأن الزهر له منظر ثم يضمحل فكذلك حال هؤلاء .

والمراد بالأزواج هنا : الأصناف من الذين متعهم الله بالدنيا.

والسبب في النهي عن ذلك أنه يؤدي :

أ-احتقار نعمة الله عليه .

ب-سبب في عدم شكر نعمة الله .

ج-ولأن في النظر للمترفين تؤدي إلى عدم القناعة .

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (انْظُرُوا إِلَى مَنْ هُوَ أَسْفَلَ مِنْكُمْ، وَلَا تَنْظُرُوا إِلَى مَنْ هُوَ فَوْقَكُمْ، فَهُوَ أَجْدَرُ أَنْ لَا

تَزْدَرُوا نِعْمَةَ اَللَّهِ عَلَيْكُمْ) مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ .

وفي لفظ قال ﷺ (إِذَا نَظَرَ أَحَدُكُمْ إِلَى مَنْ فُضِّلَ عَلَيْهِ فِي الْمَالِ وَالْخَلْقِ فَلْيَنْظُرْ إِلَى مَنْ هُوَ أَسْفَلَ مِنْهُ مِمَّنْ فُضِّلَ عَلَيْهِ) .

فنستفيد أنه ينبغي للمسلم أن ينظر في أمور الدنيا –من جاه ومال ومسكن– إلى من هو أقل منه ودونه، ولا ينظر إلى من هو فوقه.

قال الرازي : ولقد شدد المتقون في وجوب غض البصر عن أبنية الظلمة وعدد الفسقة في اللباس والمركوب وغير ذلك لأنهم اتخذوا هذه الأشياء لعيون النظارة ، فالناظر إليها محصل لغرضهم وكالمقوى لهم على اتخاذها.

(**لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ**) أي : لنبتليهم ونختبرهم .

قال الخازن : لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ أي لنجعل ذلك فتنة بأن تزيد النعمة فيزيدوا كفرا وطغيانا .

قال أبي بن كعب من لم يعتز بالله تقطعت نفسه حسرات ، ومن أتبع بصره ما في أيدي الناس يطل حزنه ومن ظن أن نعمة الله عليه في مطعمه ومشربه وملبسه فقد قل عمله وحضر عذابه

(**وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى**) أي ثواب الله ، وما ادّخر لصالح عباده في الآخرة خير مما رزقهم في الدنيا على كل حال ، وأيضاً فإن ذلك لا ينقطع ، وهذا ينقطع ، وهو معنى (وأبقى) .

وقيل : المراد بهذا الرزق : ما يفتح الله على المؤمنين من الغنائم ونحوها ، والأوّل أولى ؛ لأن الخيرية المحققة والدوام الذي لا ينقطع إنما يتحققان في الرزق الأخروي لا الدنيوي ، وإن كان حلالاً طيباً (مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ الله بَاقٍ) .

قال السعدي : تضمنت التزهيد في الدنيا، وأن غضارتها وحسنها الذي متع به المترفين ليس لكرامتهم عليه، وإنما ذلك للابتلاء والاختبار؛ لينظر أيهم أحسن عملاً، وأيهم أكمل عقلاً، فإن العاقل هو الذي يؤثر النفيس الباقي على الدني الفاني، ولهذا قال: (وَرِزْقُ رَبِّكَ) أي الذي أعده للطائعين الذين لم يذهبوا مع أهل الإترف في إترافهم، ولم يغرهم رونق الدنيا وبهجتها الزائلة، بل نظروا إلى باطن ذلك، حين نظر الجهال إلى ظاهرها، وعرفوا المقصود، ومقدار التفاوت، ودرجات الأمور فرزق الله لهؤلاء خير وأبقى، أي أكمل في كل صنف من أصناف الكمال، وهو مع ذلك باق لا يزول .

وأمّا مَا متَّع به أهل الدنيا فزهرة الحياة الدنيا، تمر سريعاً وتذهب جميعاً .

الفوائد :

١. النهي عن النظر إلى متع الدنيا والتطلع لها .
٢. حكمة الله في النهي عن ذلك ، لأن ذلك يؤدي إلى احتقار نعمة الله على العبد ، ومن ثم قلة الشكر .
٣. الحذر من زهرة الدنيا وشهواتها وفتنها .
٤. على المسلم أن يتعلق بنعيم الآخرة .
٥. أن الدنيا فتنة .
٦. أن الرزق والنعم في الدنيا فتنة من يشكر ومن لا يشكر .
٧. فضل الجلوس مع المساكين والفقراء .

(**وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى (١٣٢)**) .

[طه : ١٣٢] .

==========

(**وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاةِ**) أي: وأْمُرْ -يا محمَّدُ- أهلَك بإقامةِ الصَّلاةِ، وحُثَّهم على المحافظةِ عليها، واصبِرْ على القيامِ بها، وأدائِها في أوقاتِها بحُدودِها وأركانِها، وآدابِها وخُشوعِها .

(**واصطبر عَلَيْهَا**) وثابرْ وداوم عليها غيرَ مشتغلٍ بأمر المعاش .

قال الشوكاني : أي اصبر على الصلاة ، ولا تشتغل عنها بشيء من أمور الدنيا .

قال الآلوسي : وفيه إشارة إلى أن العبادة في رعايتها حق الرعاية مشقة على النفس .

قال القرطبي : هذا الخطابُ للنبيّ ﷺ، ويدخُلُ في عمومه جميعُ أمته، وأهلُ بيتِه على التخصيصِ .

فيه أن الإنسان يبدأ بأهله في الأمر بالصلاح والعبادة ليجعلهم قدوة لمن سواهم .

كما قال تعالى (وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأقربين) .

وقال تعالى (وَأْمُرْ أَهْلَكَ بالصلاة واصطبر عَلَيْهَا) .

وقال تعالى (قُواْ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً) .

وقال تعالى عن إسماعيل (وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولاً نَّبِيًّا . وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا) .

وأيضاً فهم أحق أن يتصدق عليهم فوجب أن يكونوا بالإحسان الديني أولى .

وعن أَبي هريرة ﷺ قَالَ (أخذ الحسن بن علي رضي الله عنهما تَمْرَةً مِنْ تَمْر الصَّدَقَةِ فَجَعَلَهَا في فِيهِ، فَقَالَ رَسُول الله ﷺ: كَخْ كَخْ إرْم بِهَا، أمَا عَلِمْتَ أنَّا لا نَأكُلُ الصَّدَقَةَ!؟) مُتَّفَقٌ عَلَيهِ.

وقوله: «كَخْ كَخْ» يقال: بإسكان الخاء، ويقال: بكسرها مَعَ التنوين وهي كلمة زجر للصبي عن المستقذراتِ، وكان الحسن ﷺ صبيًّا.

وعن ابن عمر رضي الله عنهما، قَالَ: سمعت رَسُول الله ﷺ يقول (كُلُّكُمْ رَاعٍ، وَكُلُّكُمْ مسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ: الإمَامُ رَاعٍ وَمَسْؤولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، والرَّجُلُ رَاعٍ في أهْلِهِ وَمَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالمرْأةُ رَاعِيَةٌ في بيْتِ زَوْجِهَا وَمَسْؤُولَةٌ عَنْ رَعِيَّتِهَا، وَالخَادِمُ رَاعٍ في مَالِ سَيِّدِهِ وَمَسؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، فَكُلُّكُمْ رَاعٍ وَمَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ) مُتَّفَقٌ عَلَيهِ.

وعن أَبي حفص عمر بن أَبي سلمة عبد الله بن عبد الأسدِ ربيبِ رَسُول الله ﷺ قَالَ (كُنْتُ غلامًا في حجر رَسُول الله ﷺ وَكَانَتْ يَدي تَطِيشُ في الصَّحْفَةِ، فَقَالَ لي رَسُول الله ﷺ : يَا غُلامُ، سَمِّ الله تَعَالَى، وَكُلْ بيَمِينكَ، وَكُلْ مِمَّا يَلِيكَ» فَمَا زَالَتْ تِلْكَ طِعْمَتي بَعْدُ) . مُتَّفَقٌ عَلَيهِ.

وعن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جدهِ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُول الله ﷺ (مُرُوا أَوْلادَكُمْ بِالصَّلاةِ وَهُمْ أبْنَاءُ سَبْعِ سِنينَ، وَاضْرِبُوهُمْ عَلَيْهَا، وَهُمْ أَبْنَاءُ عَشْرٍ، وَفَرِّقُوا بَيْنَهُمْ في المضَاجِعِ) رواه أَبُو داود .

وعن أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (رَحِمَ اللَّهُ رَجُلًا قَامَ مِنَ اللَّيْلِ فَصَلَّى وَأَيْقَظَ امْرَأَتَهُ، فَإِنْ أَبَتْ نَضَحَ فِي وَجْهِهَا الْمَاءَ. رَحِمَ اللَّهُ امْرَأَةً قَامَتْ مِنَ اللَّيْلِ فَصَلَّتْ وَأَيْقَظَتْ زَوْجَهَا، فَإِنْ أَبَى نَضَحَتْ فِي وَجْهِهِ الْمَاءَ) رواه أبوداود .

وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ وَأَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ (إِذَا اسْتَيْقَظَ الرَّجُلُ مِنَ اللَّيْلِ وَأَيْقَظَ امْرَأَتَهُ فَصَلَّيَا رَكْعَتَيْنِ، كُتِبَا مِنَ الذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَات) رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ .

(**لا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ**) يعْنِي إِذَا أَقَمْتَ الصَّلَاةَ أَتَاكَ الرِّزْقُ مِنْ حَيْثُ لَا تَحْتَسِبُ .

كَمَا قَالَ تَعَالَى (وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ) .

قيل المعنى : أنه تعالى إنما يريد منه ومنهم العبادة ولا يريد منه أن يرزقه كما تريد السادة من العبيد الخراج .

وهو كقوله تعالى (وَمَا خَلَقْتُ الجن والإنس إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ * مَا أُرِيدُ مِنْهُم مّن رّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ) .

وقيل : (لاَ نَسْأَلُكَ رِزْقاً) لنفسك ولا لأهلك بل نحن نرزقك ونرزق أهلك ، ففرغ بالك لأمر الآخرة ، وفي معناه قول الناس : من كان في عمل الله كان الله في عمله.

قال الماوردي : هذا وإن كان خطاباً للنبي ﷺ فالمراد به جميع الخلق أنه تعالى يرزقهم ولا يسترزقهم ، وينفعهم ولا ينتفع بهم ، فكان ذلك أبلغ في الامتنان عليهم.

وقال القرطبي : (لاَ نَسْأَلُكَ رِزْقاً) أي لا نسألك أن ترزق نفسك وإياهم ، وتشتغل عن الصلاة بسبب الرزق ، بل نحن نتكفل برزقك وإياهم .

وقال أبو حيان : أمره تعالى بأن يأمر أهله بالصلاة التي هي بعد الشهادة آكد أركان الإسلام ، وأمره بالاصطبار على مداومتها ومشاقها وأن لا يشتغل عنها ، وأخبره تعالى أن لا يسأله أن يرزق نفسه وأن لا يسعى في تحصيل الرزق ويدأب في ذلك ، بل أمره بتفريغ باله لأمر الآخرة ويدخل في خطابه عليه السلام أمته.

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: يَا ابْنَ آدَمَ تَفَرَّغْ لِعِبَادَتِي أَمْلَأْ صَدْرَكَ غِنًى وَأَسُدَّ فَقْرَكَ، وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ، مَلَأْتُ صَدْرَكَ شُغْلًا وَلَمْ أَسُدَّ فَقْرَكَ) رواه الترمذي .

قال الآلوسي : (لا نَسْأَلُكَ رِزْقاً نَّحْنُ نَرْزُقُكَ) دفع لما عسى أن يخطر ببال أحد من أن المداومة على الصلاة ربما تضر بأمر المعاش فكأنه قيل داوموا على الصلاة غير مشتغلين بأمر المعاش عنها إذ لا نكلفكم رزق أنفسكم إذ نحن نرزقكم .

(**وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى**) أي : وحسن العاقبة في الدنيا والآخرة وهي الجنة لمن اتقى الله .

الفوائد :

١. وجوب أمر الأهل بالعبادة والصلاة .
٢. أهمية الصلاة .
٣. الصبر على أدائها ومجاهدة النفس على المحافظة عليها .
٤. الصلاة والعبادة من أسباب الرزق .
٥. التهاون في الصلاة سبب لقلة الرزق .
٦. أن الرزاق هو الله .
٧. سؤال الرزق من الله .
٨. فضل التقوى وأهل التقوى .

(وَقَالُوا لَوْلا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِّن رَّبِّهِ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِي الصُّحُفِ الأُولَى (١٣٣) وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَى (١٣٤) قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَى (١٣٥)) .

[طه : ١٣٣-١٣٥] .

==========

(**وَقَالُوا لَوْلا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِّن رَّبِّهِ**) يقولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ الْكُفَّارِ فِي قَوْلِهِمْ: لَوْلا أَيْ هَلَّا يَأْتِينَا مُحَمَّدٌ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّهِ، أَيْ بِعَلَامَةٍ دَالَّةٍ عَلَى صِدْقِهِ فِي أَنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ؟ على وجه التعنت ، كالعصا واليد من آيات موسى ، وكناقة صالح .

قال أبو حيان: (وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِنْ رَبِّهِ) هذه عادتُهم في اقتراحِ الآياتِ، كأنَّهم جعلوا ما ظهَرَ مِن الآياتِ ليس بآياتٍ، فاقتَرَحوا هم ما يختارونَ؛ على دَيدنِهم في التعنُّتِ! .

فأجابهم الله :

(**أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِي الصُّحُفِ الأُولَى**) يعني القرآن الَّذِي أَنْزَلَهُ عَلَيْهِ اللَّهُ، وَهُوَ أُمِّيٌّ لَا يُحْسِنُ الْكِتَابَةَ وَلَمْ يُدَارِسْ أَهْلَ الْكِتَابِ، وَقَدْ جَاءَ فِيهِ أَخْبَارُ الْأَوَّلِينَ بِمَا كَانَ مِنْهُمْ فِي سَالِفِ الدُّهُورِ بِمَا يُوَافِقُهُ عَلَيْهِ الْكُتُبُ الْمُتَقَدِّمَةُ الصَّحِيحَةُ مِنْهَا، فَإِنَّ الْقُرْآنَ مُهَيْمِنٌ عَلَيْهَا يُصَدِّقُ الصَّحِيحَ وَيُبَيِّنُ خَطَأَ الْمَكْذُوبِ فِيهَا وَعَلَيْهَا .

وَهَذِهِ الْآيَةُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْعَنْكَبُوتِ (وَقالُوا لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آياتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآياتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّما أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنا عَلَيْكَ الْكِتابَ يُتْلى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) .

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ (مَا مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا وَقَدْ أُوتِيَ مِنَ الْآيَاتِ مَا آمَنَ عَلَى مَثَلِهِ الْبَشَرُ، وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيتُهُ وَحْيًا أَوْحَاهُ اللَّهُ إِلَيَّ، فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ) .

وَإِنَّمَا ذَكَرَ هَاهُنَا أَعْظَمَ الْآيَاتِ الَّتِي أُعْطِيَهَا عليه السلام، وَهُوَ القرآن، وإلا فله مِنَ الْمُعْجِزَاتِ مَا لَا يُحَدُّ وَلَا يُحْصَرُ .

قال الشوكاني : يريد بالصحف الأولى : التوراة والإنجيل والزبور وسائر الكتب المنزلة ، وفيها التصريح بنبوّته والتبشير به ، وذلك يكفي ، فإن هذه الكتب المنزلة هم معترفون بصدقها وصحتها ، وفيها ما يدفع إنكارهم لنبوّته ، ويبطل تعنتاتهم وتعسفاتهم.

وقيل: المعنى أو لم يأتهم إهلاكنا للأمم الذين كفروا واقترحوا الآيات، فما يؤمنهم إن أتتهم الآيات التي اقترحوها أن يكون حالهم كحالهم.

وقيل : المراد : أو لم تأتهم آية هي أمّ الآيات وأعظمها في باب الإعجاز يعني القرآن ، فإنه برهان : لما في سائر الكتب المنزلة.

وقال ابن عاشور: وهذه البيِّنةُ هي محمَّدٌ ﷺ وكتابُه القرآن؛ لأنَّ الرَّسولَ موعودٌ به في الكُتُبِ السَّالفة، ولأنَّ في القرآنِ تصديقًا لِما في تلك الكُتُبِ مِن أخبارِ الأنبياء، ومن المواعِظِ وأصولِ التَّشريعِ .

(**وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ**) أَيْ : لَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَا هَؤُلَاءِ الْمُكَذِّبِينَ قَبْلَ أَنْ نُرْسِلَ إِلَيْهِمْ هَذَا الرَّسُولَ الْكَرِيمَ وَنُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ هَذَا الْكِتَابَ الْعَظِيمَ .

(**لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَى**) لَكَانُوا قَالُوا: رَبَّنَا لَوْلا أَرْسَلْتَ إِلَيْنا رَسُولًا قَبْلَ أَنْ نُهْلِكَنَا حَتَّى نُؤْمِنَ بِهِ وَنَتَّبِعَهُ كَمَا قَالَ: فَنَتَّبِعَ آياتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزى .

قال تعالى (وَما كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا) .

وقال تَعَالَى (كُلَّما أُلْقِيَ فِيها فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُها أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ قالُوا بَلى قَدْ جاءَنا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنا وَقُلْنا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلالٍ كَبِيرٍ) .

وقال تعالى (وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلى جَهَنَّمَ زُمَراً حَتَّى إِذا جاؤُوها فُتِحَتْ أَبْوابُها وَقالَ لَهُمْ خَزَنَتُها أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آياتِ رَبِّكُمْ وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قالُوا بَلى وَلكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذابِ عَلَى الْكافِرِينَ) .

وَقَالَ تَعَالَى (وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيها رَبَّنا أَخْرِجْنا نَعْمَلْ صالِحاً غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَما لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ)

إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى أَنَّ اللَّهَ تعالى لا يدخل أحد النَّارَ إِلَّا بَعْدَ إِرْسَالِ الرَّسُولِ إِلَيْهِ.

(**قُلْ**) أَيْ يَا مُحَمَّدُ لِمَنْ كَذَّبَكَ وَخَالَفَكَ وَاسْتَمَرَّ عَلَى كُفْرِهِ وَعِنَادِهِ .

(**كُلٌّ مُتَرَبِّصٌ**)أَ يْ : مُنْتَظِرٌ مَا يَحِلُّ بِالْآخَرِ مِنَ الدَّوَائِرِ، كَالْمَوْتِ، وَالْغَلَبَةِ . وَقَدْ أَوْضَحَ فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ أَنَّ مَا يَنْتَظِرُهُ النَّبِيُّ ﷺ وَأَصْحَابُهُ وَالْمُسْلِمُونَ كُلُّهُ خَيْرٌ ، بِعَكْسِ مَا يَنْتَظِرُهُ وَيَتَرَبَّصُ الْكُفَّارُ . ك

كقَوْلِهِ تَعَالَى (قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ) .

وَقَوْلِهِ تعالى (وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ) .

وَالتَّرَبُّصُ : الِانْتِظَارُ .

(**فَتَرَبَّصُوا**) أي : فانتظروا .

(**فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ**) أَيِ : الطَّرِيقِ الْمُسْتَقِيمِ

(**وَمَنِ اهْتَدَى**) إِلَى الْحَقِّ وَسَبِيلِ الرَّشَادِ .

وَهَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى (وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا) .

وقال (سَيَعْلَمُونَ غَداً مَنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُ) .

الفوائد :

١. أن الرسول ﷺ جاء بالآيات الكثيرة التي تدل على صدقه ونبوته .
٢. تعنت هؤلاء الكفار .
٣. أن الهداية بيد الله .
٤. أن من أعظم آيات النبي ﷺ القرآن العظيم .
٥. أن الله لا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه بإرسال الرسل .
٦. تمام عدل الله تعالى .
٧. تهديد هؤلاء المكذبين بالرسل .

والله أعلم

٣٠ رمضان ١٤٤٥هـ

أخوكم/ سليمان بن محمد اللهيميد

السعودية – مرفحاء